الأسرة في الغرب

أسباب تغيير مفاهيمها و وظيفتها

دراسة نقدية تحليلية

د. خديجة كرار الشيخ الطيب بدر



دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الأسرة في الغرب

أسباب تغيير مفهومها ووظيفتها

دراسة نقدية تحليلية

الأسرة في الغرب أسباب تغيير مفهومها ووظيفتها:
دراسة نقدية تحليلية/ خديجة كرار الشيخ الطيب بدر.-
[دمشق] : دار الفكر، [٢٠٠٩].- ٣٨٤ص؛
٢٤سم.

١-٢١٦,٥ ش ي خ أ ٢- العنوان ٣-الشيخ الطيب بدر
مكتبة الأسد

أ. د. خديجة كرار الشيخ الطيب بدر

قسم مقارنة الأديان / كلية الدعوة - جامعة أم درمان الإسلامية

الأسرة في الغرب

أسباب تغيير مفهومها ووظيفتها

دراسة نقدية تحليلية





دار الفكر - دمشق - البرامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

الأسرة في الغرب

أسباب تغير مفاهيمها ووظيفتها

دراسة نقدية تحليلية

أ. د. خديجة كرار الشيخ الطيب بدر

الرقم الاصطلاحي: ٢١٨٤.٠١١
الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-062-9
الرقم الموضوعي: ٣٠٥ (الطبقات الاجتماعية)
٣٥٢ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الأولى : ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

المحتوى





﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[الروم: ٣٠/٢٠-٢١]



تقديم

أ.د. محمد عثمان صالح

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأفضل الصلوات وأتم التسليمات على سيد ولد آدم المصطفى المجتبى محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم، اختاره الله رسولاً للعالمين خياراً من خيار. حث على بناء الأسرة ومتّن صرح الأمة، وأقام أركان الدولة، وأنار للإنسانية ظلام الجاهلية، وأزال ضلالها، وكافح فجورها، وكان ذلك رحمة للعالمين.

أما بعد، فقد أسعدني الاطلاع على البحث القيم الذي كتبته أختنا الفضلى الدكتورة خديجة كرار الشيخ الطيب من هيئة التدريس بجامعة أم درمان الإسلامية، معهدِ دراسات الأسرة، إذ أصبح مؤلَّفها أول باكورة أبحاث معهد دراسات الأسرة، وهو الطليعة لما يأتي بعده من إنتاج فكري يتناول الأبعاد المحلية والإقليمية والعالمية لقضية أصبحت الآن مشغلة كبيرة للمهتمين بشأن بناء الأسرة على قواعد الوحي والفطرة السليمة. ذلك أن الناذّين عن الفطرة من المثليين (الشاذين) والأنثويات (المارقات) استهدفوا في العقود الأخيرة هذا الكيان الاجتماعي الذي يعدُّ الخلية الأولى في جسد الإنسانية المعافى، ما دفعهم إلى ما وصلوا إليه من الهدم

إلا اتباع الشهوات الزائلة والميل العظيم الذي قال الله فيه محذراً العقلاء: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٢٧].

وقد عملت في هذا المجال منظمات وكيانات، وأقيمت له منتديات ومؤتمرات. تتخفى وراء قضية السكان، وحقوق الإنسان، وقضية المرأة، والحرية الشخصية، والحداثة وغير ذلك من الأسماء والمسميات. ومما يؤسف له أن المنظمات الدولية أصبحت متورطة وعاملة في إطار تلك الدوائر؛ الأمر الذي يحيّر أولي الألباب ويكشف عن الأعداء النقاب.

إن معالجة الدكتورة خديجة للموضوع معالجة دقيقة وشاملة حيث خَبرت الواقع، وألمت بالمقاصد، واستخدمت المعلومات والنصوص استخداماً أبرز ما ترمي إليه من حماية بناء الأسرة.

فقد حددت مفهوم الأسرة في الإسلام، وكان أبرز ما جاء فيه بيان مفهوم الزوجية في الوجود، وأن بناء الأسرة آية من آيات الله تقوم على عهد وميثاق قوي. فقد أبانت الباحثة أن محاولات تغيير مفهوم الأسرة ستتصادم مع السنة الكونية والقوانين الإلهية والفطرة الإنسانية السليمة.

جملة القول: أن هذا الكتاب قد أوفى الموضوع حقه، وفتح آفاقاً واسعة للنظر في قضايا هامة على رأسها مصادر ومرجعيات التوجهات اللادينية التي بسطت سلطانها على الغرب، وهي ذات التوجهات التي استهدفت اليوم مجتمعات المسلمين باسم العولمة، وهذا في تقديرنا ما ينبغي أن يهتم به الباحثون.

والله ولي التوفيق

أ.د. محمد عثمان صالح

مدير جامعة أم درمان الإسلامية

ذو القعدة ١٤٢٦هـ/تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٥م

تقديم

د. نعمة كرار محمد

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين. فقد جاءت رسالة الإسلام على يدي الرسول الكريم فرقاناً بين الحق والباطل، وهداية للعباد وفق شريعة الله الخالق تحقيقاً للعبودية وامتثالاً لأمره ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٢-١٦٣].

ولعل من أهم النظم التي قامت عليها خطة الاجتماع الإنساني هو نظام الزوجية الذي شاءت مشيئته أن يكون أساساً متيناً للمجتمع من خلال رباط المودة والرحمة والسكن والتشريعات الخاصة به.

إن مؤسسة الزواج في الإسلام مؤسسة ذات أبعاد ومضامين اجتماعية تتجاوز المحيط الخاص إلى الوجود الإنساني بأكمله، فهي ركيزة أساسية للحفاظ على النوع الإنساني وتنميته كماً وكيفاً؛ فالفرد داخل هذه المؤسسة تتوافر له الحياة في بيئة إنسانية (الأسرة) تحيطه بالرعاية الكاملة، وتغرس فيه قيم المجتمع وفضائله، ومن ثم يخرج فرداً صالحاً متوافقاً ومتواصلاً مع الآخرين؛ بما يشمل ذوي القربى والأرحام، وامتداداً إلى

الجيرة والعشيرة فالأمة، وهكذا تحقيقاً لمسؤولية الاستخلاف وعمارة الكون.

لقد أدت النظرة المادية القائمة على العلمانية والإنسانية بوصفهما ديناً جديداً إلى الانحراف بمفهوم الزواج والأسرة في الغرب عن أصله الرباني، وظهرت تيارات واتجاهات مختلفة تتفق جميعها على تدمير الأسرة.

لقد أُفرغ مفهوم الأسرة في الغرب من أسسه وتشريعاته، وأقصيت الأسرة عن دورها الأساسي في صنع الأجيال، وتشكيل أنظمة المجتمع، وامتدت معاول الهدم لديار المسلمين. ومما يؤسف له أن هذه التيارات الباطلة وجدت مداخلها للتأثير في مجتمعاتنا المسلمة عبر ثقافة العولمة والاتفاقيات الدولية التي تهدف لتسيير المجتمعات وفقاً لمعاييرها المادية اللادينية.

من هنا تأتي أهمية البحث في قضايا الأسرة بغرض اكتشاف التحديات الدخيلة التي تستهدف نظامها ووظائفها، ومن ثم تنويرِ المجتمعات المسلمة وتحصينها من مخاطر النظرة المادية اللادينية التي تؤدي إلى تقويض النظام الاجتماعي بأكمله.

وإنه ليسعدني في هذا المقام أن أقدم فاتحة الإنتاج الفكري لمعهد دراسات الأسرة (سلسلة دراسات الأسرة) وهي مجموعة أردنا أن يتوالى إصدارها تباعاً، وأن نقدم من خلالها جهود العلماء والباحثين المبذولة لمعالجة القضايا والمشكلات المعاصرة في مجال الأسرة.

وبين يدي القارئ الكريم باكورة هذا الإنتاج كتاب (الأسرة في الغرب - أسباب تغيير مفهومها ووظيفتها) لمؤلفته الدكتورة خديجة كرار الطيب، الباحثة المتفرغة بالمعهد. وهو خلاصة لجهد علمي مخلص؛ فقد أحكمت

خطته، واستوثقت أدلته، وأصابت نتائجه، وقد جاء في أوانه حيث تتعرض الأسرة المسلمة لمهددات تستهدف تماسكها واستمرارها.

في هذا الكتاب دعم قوي لأهداف المعهد، وهو ذو أهمية خاصة لطلابه المهتمين بدراسات الأسرة. كما أنه يضع قضية الأسرة برمتها بين يدي المثقفين وفئات المجتمع والباحثين المهتمين في المجالات كافة ليشاركوا بتقديم فكرهم ورؤاهم؛ حماية للأسرة والمجتمع.

وأخيراً ندعو الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسنات المؤلفة، وأن يتواصل عطاؤها لخدمة الإسلام والمسلمين.

د. نعمة كرار محمد

استاذ علم الاجتماع و مدير معهد دراسات الأسرة

رمضان ١٤٢٦هـ/تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥م



تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٣].

الزوجية خلق الله وتدبيره للوجود الإنساني وبثه وانتشاره، مستخلفاً في الأرض، مؤتمناً عليها إلى قدر معلوم. والزوجية نواة الأمة المستخلفة، فيها تتجدد معجزة الخلق والميلاد، وفيها يتم إعداد النشء الذي يشكل لبنات بناء المجتمع والأمة؛ تحقيقاً لمقاصد الخلق وغاياته. وعليه لم يكن غريباً أنْ أعلى الإسلام من شأن الأسرة مفهوماً ونظاماً، وحصّنها بتشريعات شاملة ودقيقة؛ بدءاً بتكوينها وانتهاءً بفضها، إما بالموت أو بأبغض الحلال إلى الله (الطلاق). وشملت تشريعاتها ما بين التكوين والنهاية من بنين وحفدة وذوي قربى.. إلخ.

ظلت هذه المنزلة الرفيعة للأسرة في جوهر الإسلام وتوجهاته في

جميع مراحل تنزيله على الإنسانية. والشاهد على ذلك ما نجده، فيما لم تعبث به يد التحريف والتبديل، في بقية مما ترك آل موسى وعيسى عليهما السلام. فنجد المنزلة الرفيعة ذاتها للأسرة في سلالة يهودا، وإن ارتبطت بما اختصوا به أنفسهم وفق رؤاهم وهواهم مما لم ينزل به الله من سلطان، كما نجد ذلك لدى النصارى الذين نسبوا أنفسهم للمسيح، أي المسيحيون وهم يشكلون غالبية سكان الغرب الأوربي والأمريكي.

هذه المكانة السامية للأسرة المرتبطة بالدين تقتضي أن نعمل على صونها وحمايتها من كل ما يهدد مفهومها ونظامها وأمنها واستقرارها.

وإذا كانت الأسرة المسلمة قد ظلت متماسكة المفهوم والنظام والتشريع، بفضل ارتباطها بأصول الدين وتماسك مجتمعات المسلمين رغم تقلبات الأوضاع السياسية والاقتصادية.. إلخ؛ إلا أن الأسرة في الغرب تعرضت لتغييرات وتحديات كثيرة فيما يخص مفهومها ونظامها ووظيفتها، وذلك بالرغم من التقدم والرفاه المادي. فقد طرأت على الغرب طوارئ طالت العقيدة والقيم والأخلاق ونمط الحياة، وتسللت مؤثرات هذه الطوارئ خلسة إلى مكونات المجتمع خاصة (الأسرة)، فكان الناتج خلخلة للبناء، وتغييراً في المفاهيم والمبادئ والقيم والمصطلحات.

ولم يقف الأمر عند حدود الغرب، بل بدأت هذه التغييرات والمؤثرات تأخذ طريقها إلى بلاد المسلمين بمنهجية واستراتيجية مدروسة. بدأت أولاً بالغزو، والاحتلال، والحكم المباشر باسم الاستعمار الذي كان في حقيقته تخريباً؛ فقد استغل الغزاة كل وسائل الاستلاب السياسي والفكري والثقافي والديني. وحسب الناس أن انتفاضة الشعوب واستقلالها قد رفعت عن مجتمعات المسلمين البلاء والداء، لتعود إلى أصولها، وتستعيد سيرتها الأولى. ولكن تحولت الاستراتيجية والمنهجية

الغربية إلى احتلال غير مباشر عبر مؤسسات خادمة للأهداف ذاتها، مع اللجوء إلى الاحتلال متى استدعى التخطيط الاستراتيجي ذلك؛ فكان ما حدث في فلسطين والصومال وأفغانستان ثم أخيراً العراق.

ولم يقف الأمر عند ذلك؛ ففي العقود الأخيرة من القرن العشرين كشف الغرب عن مشروع خطير يستهدف العالم الإسلامي وغيره. ويتمثل في العزم على بسط هيمنة مفاهيم الثقافة الغربية، خاصة الأمريكية، فكراً وسلوكاً ونمط حياة، أي عولمتها، وأصبح مصطلح عولمة (Globalization) بديلاً جديداً تتخفى تحته نزعة قديمة للاستعمار (Colonization).

بدأت المتغيرات الغربية تتسلل إلى مجتمعاتنا مستهدفة نواتها الأساسية (الأسرة) صانعة الأجيال، ومستهدفة مكوناتها من نساء وشباب وأطفال. وذلك عبر استراتيجية جمعت بين وسائل الغزو الفكري والثقافي والسلوكي، ولاسيما التطور التقاني في وسائل الاتصال (الفضائيات والإنترنت)، وبين استخدام آليات منظمة الأمم المتحدة لتنزيل تشريعات خاصة بالمرأة والطفل والشباب والسكان. أما المحتوى والمضمون الذي يسعى الغرب لعولمته عبر هذه الآليات فيتمثل في عملية انقلاب جذري في مفهوم الأسرة تكويناً ووظيفة، وفي علاقة مكوناتها من نساء وشباب وأطفال بها. وفي هذا انقلاب جذري على مواثيق الأمم المتحدة التي نصت صراحة على احترام حق الشعوب في انتمائها لعقائدها وثقافاتها وأنماط حياتها. وأستطيع التأكيد على هذه الحقائق بحكم تجربتي التي كانت حافزاً قوياً وراء تناول هذا الموضوع. فقد شاركت في لجنة وضع المرأة بالأمم المتحدة (Commission on the Status of Women) ممثلة للسودان لدورتين (١٩٩٣ - ١٩٩٤م) بنيويورك. وكان موضوع الدورة الثانية (١٩٩٤م) مناقشة خطة العمل التي تم تقديمها لمؤتمر المرأة

العالمي الرابع بالصين (١٩٩٤م). وتعدّ هذه الوثيقة، إلى جانب وثيقة مؤتمر السكان بالقاهرة (١٩٩٤م)، برنامج عمل تفصيلياً لما ورد في اتفاقية (إلغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة - CEDAW). كما أن مشاركتي في لجنة البرلمانيات بالاتحاد البرلماني الدولي لدورات ست على مدى ثلاث سنوات (١٩٩٣ - ١٩٩٦م) أتاحت لي الاطلاع على كثير من خطط العمل التي تشكل برامج لعولمة مفاهيم الثقافة الغربية، في مجال المرأة والأسرة خاصة، وتدور جميعها حول المساواة الكاملة بين الجنسين ومنح المرأة حقوقها وحريتها الجنسية. وقد غلب على هذه المنابر وجود الأنثويات التحرريات بما في ذلك توابعهنَّ من العالم الإسلامي مما أخضع الوثائق وبرامج العمل للهيمنة الغربية.

وفي مطلع القرن الحادي والعشرين ازدادت وتيرة تنفيذ مشروع عولمة الإرث الغربي في مجتمعات المسلمين خاصة، فباسم التغيير والإصلاح - كلمة حق يراد بها باطل - بدأت عملية الاختراق عبر أخطر مجالين:

الأول هو المرأة؛ فقد جعل الغرب من نفسه حامي حمى المرأة المسلمة، مطالباً بمنحها حقوقها وحريتها.

أما الثاني فهو المطالبة بتغيير المناهج التعليمية، ليس في مجال العلوم والتقانة والإبداع الصناعي، ولكن في مجال القرآن والعلوم الإسلامية والمدارس الدينية. وهي عملية استهداف للدين الإسلامي بحسبانه العقيدة الوحيدة الجامعة لشؤون الدين والدنيا، وبحسبانه مصدر قوة وصمود المسلم، على الرغم من الضربات الموجعة التي تلقاها منذ بغداد الأولى (القرن السابع الهجري) والحروب الصليبية ثم الاحتلال مقروناً بكل أساليب القهر والاستلاب.

إن تغيير مفهوم الأسرة ظاهرة غربية ارتبطت بالتوجه اللاديني الإنسانوي العَلْماني الذي أخضع أنظمة الحياة الغربية بما فيها نظام

الأسرة للنظرية الداروينية، وجردها من أطرها الدينية، وعليه فإن تغيير مفهوم الأسرة في ذاته لم يكن مشكلة لعلماء الاجتماع الغربيين؛ فهو وفق الداروينية تطور حتمي يقضي إما بإلغاء الأسرة أو تحويل وظائفها لمؤسسات الدولة. والهدف من ذلك تحريرُ أطرافها من إسار الزوجية التقليدي البالي حسب زعمهم.

ولا توجد، في حدود اطلاعي، دراسة تناولت بالتحليل الأسباب التي أدت إلى ظهور اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة في الغرب ودورها في خلخلة النظام الأسري. فالدراسات التي انحازت للأسرة، ومعظمها لعلماء لاهوت مسيحيين، تركز على الدعوة للزواج الشرعي، والحفاظ على نظام الأسرة مؤسسةً دينية. وتكتفي هذه الدراسات بانتقاد دعاة تغيير مفهوم الأسرة دون دعم هذا الانتقاد بالحقائق العلمية والتاريخية التي تؤكده.

أما في العالم الإسلامي فقد أشار عدد مقدر من العلماء إلى مكونات تغيير مفهوم الأسرة في بعض الدراسات. وتركز هذه على التصدي لشعارات التحرير والمساواة، وحقوق المرأة الجنسية وحريتها.. إلخ، مع التركيز على ما قدمه الإسلام للمرأة في مجال هذه الحقوق. ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال الشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ أبو الأعلى المودودي، والشيخ مرتضى المطهري. ولا توجد، في حدود اطلاعي، أي دراسة متخصصة في تحليل الدعوة لتغيير مفهوم الأسرة من حيث أصلها ومضامينها وأهدافها وواجهاتها. ونلاحظ في الوقت ذاته كثرة الكتابات الداعمة لنشر مضامين تغيير مفهوم الأسرة في مجتمعات المسلمين وذلك بتركيزها على المرأة بوصفها مدخلاً لهذا التغيير. ومن أمثال ذلك مؤلفات: مرقص فهمي، وقاسم أمين في مطلع القرن العشرين. أما في خواتيم القرن العشرين

ومع انطلاقة مشروع العولمة نلاحظ ظاهرة كثرة الكاتبات من النساء اللائي شكلن نواة للحركة الأنثوية التحررية في العالم الإسلامي، التي تقوم في نشر هذه الأفكار تحت ستار تحرير المرأة، ومن بين هؤلاء نوال السعداوي وفاطمة المرنيسي.

يمثل هذا الوضع تحدياً خطيراً لمجتمعات المسلمين؛ فاستهداف المرأة زائداً استهداف مناهج التعليم اليوم، هو استهداف للأسرة، وذلك لتغيير مفهومها ونظامها وتشريعاتها ووظيفتها، لتعاد صياغتها على النمط الغربي، والمستهدف عبر ذلك هو المجتمع المسلم كله. ومن هنا تأتي أهمية دراسة اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة في الغرب. والهدف الأساسي لهذه الدراسة - في ظل استراتيجية العولمة - هو تزويد القارئ المسلم بمصادر ومضامين وأهداف وواجهات وأساليب ووسائل تغيير مفهوم الأسرة في الغرب ليستبين - أولاً - عظمةَ ورقي ما قدمه الإسلام في هذا الصدد. ولحفزه ثانياً إلى تحصين نفسه وأسرته ومجتمعه، مما يحيط به من مخاطر. وليسهم ثالثاً في هداية من جندوا أنفسهم لخدمة نشر هذه المفاهيم عبر منظماتهم أو مؤسساتهم التعليمية والإعلامية مقابل ما يتلقونه من دعم مالي وغيره.

ولتحقيق هذه الأهداف فإن خطة هذا الكتاب اشتملت على فصل خاص بالمفهوم الإسلامي للأسرة مع مقدمة ببيان أهمية هذا الفصل في كتاب عن موضوع غربي. يلي ذلك فذلكة تاريخية موجزة عن تاريخ الحضارة الغربية في الفصل الثاني. ويتناول الفصل الثالث اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة، وذلك بالنظر في جذورها ومصادرها في إطارها التاريخي. أما الفصل الرابع الأخير فيركز على أهم واجهات تنفيذ مخطط تغيير مفهوم الأسرة في الغرب وهي الحركة الأنثوية. ويتبع الكتاب في كل ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

وختاماً يمكن القول: إن موضوع هذا الكتاب وبهذه الخطة يركز على المفهوم الأساسي للأسرة المركوز في العقيدة التي هي الإسلام. ويركز على التغييرات التي طرأت على هذا المفهوم والتيارات التي قامت بهذا التغيير في الغرب. وهذا يعني أن ثمة قضايا - ذات صلة بالموضوع سيتم التطرق إليها - ستشكل موضوعات هامة للبحث مستقبلاً؛ وينبغي على علماء المسلمين؛ خاصة علماء الاجتماع والفلسفة والسياسة، المبادرة بتناولها بحثاً وتحليلاً، حتى تأخذ المفاهيم الغربية المستحدثة التي تناولها الكتاب عمقها وأبعادها الكاملة، وستتم الإشارة إلى هذه الموضوعات في خاتمة الكتاب بإذن الله.

اللهم اجعله علماً نافعاً، وجهداً واجتهاداً خالصاً في سبيلك وفي سبيل إعلاء كلمتك ونصرة دينك، وألهم - اللهم - به المسلمين الصواب لما فيه الخير لدينهم ودنياهم، فأنت وحدك المستعان لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

والحمد لله رب العالمين

المؤلفة



الفصل الأول

مفهوم الأسرة في الإسلام

مقدمة
حول أهمية هذا الفصل

يتناول هذا الكتاب اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة في الغرب، وما تشكله من تحديات للأسرة عموماً وللأسرة المسلمة خصوصاً. وإذا كانت بلاد المسلمين قد تعرضت في السابق للمؤثرات الغربية عبر الاحتلال الغربي، فإنها اليوم مستهدفة دينياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.. إلخ. وذلك عبر استراتيجية احتلال جديد وخطير، تتمثل في عولمة (Globalization) الفكر والثقافة والاقتصاد والسياسة والسلوك الغربي. والعولمة بهذا المفهوم ما هي إلا عملية احتلال جديد (Neo-colonialism) عبر وسائل وأساليب جديدة مع الإبقاء على استراتيجية الاحتلال المسلح خياراً بديلاً إذا تطلب الأمر.

وفي إطار هذه الاستراتيجية الشاملة ستكون الأسرة هدفاً لمفاهيم غربية قد تؤدي لإرباك نظامها، وتغيير مفهومها وقيمها الأصيلة ووظيفتها في تربية الأجيال.

وعليه فلابد للمسلمين من فهم واستيعاب اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة في الغرب. وهذا يقتضي أولاً المعرفة والإلمام التام بمفهوم الأسرة في الإسلام. ومن هنا كانت أهمية هذا الفصل حول مفهوم الأسرة في الإسلام. والمقصود هنا ليس مفهوم التفاصيل الفقهية والتشريعية لنظام الأسرة المسلمة؛ فهناك كثير من الكتب المتخصصة في هذه المجالات ولاسيما أمهات الكتب الفقهية. بل يمكن القول: إن غالبية المسلمين

يدركون ولو بعضاً من هذه الجوانب؛ فالحياة الأسرية، عملاً ومعاملات، مرتبطة بحركة الحياة اليومية.

وعليه فالمقصود هنا - ووفق طبيعة هذا الكتاب - معرفة الأصول الإسلامية الثابتة الخاصة بمفهوم الأسرة، تلك التي لا تتأثر بالمتحرك فيها أي الأطراف المكونة للأسرة وما يتصل بها من المكونات النفسية والعوامل الاجتماعية.. إلخ. فالمقاصد الربانية، وما يتصل بها من تشريعات وأحكام قطعية أو اجتهادية، قيست عليها واكتسبت مشروعيتها بالإجماع؛ هي ثوابت لا يمكن إخضاعها لعوامل النفس ونوازعها وميولها وقدراتها؛ فالنفس الإنسانية هي التي يجب أن تخضع للأصل وما يتصل به من مفاهيم وقيم في جميع حالاتها قوة وسمواً بالإيمان، أو ضعفاً وهبوطاً باتباع الهوى والشيطان.

من هنا يكون الهدف من هذا الفصل (مفهوم الأسرة في الإسلام)، أن يكون إطاراً ومنظاراً تأصيلياً يستصحبه المسلم وهو يقرأ عن أسباب تغيير مفهوم ووظائف الأسرة في الغرب. وذلك ليتمكن من خلاله من إدراك البون الشاسع بين ما جاء من لدن عليم خبير يعلم من خلق، وبين ترهات الفكر الإنساني حين ينبذ الوحي وراء ظهره، ويغلق كتاب الكون الواسع، ويكسر القلم مجسداً حالاً أخبر عنه عالم الغيب والشهادة بقوله الكريم: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٩٦/٦].

المبحث الأول
تعريف مصطلح الأسرة

لم ترد كلمة (أسرة) في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية اسماً أو صفة لنظام الزوجية الإنساني أو غيره؛ فالقرآن الكريم أشار للزوجين الذكر والأنثى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]. وأشار لزوج آدم عليه السلام: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢/٣٥]، وأشار للزوجة أحياناً بامرأة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ٦٦/١٠]، وأشار أحياناً للزوج (بالبعل): ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٢٤/٣١]، وأشار القرآن للنسل بالأولاد والبنين والبنات: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٥٢/٣٩]، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٣]، وهكذا يصبح الزوجان كما سماهم القرآن الكريم (الوالدين)، ويصبح الأبناء والبنات إخوة وأخوات.

وسمى القرآن الكريم رابطة زوجية البنين والبنات بالصهر والنسب، ويصبح الناتج عنهم، أي (الحفدة) كما سماهم القرآن الكريم، أعماماً وعمات وأخوالاً وخالات: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ [النور: ٢٤/٦١].

وقد جمع القرآن الكريم ما انحدر من الزوجين وأبنائهم تحت اسم (الأرحام) وهي (اسم لكافة الأقارب)[1]، أي الذين تجمع بينهم قرابة

---

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، من دون تاريخ، المجلد الثالث ٥/٧.

الدم، وهي مشتقة من الرحم مستودع الجنين في أحشاء الأم. وسماهم القرآن أيضاً (بالأقربين) و(ذوي القربى) يقول تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣] ويقول: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] وهم إذن أيضاً (العشيرة).

وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً مصطلح (أهل)؛ فجاء حيناً بمعنى أصحاب مثل أهل الكتاب، وأهل الذكر، وجاء بمعنى (سكان) مثل أهل القرى وأهل مدين، وكلها تدل على الصلة والرابطة الخاصة مع الكتاب والذكر والقرى.. إلخ.

وجاءت (أهل) بمعنى الزوجة كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ١٢/ ٢٥]، وجاءت بمعنى الزوجة والأبناء ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [طه: ٢٠/ ١٠]، وجاءت بمعنى الوالدين والإخوة في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٠/ ٢٩-٣٠].

ويبدو أن الفقهاء والمفسرين المؤسسين لمذاهب الفقه ومدارس التفسير في صدر الإسلام، لم يكن يعنيهم إيجاد مصطلح يسمى به نظام الزوجية وما ينضوي تحته من بنين وحفدة، وصهر ونسب، وأعمام وذوي قربى.. إلخ. فقد ركز الفقهاء - على اختلاف مذاهبهم - على الأحكام والتشريعات الخاصة بالزوجية تكويناً وفروعاً وتنظيماً للعلاقات، وتحديداً للواجبات والحقوق بين أطراف وفروع هذا النظام. وقد فصلت المذاهب الفقهية في هذه الجوانب بدقة متناهية، تناولت الزواج وما يتصل بمقدماته، وكيفية عقده، ومحرماته وموانعه، إضافة لواجبات وحقوق الطرفين وما يلحق بهما من نسل. هذا إلى جانب حقوق الوالدين والأقربين ونظام الميراث، بل وكيفية إنهاء الزوجية بما يضمن العدالة وسلامة الأطراف المعنية. كل ذلك مركوز في النصوص القرآنية والسنة المحمدية قولاً وعملاً، مع الاجتهاد في حال تعذر النصوص قياساً على هذه الأصول.

وعلى النهج ذاته سار المفسرون السابقون، حيث ركزوا على تفسير ما يتصل بالزوجية والزواج في سياقه من الآيات. فكلمة (أهل) لم تفسر على أنها مصطلح جامع يمكن أن يقوم مقام كلمة (أسرة) المستخدم اليوم. فالقرطبي مثلاً ركز على تبعية الأهل للزوج في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٩]، حيث قال: «فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث يشاء»[١]. كما فسر (أهلك) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢١] على أنها منزلك عند عائشة[٢].

أما معظم الفقهاء والعلماء من اللاحقين والمعاصرين فقد شاع عندهم استخدام مصطلح (الأسرة) اسماً جامعاً لنظام الزوجية وما يتصل به. كما استخدموا مصطلح (نظام الأسرة) كاسم لهذا الإرث الفقهي الدقيق من التشريعات والأحكام الخاصة بالزوجية. ومن هؤلاء على سبيل المثال إمام الأزهر الشيخ محمود شلتوت في كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة)، ومولانا أبو الأعلى المودودي في كتابه (الحجاب)، والشيخ آية الله مرتضى المطهري في كتابه (نظام حقوق المرأة في الإسلام)، والشيخ محمد الغزالي في كتابه (قضايا المرأة)، وجميع هذه الكتب موثقة في نهاية هذا الكتاب.

وعلى نهج الفقهاء والعلماء سار المفسرون اللاحقون والمعاصرون، فاستخدموا مصطلحي (أسرة) و(نظام الأسرة). فالشهيد سيد قطب مثلاً يستخدم (أسرة) في معظم، إن لم يكن في كل الآيات الخاصة بالزوجية، ففي مقدمة تفسيره لسورة النساء مثلاً يقول سيد قطب: «نجد في مستهلها تقريراً لحقيقة الربوبية ووحدانيتها، ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها..

---

(١) القرطبي، مرجع سابق، المجلد السابع، ١٣/ ٢٨١.
(٢) المرجع نفسه، المجلد الثاني، ٤/ ١٨٤.

ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة»[١]، ويقول في تفسير الآية الأولى من سورة النساء: «هذا الشوط الأول في السورة يبدأ بآية الافتتاح التي ترد الناس إلى رب واحد، وخالق واحد كما تردهم إلى أصل واحد وأسرة واحدة، وتجعل وحدة الإنسانية هي (النفس) ووحدة المجتمع هي الأسرة»[٢].

هكذا أصبح مصطلح (أسرة) اسماً للزوجية، وتعني في اللغة: أهل الرجل وعشيرته، وفي الاصطلاح الشرعي: هي الجماعة المعتبرة نواة المجتمع، والتي تنشأ برابطة زوجية بين رجل وامرأة، ثم يتفرع عنها الأولاد، وتظل ذات صلة وثيقة بأصول الزوجين من أجداد وجدات، وبالحواشي من إخوة وأخوات، وبالقرابة القريبة من الأحفاد (أولاد الأولاد) والأسباط (أولاد البنات) والأعمام والعمات، والأخوال والخالات وأولادهم. ويجمع المعنيَيْن اللغويّ والاصطلاحيّ: مفهوم الحماية والنصرة، وظهور رابطة التلاحم القائمة على أساس العرق والدم، والنسب والمصاهرة، والرضاع. ونظام الأسرة: هو الأحكام والقواعد التي تنظم شؤونها بدءاً وأثناء وانتهاء[٣].

ولا ندري من أول من توصل إلى اشتقاق كلمة (أسرة) من العلماء والفقهاء واستخدمها بهذا المعنى؟ فكلمة (أسرة) قد تكون مشتقة من (الأسر)، وهو لغة القبض والأخذ؛ فالزوج والزوجة والأبناء والأحفاد وذوو القربى كلهم أسير للآخر، أي مرتبط به كأنما بإسار، أي القِدْ وهو

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشرق، ط٣٠، ٢٠٠١م، المجلد الأول، ٤/ ٥٥٨.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٤/ ٥٧٣.

(٣) د. وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ص١٩-٢٠.

ما يعرف بالسير أو الرباط. وقد تكون مشتقة من (الآصرة) ومعناها ما يربط بين الناس من قرابة أو أي نوع من أنواع الصلة، وهذا مما ينبغي على علماء اللغة البحث فيه والله أعلم.

أما علماء الاجتماع من المسلمين فقد تأثر أغلبهم بعلم الاجتماع الغربي فيما يخصُّ تعريف (الأسرة). فقد اعتمد هؤلاء في تعريف (الأسرة) على البنية الهيكلية والوظيفية، متأثرين في ذلك بعلم الاجتماع الغربي خاصة الأمريكي في مدرستَيْه المعروفتين بالمدرسة الهيكلية أو البنيوية (Structunalist School) والوظيفية (Functionalist School).

ومن هؤلاء على سبيل المثال الدكتور عبد الباسط محمد حسن عميد كلية الدراسات الإنسانية سابقاً بجامعة الأزهر؛ فهو يعرّف (الأسرة) بأنها الوحدة البنائية الأساسية التي تنشأ عن طريقها مختلف المجتمعات الاجتماعية، وهي التي تقوم بالدور الرئيسي في بناء صرح المجتمع، وتدعيم وحدته، وتنظيم سلوك أفراده، بما يتلاءم مع الأدوار الاجتماعية المحددة، ووفقاً للنمط الحضاري العام[١]. ويستعرض الدكتور عبد الباسط تعريفات علماء الاجتماع الغربيين البنائية والوظيفية المرتبطة بطبيعة المجتمع الغربي وتطوراته دون إشارة للمفهوم والتعريف الإسلامي للأسرة.

ومن هؤلاء العلماء أيضاً الدكتور كمال دسوقي الذي ركز على التعريف البنائي الوظيفي للأسرة بحسبانها كما يقول: «أبرز الجماعات الأولية التي يتكون منها المجتمع كخلية أولى للحياة الاجتماعية.. ومسرح التفاعل الذي يتلقى فيه الفرد تنشئته الاجتماعية منذ أن يصبح

---

(١) عبد الباسط محمد حسن: علم الاجتماع، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ص٣٩٧.

عضواً فيها ومن خلال عضويته لجماعتها وعلاقاته بهم التي تخلق له أدواراً ليستمد من أداء وظائفها وضعه ومركزه الاجتماعيين الأولبين»[١].

ويضيف كمال دسوقي لهذا التعريف البنيوي الوظيفي بعداً تاريخياً تطورياً فيقول: «لا غنى لدارس الاجتماع وهو يدرس الأسرة في مجتمعه المعاصر عن أن يلم بأصلها التاريخي والتطوري. فلعل الأسرة هي أقدم كل منشآتنا الاجتماعية - أقدم حتى من نظم الزواج ذاتها التي هي بداية تكوينها في المجتمع»[٢].

أما تاريخياً فقد كانت الأسرة كما يقول د. سوقي (أمومية) بسبب غياب الرجل للصيد. وبتطور حرفة الصيد إلى الرعي أدت متطلبات القتال إلى قلب الوضع في الأسرة من النوع الأمومي إلى الأسرة الأبوية.. فالرعي قد يجعل الأب رئيس الأسرة ما دام هو مالك القطيع.. وبدأ الأبناء يرثون عنه كما يحملون اسمه.. والقتال دعم مركز الأب في ملكيته للزوجة والأطفال[٣].

ويمضي دسوقي، عبر نظرية التطور هذه، إلى القول بأن الأديان السماوية جاءت بعد ذلك فأعطت التوراة سنداً كبيراً للأسرة الأبوية بما حكته عن أسر إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. كما جاءت المسيحية تدعم العهد القديم بما أوحت به من ارتباط مفهوم الأب بالمسيح الإله المعبود... وأخيراً فإن الإسلام يميز الأب على الأم ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:

---

(١) كمال دسوقي: الاجتماع ودراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٧١م، ص٤٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤٥.
(٣) المصدر نفسه.

٣٤/٤]، ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١/٤] لأنه رب أسرة جديدة[١].

وفي السياق البنائي الوظيفي ذاته يعرف الدكتور إبراهيم عيسى الأسرة بأنها: «بناء اجتماعي يتكون من أدوار اجتماعية مرتبة على أساس المكانة، أساسها دور كلٍّ من الزوج والزوجة، اللذين يشتركان في مكان إقامة، وفي النشاطات الاجتماعية والاقتصادية وينجبان أطفالاً، تقوم الأسرة برعايتهم وحمايتهم، وتزويدهم بحاجاتهم المختلفة. وقد يضاف إلى هذين العضوين الأساسيَّيْن بعض الأقارب أو قد تمتد لتشمل الأبناء المتزوجين للزوجين الأساسيين وأحفاد هؤلاء، فتأخذ شكل ما أسميناه بالعائلة، أو ما يسمى عادة بالأسرة الممتدة. ويرتبط هذا النمط الأخير عادة بنمط الإنتاج الأساسي، حيث نجده أكثر انتشاراً في المجتمعات الريفية منه في المجتمعات الحضرية»[٢] هذا التعريف يجمع بين تعريف عالِم الاجتماع الغربي هارولد كريستينسن للأسرة بأنها: «مجموعة من المكانات والأدوار المكتسبة عن طريق الزواج أو الولادة»، وبين تعريف جورج ميردوك بأن «الأسرة وحدة اجتماعية تتميز بمكان إقامة مشترك، وتعاون اقتصادي ووظيفة تكاثرية.. وتتكون الأسرة من نسلها أو عن طرق التبني»[٣].

أما من حيث الوظيفة فانحصرت عند هؤلاء العلماء في حدود التكاثر وتربية النشء؛ ففي هذا الإطار نجد أن أهم وظائف الأسرة هي: «تنظيم العلاقات الجنسية والإنجاب، ورعاية وتنشئة الأجيال الجديدة، وضمان

(١) المصدر نفسه، ص٤٤٦-٤٤٧.

(٢) د. إبراهيم عيسى عثمان: الأصول في علم الاجتماع، كاظمة للنشر، الكويت ١٩٨٣، ص١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٠.

رفاهيهم»[١]. كما يلخصها د. دسوقي في «التناسل وتنظيم التصريف الجنسي بالطريقة المشروعة اجتماعياً في إطار ثقافة المجتمع.. وحماية الأطفال ورعايتهم.. وتشريبهم التراث الثقافي لمجتمعهم من كلام وعادات وقيم وتقاليد.. إلى جانب كونها مصدر إعطاء المراكز التي تُخلع علينا من اسم وعنصر وجنسية وديانة ومهنة.. إلخ»[٢].

وفيما يخصّ الشكل نلاحظ أن هؤلاء العلماء تبنوا مصطلحات علم الاجتماع الغربي لتوصيف الهيكل البنائي للأسرة؛ فالشائع عندهم مصطلحات مثل الأسرة الصغيرة (Nuclear Family) والأسرة الممتدة (Extended Family). . إلخ.

لا خلاف على أهمية تعريف الأسرة شكلاً ووظيفة، ولكن نلاحظ إغفال المنظور الإسلامي للأسرة في هذه التعريفات. فالأمر لم يقف عند حد استعارة المصطلحات؛ بل تعداه إلى تبني نظرية دارون التطورية أساساً لتعريف الأسرة، تقليداً لعلماء الاجتماع الغربيين.

فكيف يتقبل العقل المسلم القول بأن الأسرة سابقة للزواج، أو القول بأن الدين طور من أطوار الإنسانية؟ بل كيف يقبل المسلم القول بأن آية القوامة تمييز للرجل من المرأة وتكريس للأبوية كما ادَّعى دسوقي؟

ويكفي أن العلماء الغربيين قد أثبتوا خطأ النظرية الداروينية كما سيأتي تفصيله فيما بعد.

إن مشاكل علم الاجتماع الغربي لا تنحصر في نظرياته التي قام عليها وهي التي سيتم تفصيلها لاحقاً، بل تكمن المشكلة، فيما يخص موضوع الأسرة، فيما طرأ على تعريفها من تغيير. ففي منتصف القرن

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢١ .

(٢) كمال دسوقي، الاجتماع ودراسة المجتمع، مصدر سابق، ص٤٤٩.

العشرين، في أمريكة خاصة، لم تعد الأسرة لدى علماء الاجتماع الغربيين هي الزوجية والأبناء والأقارب فقط؛ فقد ظهرت اتجاهات لتوسيع معنى الأسرة، ليشمل إلى جانب الزوجية كل أنواع المعايشة المشتركة، وتطور الأمر في العقدين السادس والسابع (وإلى زماننا هذا كما سيأتي تفصيله) إلى إطلاق اسم الأسرة بما يشمل حتى العلاقات الشاذة عن التدبير الإلهي الرباني.

وقد أشار الدكتور حمودة عبد العاطي* - رحمه الله - إلى ما طرأ على مصطلح (أسرة) من غموض، بسبب التوسع غير المحدود في استخدامه. وعليه لم يكن غريباً حرصه على تنبيه القارئ الغربي إلى أن مصطلح (أسرة) في كتابه يعني الأسرة في السياق الإسلامي، وليس الأسرة مطلقاً. فالدكتور حمودة - رحمه الله - أدرك خصوصية وتميز معنى الأسرة في الإسلام ممّا يدور حوله في الساحة العلمية والعامة في أمريكة في العقدين السادس والسابع من القرن العشرين كما سيأتي تفصيله. وعليه قدم تعريفاً للأسرة جمع بين معناها اصطلاحاً ونظامها تشريعياً، وأحسب أنه من أفضل التعريفات التي وقفت عليها. يقول د. حمودة: إن الأسرة في السياق الإسلامي تعني:

> "A special kind of structure whose principles related to one another through blood ties and/or marital relationships, and whose relatedness is of such a nature as to entail "Mutual Expectations" that are prescribed by religion, reinforced by law, and internalized by the individual."(1)

---

* عالم اجتماع مصري، درس بالأزهر ثم كندة ثم أمريكة، وعمل أستاذاً بجامعة سيراكيوز بأمريكة. توفي ١٩٧٦م.

(١) Abd al-Ati, H., The Family Structure in Islam, American Trust Publications, 1977, P. 190.

الترجمة: (الأسرة في السياق الإسلامي هي): هيكل من نوع خاص، ينتمي أطرافه الأساسيون بعضهم لبعضٍ عبر رابطة الدم و/ أو العلاقات الزوجية. والرابطة (في هذا الهيكل) ذات طبيعة يترتب عليها توقعات متبادلة (بين الأطراف) مفروضة دينياً، معززة تشريعياً ومركوزة في وجدان وضمير الفرد.

ويشير د. حمودة إلى أن شكل الأسرة، بمصطلحاته التي استحدثها علم الاجتماع الغربي، مثل الأسرة الصغيرة والممتدة.. إلخ، ليس مهماً في الإسلام، إذ المهم في الإسلام هو تماسك الأسرة والمجتمع:

"Such forms in themselves are not crucial to the Islamic conception of family solidarity and societal cohesion, both of which are of primary concern for Islam, and that emphasis should be placed not on the form, but on the behavioural components. As a matter of fact, familial rights and obligations in Islam are independent of, and differentiated from the organizational forms of the family: the former are fixed while the latter are open and malleable."(1)

الترجمة: إن الأشكال في ذاتها ليست أساسية للمفهوم الإسلامي لتضامن الأسرة وتماسك المجتمع، وكلاهما من الاهتمامات الأساسية في الإسلام، والتركيز يجب أن يكون على المكونات السلوكية بدلاً من الشكل. والحقيقة هي أن الحقوق والواجبات الأسرية في الإسلام مستقلة ومفصولة عن الأشكال التنظيمية للأسرة؛ فالسابقة (أي الحقوق والواجبات) ثابتة، بينما الأخيرة (أي الأشكال التنظيمية) مفتوحة وقابلة للتشكيل.

---

(١) Abd al-Ati, H., ibid., P. 31.

ونضيف أن الإسلام لم يضع حداً للشكل إلا فيما يخصّ عدد الزوجات الذي حصره في أربع، مع شرط يصعب تحقيقه، وهو العدل. وقد فطن الفقهاء المؤسسون لمذاهب الفقه إلى أهمية الحقوق والواجبات لتضامن الأسرة وسلامة وتماسك المجتمع، فكان تركيزهم على التشريعات والقوانين، أي نظام الأسرة. وسار على خطاهم الفقهاء على مر العصور، بينما انشغل علماء الاجتماع المحدثون، وتحت تأثير ثقافة الاستلاب الفكري والحضاري، بالأشكال. وعلى نهج السابقين سار د. حمودة، فقدم للقارئ الغربي سفراً مميزاً عن نظام الأسرة في الإسلام. هذا النظام الذي يجمع بين التشريعات النصية وبين المستنبط من الأحكام قياساً عليها في واقعية ومرونة غير مسبوقة؛ فالعبرة ليست بالشكل - صغيراً أو ممتداً - بل بالربط بين مكونات الشكل أو الفصل بينها، إن لم تستقم الأمور، وفق ضوابط شرعية تحقق العدالة وتحفظ الحقوق التي جاء بها القرآن الكريم؛ مصدرُ هذه التشريعات.

وبالرغم مما تعرض له العالم الإسلامي من احتلال صليبي واستلاب ديني وفكري وثقافي منذ أواخر القرن التاسع عشر، وما بعد الاستقلال إلى اليوم، إلا أن تشريعات الأسرة احتفظت بأصلها الإسلامي. يقول إمام الأزهر السابق الشيخ محمود شلتوت رحمه الله: «وقد كان من الثمرات المرة لاحتلال الأجانب لبلادنا، وغزوهم المنظم لعقائدنا وتقاليدنا أن حملونا على نبذ أحكام الجنايات وأحكام المدنيات، ولم يبق لنا من شرعنا سوى بضعة أحكام تتعلق بجانب الأسرة»[1].

وشهد شاهد من أهلها على صمود نظام الأسرة الإسلامي بقوله: «بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر وما تلاه، حل سريعاً ما صدر في

(١) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٩٧٧م، ص٢١٩.

الشرق الأوسط من مجاميع القوانين المؤسسة على النماذج الأوروبية، محل الشريعة الإسلامية قانوناً تجارياً وجنائياً وإدارياً، ومع ذلك فإن الأحوال الشخصية أو قانون الأسرة قد احتفظ بالوشائج بين القانوني والمقدس على أوسع نطاق (باستثناء ملحوظ هو تركية)»[١].

ونلاحظ أن الغزو الثقافي قد استبدل بمصطلح (نظام الأسرة)، أو (تشريعات الأسرة)، أو (قوانين الأسرة)، مصطلحَ (الأحوال الشخصية) في محاولة لعزل الأسرة وبلبلة المعاني والمفاهيم. فالإسلام لا يعرف التجزئة كما عرفتها العقلية والثقافة الغربية؛ فالأسرة ليست شأناً شخصياً، أو أحوالاً شخصية، ولكنها شأن مجتمعي، بل هي أساس المجتمع، بها يبدأ، وعبرها يتمدد، وبها يحفظ عقيدته وهويته؛ وعليه فالأسرة تلتقي فيها، إلى جانب العبادات، المعاملاتُ والمدنيات والجنايات، وقد عمل المستعمر على انتزاع هذه من أصولها وقولبتها في قوالبه العلمانية الدنيوية في غفلة من المسلمين.

وصمدت تشريعات الأسرة، ولها يعود الفضل في حماية الأسرة المسلمة، ومن ثم فشل مشروع التغريب وانتزاع الهوية. وللأسرة يعود الفضل في الصحوة التي تسعى إلى استرداد المدنيات والجنايات والمعاملات إلى حظيرة الشرع للتكامل مع تشريعات الأسرة بعد أن عزلت عنها.

وختاماً، هل يمكن أن تكون تشريعات الأسرة، وهي بهذه القدرة على تنظيم وضبط نظام الزوجية بأطرافه وفروعه، وبهذه القدرة على استيعاب كل نظام الزوجية بدءاً بالتكوين وانتهاءً بالموت والإرث

---

(١) Meriwether, M, and Tucker, J, ed., Social History of Women & Gender In The Middle East, Westview Press.

ترجمة أحمد علي بدوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٠٥.

وما بينهما من تفاصيل، بل وبالقدرة على الصمود أمام محاولات الاستلاب والتغريب؛ هل يمكن أن تكون مجرد تشريعات تقوم بتحديد الحقوق والواجبات؛ أمراً ونهياً، تحريماً وإباحة، تحفيزاً وعقوبة.. إلخ؟

هل يمكن أن يكون المقصد الإلهي من ضبط وترتيب جزئيات نظام الزوجية عبر هذه التشريعات مجرد عملية بنائية ميكانيكية؟ إن كمال وشمول ومرونة وقوة هذه التشريعات، النصية والاجتهادية المركوزة فيها، تدل على أنه لابد أن يكون من ورائها مفهوم كليٌّ للأسرة يمثل الروح الملهمة والحافظة لهذه التشريعات.

وليس من الإنصاف أن نقول: إن هذا الأمر قد غاب عن فقهائنا وعلمائنا السابقين واللاحقين؛ فقد نجد في عطائهم الوفير في مجال الأحكام والتشريعات إشارات إلى هذا المفهوم الكلي، قد تأتي هنا وهناك في شكل قيم ومعانٍ تكمن وراء البناء، ولكنها سرعان ما تضيع في بحر تفاصيل الأحكام. وربما يكون للتركيز على الأحكام أثره أيضاً في حصر تعريف الأسرة الاصطلاحي في حدود رابطة الزوجية وما يرتبط بها عبر رابطة الدم والنسب، وما يترتب على هذه الرابطة من قيم التراحم والنصرة والحماية.. إلخ.

في المبحث الآتي محاولة نحسبها اجتهاداً لبلورة هذا المفهوم الكلي للأسرة في الإسلام، والكامن وراء كمال التشريعات وعدلها، وربما يكون من خلال هذه المحاولة الخروج بتعريف أشمل للأسرة في الإسلام إن شاء الله.

المبحث الثاني
أصول مفهوم الأسرة
في القرآن الكريم

القرآن الكريم هو المصدر الأساسي لمحتوى الإسلام عقيدة وشريعة، تلقاه المصطفى ﷺ وحياً منزلاً من عند الله تعالى بشيراً ونذيراً للعالمين. ونشهد أن محمداً ﷺ قد حمل الأمانة وبلغ الرسالة وأبان وأرشد قولاً وعملاً، فكان بحق الأسوة الحسنة والشفيع المرتجى، وأي علم أو فكر أو فن أو سلوك لا يرده المسلم إلى هذا المصدر الأساسي، أي إلى القرآن الكريم وبيان السنة فهو جهدٌ منبتٌّ عن الأصول لن يكون له فرع ولا ثمر.

وموضوع الأسرة لا يشذ عن هذه القاعدة، فقد فصل فقهاؤنا الكلام عليها أحكاماً وتشريعات بفضل العودة إلى هذا الأصل أخذاً منه وقياساً عليه. وعلى خطاهم نمضي في تلمس المفهوم الذي ألهم هذا العطاء التشريعي الذي ظل ثابتاً بفضل أصله القرآني، وامتد فرعه يستظل به المسلمون منذ فجر الإسلام وما زالوا.

وبالنظر في القرآن الكريم نتبين أن هذا المصدر الرباني الأصيل اشتمل حقّاً على ما يمكن أن نسميه المفهوم الإسلامي الكلّي للأسرة، ويمكن بلورة أصول هذا المفهوم، بعون الله، على النحو التالي.

الأصل الأول- الوجود الإنساني إرادة إلهية لغاية

من أسمى النعم التي اختص بها الله تعالى الإنسان دون سائر مخلوقاته نعمةُ العقل والقلب وحرية الإرادة، وبهذه الإرادة الحرة يمكن للإنسان استخدام عقله فيعقل ويتفكر ويتفقه، واستخدام قلبه ليتدبر؛ فتتكامل عنده آليات الفهم والتعمق في الأشياء من حوله بحثاً في مصدر الخلق والوجود واستدلالاً عليهما. ومن أقرب الأشياء للإنسان والتي تشكل مجالاً خصباً للنظر والتدبر هي نفسه، فيقول تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٠-٢١].

فالإنسان السوي لابد أن يتفكر فيما هو ألصق به، باحثاً عن مصدر وجوده وخلقه، وعن نسيج جسده وتركيبه، وعن محركات حسه ورغباته، وأسرار ضميره ووجدانه، بل وفوق كل ذلك عن سر وغاية ومقصد هذا الوجود وهذا التركيب.. إلخ.

ولم يترك التدبير الإلهي عملية التفكير والتدبر والبحث هذه رهناً لاستنتاجات الخيال والهوى، فيجعل الإنسان من الطبيعة حيناً مصدراً لوجوده ربما مصادفة، أو يلجأ للمادة فيجعل وجوده نتاجاً لصراعها وجدلها، أو يملي عليه خياله حالة نشوء وارتقاء تقوم على تنازع البقاء وانتخاب الأقوى، وربما يأخذ مخلوقاً آخر قرداً يرد أصله إليه ويظل السؤال: من أين جاءت القردة؟ دون جدوى. ولقد أراح القرآن الكريم الإنسان من كل هذا العناء فقد جاء بين طياته، وفي بعض آياته ما يمكن الإنسان من رد أصله إلى أكرم وأشرف البدايات. بدايات يمتزج فيها ما يستوعبه العقل الإنساني بما قُصد أن يُترك له آية وإعجازاً يشكل طاقة دافعة لآليات التفكر والتدبر في الآفاق بحثاً عن مزيد من حقائق الكون والنفس.

الوجود الإنساني، في هذا الإطار، هو إرادة إلهية لغاية وهدف، إرادة امتازت بما لم يتميز به أي وجود آخر في هذا الكون، فالله - تجلت قدرته - هو خالق الكون وما فيه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٢].

ويفصل القرآن الكريم هذا الخلق كخلق السماوات والأرض وما فيهما، خلقاً محكوماً بإرادة الله وقوانينه وسننه التي لا تتبدل ولا تتفاوت، وهو خلق منزه عن العبثية والبطلان: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١]، ومنزه عن اللعب: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٦].

أما الوجود الإنساني، وهو من خلق الله تعالى، فقد امتاز بأمور لم ترد في شأن المخلوقات الأخرى التي أشار القرآن إلى خلقها فحسب، ونورد هذه الميزات على النحو الآتي:

أولاً: اختص الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتعبير عن إرادة خلقه، في حضور أهم أطراف التدبير الإلهي، إذ كان هنالك في رحاب الله الملائكة الذين اختصهم الله بدوام التسبيح والحمد لله والطاعة، وكان إبليس رأس الشر والمعصية.

لم يخبر الله تعالى عن إرادة خلق غير خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٣٨/ ٧١].

ثانياً: اختص الله تعالى الإنسان بتفصيل العناصر التي خلقه منها. فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن خلق الجان من ﴿نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٧]، ومن ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٥].

أما في شأن الإنسان فقد ورد في القرآن الكريم تفصيل أكثر. ففي الآيات الواردة أعلاه إشارات لخلق الإنسان من ﴿طِينٍ﴾، ومن ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وفي إشارات أخرى من ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١١].

هذا هو أصل الجسد الذي سواه الله سبحانه وتعالى، ثم تأتي الإشارة إلى أصل الحياة والحركة في هذا الجسد، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩] ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٣٨/ ٧٢].

إذن هذا الجسد الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، اكتسب حركته وطاقة حياته بنفخة من روح الله تعالت قدرته.

ثالثاً: اختص الله سبحانه وتعالى هذا المخلوق الذي سواه ونفخ فيه من روحه بمكانة لم يحظ بها مخلوق سواه، هذه المكانة تجسدت في أسمى صورها، وهي التوجيه الرباني، لمن أخبروا بخلقه، بكيفية استقباله، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩]، فالسجود لا يكون إلا لله تعالى، ولكن تم تكريم الإنسان به تكريماً لتلك النفخة من روح الله، والتي لولاها لظل ذلك الجسد الطيني هيئة بلا روح.

رابعاً: امتاز الإنسان بأنه المخلوق الوحيد الذي ارتبط خلقه بغاية وهدف.

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١١/ ٦١].

فالعبادة، والخلافة واستعمار الأرض مكوناتُ المهمة الأساسية التي من أجلها خلق الإنسان. وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - هذه المهمة بالأمانة تأكيداً على أنها ليست هبة ولا حقاً للإنسان يفعل بها ما يشاء. كما أنها مرتبطة بأجل ويوم يحاسب فيه الإنسان عليها، وينال جزاءه؛ ثواباً أو عقاباً.

ومن عدل الله مع الإنسان أن هذه الأمانة لم تعرض عليه وحده وإنما على أطراف عدة، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢] إذن حمل الإنسان هذه الأمانةَ الصعبة بطوعه واختياره، أمانة العبادة والاستخلاف على الأرض واستعمارها، وإذا كانت أمانة العبادة تتمثل في أداء الشعائر والتزام المعروف قولاً وسلوكاً، فإن أمانة الاستعمار والاستخلاف هي أيضاً عبادة لله بالعمل الصالح الذي جاء في القرآن دائماً متعلقاً بالإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

خامساً: اختص الله الإنسان دون سائر خلقه ببيان تكوينه النفسي الذي تتجلى فيه قدرة الله سبحانه وتعالى، فالإنسان سواه الله - سبحانه وتعالى - وركبه وعدّله، وخلقه في أحسن تقويم؛ وألهم الله نفس الإنسان فجورها وتقواها. والإنسان بهذه الصفات قادر على حمل الأمانة والسمو بالنفخة الروحية الربانية، كادحاً إلى الله تعالى بالعبادة والعمل الصالح، بل والاستزادة من ذلك فوق المفروض والواجب والمستحب تنفلاً وتقرباً إلى الله فيحبه الله. قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «إن الله تعالى

قال: من عادى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني عبدي لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[١].

وفي الوقت ذاته يحمل الإنسان من الخصائص السالبة التي يمكن أن تهويَ به إلى أسفل سافلين، ففي الإنسان عنصرا الجهل والظلم، وقد بدا جهله بقبوله لأمانة الاستخلاف الصعبة؛ وفي ذلك ظلم لنفسه. والإنسان ضعيف ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٤/ ٢٨]، وهو مجبول على حب الخير ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٨] شحيح به على الآخرين ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٧٠/ ٢١]، وهو مجادل ملحاح ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٤].. إلخ.

والصفات الموجبة زادُها التقوى، تقود صاحبها على صراط مستقيم متقرباً إلى الله، متعلقة روحه بمقاصد السماء. والصفات السالبة زادُها الفجور والكفر، تقود صاحبها على صراط المغضوب عليهم الضالين، وهما خياران خاضعان لإرادة الإنسان واختياره الحر.

سادساً: اختص الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتأهيل لحمل الأمانة، وبالعون على ذلك، لم يتركه للتخبط والتجربة والاجتهاد. ومن أوجه الإعجاز أن هذا الإعداد تم، والإنسان في رحاب الله لئلا تكون له حجة على الله تعالى. وقد أخبر القرآن عن هذا بمشاهد مملوءة بالحيوية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في لفظه عن أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب التواضع، فتح الباري، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ١١/ ٤٠٠، وأخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٢٥٦.

والحركة والمعاني التي لا تخفى إلا على قلوب ران عليها سوء فعل أصحابها، أو جعل الله عليها أكنَّةً تحول دون الفقه. فكيف كان الإعداد لمهمة الاستخلاف في الأرض؟

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠-٣٤].

جمعت هذه الآيات أهم عناصر إعداد الإنسان للخلافة واستعمار الأرض، نوجزها على النحو الآتي:

أ- إشعار الإنسان بمكانته الخاصة، وذلك بتكريمه بسجود الملائكة له، رغم ما يحمله في تكوينه من احتمالات الزلل، فالسجود مدعاة لحفز الإنسان للسمو بنفسه لمكانة الساجدين له.

ب- إبراز الهدف الأساسي لخلق الإنسان، أي عبادة الله الخالصة قولاً وعملاً، فالملائكة مسكونة بِهَمّ إحسان العبادة، فعبرت عن ذلك بإبداء توجسها من المكنون في الإنسان من إمكانات الجنوح والفساد وسفك الدماء، وفي هذا المشهد تنبيه للإنسان بهدف وجوده والعبء الملقى على عاتقه.

ج- إبراز القدرات الإيجابية الكامنة في الإنسان مما يطمئن على أهليته لحمل الأمانة، ومنها القدرة على تعلم الأسماء كلها، مقارنة

بمحدودية قدرات الملائكة، هذا إلى جانب إبراز أدب التواضع والخطاب مع الذات العلية.

د- تنبيه الإنسان، وبصورة غير مباشرة، إلى أنه بين يدي رقيب عليم محيط ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فهل سيستشعر الإنسان هذه الرقابة والعلم وهو يؤدي مسؤوليته؟!.

هـ- تقديم نموذج الطاعة (الملائكة) ونموذج المعصية (إبليس) برفضه أمر السجود، بل كشف طبيعة المكونات النفسية والأخلاقية لهذا المستكبر، يقول تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦]، فبينما كان هَمُّ الملائكة الحفاظَ على عبادة الله من فعل الإنسان المتوقع، كان إبليس يقيس المواقف بمقاييس بعيدة عن قيم الروح الملائكية الشفافة التي تتفق وجلال المشهد ومقاصده، فإبليس ينكفئ على نفسه مهموماً بمكونات المادة المجردة من الروح والقيم والأهداف ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وينسى إبليس النفخة الربانية التي يمكن أن تجعل من هذا الطين نوراً يهدي إلى صراط الله المستقيم، وناراً تحرق من يحول دون تحقيق الإرادة الإلهية على الأرض.

و- بيان موقف إبليس من الإنسان، القائم على الاغترار بالمكون المادي، فالإنسان الطين هذا غير جدير بالتكريم والتكليف، وعليه يكون الوعيد، بين يدي الله تعالى، من إبليس بعد لعنه وطرده، يقول تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦-١٧].

ثم تأتي مرحلة أخرى من مراحل الإعداد العملي للإنسان للخلافة في

الأرض فيقول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥].

وقال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١١٧-١١٩].

تلخص هذه الآيات عناصر الإعداد العلمي بتلقي الأوامر والنواهي، فها هو ذا الإنسان يؤمر بالسكن في جنة فيها كل حاجاته بما في ذلك الملبس، لا يعرف فيها الشقاء ولا الكدح. ونهى الإنسان عن شجرة واحدة فقط لم تشر الآيات لسبب النهي عنها، ولكنها مناط الابتلاء والتجربة، ولم يترك الإنسان بلا تحذير من مداخل الشر والغواية، فهو رغم مشاهدته بنفسه لمعصية إبليس للخالق ووعيده للإنسان، يذكره الله مرة أخرى بعدوه وما يمكن أن يقوم به، فهل للإنسان حجة على الله بعد ذلك؟

وبالرغم من ذلك يفعل الشيطان فعلته، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦].

وهكذا يفشل الإنسان في أول اختبار له، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٥].

لقد تمت مرحلة الإعداد والتجربة، ومن ابتلاء بشجرة واحدة ينتقل الإنسان إلى الابتلاء الأكبر وهو الخلافة في الأرض واستعمارها، وهي العبادة والغاية التي خلق من أجلها، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦-٣٨].

تداعت إرادة الإنسان أمام غواية الشيطان، ولكن لا يؤمر الإنسان بالهبوط إلى الأرض لتولي مهمته وهو بغير حال الكمال والاستقرار النفسي المطلوب. فبالرغم من الزلل يغفر الله تعالى لآدم ويشمله برحمته، فيتلقى أوامر الهبوط بنفس مستقرة مملوءة بالبشرى الإلهية بدعمه بالهدى الذي يتنزل عليه من السماء، فإن شاء الإنسان بإرادته الحرة أن يتبع هذا الهدي فلن يصيبه الخوف والحزن اللذين أصاباه حينما عصى الله وأطاع الشيطان.

هذا هو الإنسان في الإسلام، خلق رباني كريم لغاية سامية، تملأ جسده نفخة ربانية ودليله وحي السماء. فالإنسان هو العبد الذي سخر الله له الكون مجالاً لتحقيق أخطر المهام التي تتمثل في العمل من أجل انتصار الإيمان على الكفر، والحق على الباطل، والهدى على الضلال، وإرادة الإنسان على غواية الشيطان، والفوز برضاء الله وجنته.

الأصل الثاني: الزوجية خلق إلهي

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٢]، والخالق الذي لم يخلق كل شيء عبثاً أو باطلاً، أودع في كل مخلوق من العوامل والمؤهلات التي تحقق بها الغايات والمقاصد التي تنفي عبثية وبطلان خلقه ووجوده.

والخلق نوعان: **خلق تكليف** وهو الملائكة والجن والإنس خلقهم الله ليعبدوه. أما الإنسان فقد أرادت المشيئة الإلهية «أن تسلّمه زمام هذه الأرض.. وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل»[1]، والنوع الثاني هو **خلق تسخير**، وهو جميع المخلوقات الأخرى من جماد وحيوان ونبات وكواكب وظواهر

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ١/ ٥٦.

طبيعية.. إلخ، وهذه جميعها محكومة بنواميس وقوانين ربانية أودعها الله فيها بحيث تكون مسخرة طائعة للإنسان المستخلف عليها.

ويقوم الخلق، مما نعلمه عن الإنسان والحيوان والنبات، ومما لا نعلمه ويعلمه الله، على نظام الزوجية، يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦/٣٦]، ويقول تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٩]، ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١٢]، ويقول: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ٤٥].

ففي الآية الأولى إشارة إلى الأزواج كلها، وإلى ثلاثة مصادر لها؛ هي مما تنبت الأرض، ومن نفس الإنسان، ومما لا يعلم الناس عنها شيئاً، فالقرآن الكريم أشار مثلاً إلى خلق الملائكة ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٥٠] أما كيف خلقوا فهذا من علم الله وحده. كما أننا لا نعلم عن زوجية الجن شيئاً، علماً أن القرآن الكريم أشار إلى ذرية إبليس، يقول الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠]، وأشار إلى قبيله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٧]، فهل هنالك زوجية لا يعلمها الإنسان، تقع في دائرة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥]؟ يذهب الشهيد سيد قطب في تفسيره للآية ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إلى القول: «إن كلمة (شيء) تشمل غير الأحياء أيضاً، والتعبير يقرر أن الأشياء، كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية.. وأن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الجديدة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة، وهي تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء، موجب وسالب»[1].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد السادس، ٢٧/ ٣٣٨٥.

والزوجية في الأحياء المسخرة هي زوجية تكاثر، ذكر وأنثى، موجهة بتدبير الله نحو الغاية التي خلقت من أجلها، وهي منفعة الناس أكلاً وشرباً ولباساً.. إلخ، والخالق القادر لم يكن بِمُعْجِزِهِ أن يخلق كل المخلوقات بما فيها الإنسان بأعدادها المعلومة عنده في الغيب، ثم يقوم بإنزالها إلى الأرض، ولكن يشاء الله أن يخلق الأصل الذي سينتشر عبره النسل، ففي شأن زوجية الأنعام مثلاً يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦].

وقد هيأ الله لزوجية الحيوان والأنعام تدابير تدفعها باتجاه التكاثر، وتلهمها غرائز الأمومة لرعاية نسلها، ولو جعل الله زوجية الحيوان مثل زوجية الإنسان لانتفت عنها صفة التسخير، وبالرغم من كونها ذلولاً طائعة، بأمر ربها، للإنسان إلا أنها تشارك ما في الكون كله في التسبيح بحمد الله، يقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].

وإذا كان الإنسان من المسبحين بحمد الله، فلا فائدة فيما سخره الله له من منافع المخلوقات إن لم تكن أداة عبادة. يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٧١-٧٣]، فالرؤية مفتاح النظر والتدبر في المخلوقات، والشكر دليل على إدراك سر عظمة الخالق ومقاصد التسخير، ويقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٥٠/ ٧-٨].

فالأرض وجبالها وما ينبت فيها من كل زوج يبعث البهجة في النفوس، كل هذا في نظر العبد المستخلف الحق تجلية للبصر ليرى، وللبصيرة لتدرك ما وراء هذا الوجود المحسوس فينيبُ إلى الله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١].

هذه هي زوجية التسخير، تكاثر فيه للإنسان منفعة وعبادة، أما زوجية التكليف، أي زوجية الإنسان (للذكر/الأنثى)، فهي تتفق مع الزوجيات الأخرى في كونها خلقاً إلهياً من أجل غاية سامية، إلا أنها تختلف اختلافاً جوهرياً عن غيرها في الخلق والمقاصد، وقد اختصها الله سبحانه وتعالى بتفاصيل في القرآن الكريم أبانت هذا الاختلاف ومقاصده، بل جعلها الله - سبحانه وتعالى - آية من آيات إبداعه وإعجازه، وهذا هو الأصل الثالث لمفهوم الأسرة في الإسلام.

الأصل الثالث: الزوجية الإنسانية آية ربانية

إن وضع الإنسان المتميز في إطار الخلق والوجود الكلي، ومكانته المتفردة بين المخلوقات مستخلفاً عليها اقتضى، وبإرادة الله، أن تنفرد زوجيته بخصائص جعلتها حقاً آية تدل على إبداع الخالق وإعجازه، وتبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونورد هذه الخصائص على النحو الآتي:

أولاً- النموذج الرباني: لقد ارتبطت الزوجية الإنسانية ارتباطاً وثيقاً بالأصل الأول «الوجود الإنساني إرادة إلهية لغاية» والذي تم تفصيله في صدر هذا المبحث، وجاءت أول إشارة للزوجية في إطار هذا الأصل مقرونة بخلق الإنسان والغاية من خلقه وإعداده لتحقيق هذه الغاية، يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥].

في هذه الآية ثلاثة أسس قامت عليها نواة الزوجية الإنسانية في رحاب الله. الأول هو مشاركة الزوجة في أمانة التكليف بكل جوانبها أمراً ونهياً، وشمول إغواء إبليس لها ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢١]، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦]. وفي هذا تبرئة للمرأة التي اتهمها محرفو الكلم عن

مواضعه بأنها سبب الغواية والمعصية. كما شمل الزوجة أمر الهبوط، إذ جاء الخطاب بصيغة الجمع ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢/٣٨]، والأساس الثاني هو السكن ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ فالسكن مطلب للاستقرار والسكينة للجسم والنفس معاً، وقد توافرت حاجات هذا وعوامل استقراره ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ٢٠/١١٨-١١٩]، والسكن وما يرتبط به من حاجات الإنسان إشارة واضحة إلى الارتباط الدائم بين الزوجين، فهو ليس علاقة طارئة أو عابرة، وإنما زوج وزوجة وسكن.

أما الأساس الثالث فهو استمتاع الزوجين بكل ما سخره الله لهما من خيرات ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ وبلا حدود ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ إلا ما حرم الله عليهما. وفي حال المعصية جعل الله تعالى طريق المغفرة والتوبة مفتوحاً ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٣].

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/٣٧].

هذه هي نواة الزوجية الإنسانية، ربانية المنشأ، تجسد فيها الخلق والغاية منه والإعداد لتحقيق هذه الغاية، وهي النموذج الذي قدره الله تعالى لنسلها على الأرض، ويشير كثيرٌ من الشواهد القرآنية إلى هذه الحقيقة، فالزوجية الإنسانية (الذكر والأنثى) لم يكن هدفها التكاثر والرفاه المادي بما سخره لها الخالق. وإنما أمانة لها حدودها وأوامرها ونواهيها التي ترمي لإنشاء مجتمع إنساني مستقر صالح يجسد مضامين ومعاني الرسالة الربانية، فالحياة الدنيا دار ابتلاء نسل آدم، يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/٧]، ويقول تعالى، مجسداً المسؤولية المشتركة للزوجين الذكر والأنثى في هذا

العمل الصالح: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

هذه الآية جمعت غاية الوجود الإنساني والأطراف الموكول لها تحقيق هذه الغاية. فالآية تؤكد على طبيعة العلاقة بين الطرفين الذكر والأنثى مؤمنين ومؤمنات، فهي علاقة تقوم على الإيمان المستقر في قلب الإنسان فطرة والمذكَّرِ بها رسالة ورسلاً، علاقة تقوم على الموالاة والتوحد في ظل عقيدة التوحيد من أجل تحقيق أمانة الاستخلاف. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسله جمعت كل مضامين التكليف الإلهي في إيجاز بليغ.

وصلة الولاية والتناصر هذه تُخضع الطرفين لمتطلبات هذا التكليف، وما يترتب عليها من ثواب أو عقاب في عدالة ومساواة تامة. وهي موالاة مصوبة نحو تحقيق الإيمان والعمل الصالح الذي ينبغي أن ينتظم جميع أوجه الحياة بما في ذلك تكوين الزوجية على نسق نواتها الربانية ذاته، فحركة الإنسان على الأرض مرصودة بدقة في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩]، هنالك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٨] ولا يظلمون ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٥].

فالتحدي الذي يواجه ذرية آدم هو أن تعود إلى ذلك النعيم الدائم بإيمانها وطاعتها وكدحها إلى الله مع الاستشعار الدائم للتحذير الرباني ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٧].

ثانياً - الشهود والإقرار بالربوبية : إن ذرية آدم - عليه السلام - موصولة بغايات الخلق ومقاصده، مكلفة بحمل أمانة الاستخلاف قوماً بعد قوم إلى أجل مسمى أمام إله واحد هو ربها وخالقها، ومن مواطن الإعجاز وأسرار كونها آية أن هذه الذرية تعرف أن ربها وخالقها واحد لا تلقيناً من الوالدين ولا رواية ولا إرثاً، فقد وصلها الله بسر وجودها بقدرته وإعجازه، لئلا يكون للناس على الله حجة، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢-١٧٣].

لم يحدث أمر معجز كهذا في أي من ذرية الزوجيّات التي أنزلها الله إلى الأرض إلا في زوجية الإنسان وما ينتشر عنها من الذرية. فآدم خلق لغاية أُعد لها وزوجه في رحاب الله، وأدرك أن مصيره مرتبط بطاعة الله الذي أشهد الملائكة على خلقه من طين، وعلى مهمته ومكانته وقدراته، ولكن كيف السبيل إلى وصل وربط ذريته على الأرض بما لم تكن شاهدة عليه، والله، الذي يعلم من خلق، يعلم أن الإنسان مجبول على الجدل والتحايل بالأعذار، وإلقاء المسؤولية على الآخرين؟.

وحتى لا يحدث شيء من هذا وصل الخالق - جلت قدرته - ذرية آدم بتلك اللحظات التاريخية، وهي بعد في عالم الذر مكنونة في عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. كان هذا الوصل بأخذ هذه الذرية قبل أن تكون على الأرض جسداً وروحاً، بقدرة الله، لتشهد وتقر بربوبية الله خالق الوجود ومحور دورانه وحركة الإنسان فيه. تُجمع هذه الذرية بقدر ما هو مقدر لها أن تبلغه من تعداد في الأرض، لتنطق بطوعها واختيارها: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ بربوبية الله عقيدة راسخة لا يستقيم من دونها أمر. هذه الشهادة وهذا الإقرار يصبح جزءاً لا يتجزأ من تكوين الإنسان الفطري

والوجداني ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠/٣٠]، وهو ختم مطبوع لا يزول، ولا مجال معه لتبرير الخروج عن الصراط المستقيم بالغفلة أو بتبعية وتقليد الأسلاف والآباء.

حول هذا الأخذ الرباني للذرية المكنونة التي ستكون فيما بعد يقول الشهيد المفكر والداعية الإسلامي سيد قطب رحمه الله: «إنه لمشهد فريد.. مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ في قبضة الخالق المربي فيسألها ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فتعترف له سبحانه بالربوبية.. وهي منثورة كالذر في قبضة الخالق العظيم»[١].

ويقول سيد قطب: «إنه لمشهد عجيب... حينما يتصور (الخيال البشري) تلك الخلايا التي لا تحصى، وهي تجمع وتقبض، وهي تخاطب خطاب العقلاء.. وهي تستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقر وتشهد ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب»[٢].

إن الذرية الإنسانية بحق آية من آيات الله، فها هو ذا القرآن يخبرنا قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان عن أصل الذرية الإنسانية، ثم يأتي العلم بعد ذلك ليقرر «أن الناسلات، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل الإنسان وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب.. لا يزيد حجمها على سنتميتر مكعب..»[٣] وهو ما عرف في خواتيم القرن العشرين بالحمض النووي (DNA) والذي يحتوي بداخله خلايا الوراثة (Genes) التي تحمل الخصائص المميزة لكل شخص والتي اختصه الخالق بها وهو في طور الذر.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الثالث، ٩/ ١٣٩٢.
(٢) المرجع نفسه، ص١٣٩٢.
(٣) المرجع نفسه، المجلد الثالث، ٩/ ١٣٩٢.

هكذا يريهم الله آياته في أنفسهم؛ فهلا تدبر الزوجان أن ما يرزقان به من مولود جاء وهو مختوم بإقراره وشهادته على ربوبية من خلقهم جميعاً قبل أن يهوداه أو ينصراهُ أو يمجساهُ؟ ألا يدركان أن هذا المولود حينما قال: «بلى» وهو في طور الذر، قد أسلم لله تعالى خالقه، وأصبح من المسلمين؟ إنها فطرة الله التي فطرهم عليها قبل أن تتكون أجسادهم التي تحمل بين جنباتها آليات الفكر والنسيان والغفلة، وقبل أن يعرفوا آباءهم فيسيروا على دربهم حتى ولو كانوا مشركين مبطلين للإقرار بربوبية الله.

ثالثاً – أسرار التكوين: اختص الله تعالى الزوجية الإنسانية بذكر كثير من أسرار تكوينها مما يجعلها آية من آيات الإبداع الإلهي ومفتاحاً من مفاتيح الوصول إلى اليقين. ففي شأن زوجية الأنعام مثلاً أشار القرآن الكريم إلى أنها من خلق الله ومما عملت أيديه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يـس: ٣٦/ ٧١] و﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦]، و﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٢٤/ ٤٥]. ولم يرد أي تفصيل عن أصلها أو أصل نسلها.

أما زوجية الإنسان فقد فصّل القرآن في شأن نواتها الربانية (آدم وزوجه)، فهذا الأصل كما تقدم شرحه بدأ في رحاب الله بطين ونفخة من روح الله، وهو من نفس واحدة خلق منها زوجها أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ٤/ ١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٨].

وفيما يخص نسل هذه النواة الأولى وبثه وانتشاره في الأرض فقد جعل الله له تدبيراً هو آية من آياته، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٧-٨] فما الذي يُستل من هذا الماء المهين ليكون منه النسل؟

يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢]، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣٧]، ويقول تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٨٠/ ١٨-١٩] والنطفة هي الكمية الصغيرة من الماء، وهي هنا ماء الذكر، والأمشاج هي الخليط «وهي إشارة لتكوين النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، وربما تعني الوراثيات الكامنة في النطفة أي (الجينات)».

ثم تأتي مراحل أخرى بعد تكوين هذه النطفة الأمشاج التي أودع الله فيها خصائص الفرد وصفاته، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٣-١٤] هذه النطفة الأمشاج، أي بعد التلقيح، تستقر في مستقرها المعد لها، أي رحم الأنثى، تتعلق فيه، ثم تصير مضغة ثم عظاماً ثم تكسى باللحم فتصير بإذن الله خلقاً آخر، ويتخذ هذا الخلق صورته في داخل الرحم بقدرة الله وإرادته ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦]. ثم تنفخ فيه الروح ويهبه الله السمع والبصر والفؤاد، ويخرج بعد قدر معلوم بشراً سوياً وآية من آيات الله، فهل تتدبر الأفئدة ذلك وترده إلى قدرة الله؟ هذا يتوقف فقط على سلامة الفطرة ونبض الإقرار والشهود الأول ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

هذا هو الإنسان؛ أصله من طين، سوّاه الخالق ونفخ فيه من روحه، ونسله من ماء مهين، نطفة أمشاج من زوجين، ذكر وأنثى، خلقهما الله من نفس واحدة. وبالرغم من البث والانتشار وتوالي الأجيال والأقوام يظل هذا النسل موصولاً مع وحدة الإنسانية الأولى بعد الشهود الأزلي على ربوبية الخالق الواحد، ويحمل أمانة الاستخلاف واتباع هدى الله.

فهل يمكن لهذه المنظومة المتحدة الموحدة أن يكون سبيل بثها وانتشارها بنسق انتشار المخلوقات المسخرة من الأحياء والأنعام وغيرها ذاته؟ الإجابة عن هذا السؤال تكشف بعداً آخر من زوجية الإنسان يدل على أنها آية من آيات الله الدالة على بديع صنعه.

رابعاً - سكن ومودة ورحمة: إن النظام والتدبير الرباني الدقيق لخلق الإنسان وتكريمه وتكليفه وتكوين نسله، تبعه تنظيم دقيق أيضاً فيما يخص أمر بثه وانتشاره، وهذا من الآيات الدالة على كمال الله وانتفاء التفاوت والخلل عن تدبيره وصنعه، فالعلاقة بين الإنسان وخالقه بوصفه عبداً مستخلفاً، وبينه وبين المخلوقات المسخرة له بوصفه عبداً مؤتمناً عليها اقتضى بإرادة الله أن تمتاز زوجيته من غيرها اتساقاً مع هذه المكانة.

فبالرغم من استواء الإنسان والمخلوقات الحيوية الأخرى في الإعداد الفطري الذي أوجده الخالق فيها بهدف البث والانتشار، إلا أن تدبير الخالق المحكم جعل لكل خلق منها نظامه الخاص به الذي يتفق مع أهداف خلقه ووجوده. فزوجية الحيوان تقوم على الاستجابة التلقائية الغريزية لما أودعه الله فيها من حوافز التكاثر، ولها في ذلك إلهام إلهي لا نشك فيه ولا نعلمه. هذا الإلهام هو الذي حقق هدف بثها وانتشارها منذ إنزالها أنعاماً فيها منافع للناس إلى اليوم بوصفها جزءاً لا يتجزأ من معينات التكليف باستعمار الأرض والتدبر في خلق الله.

أما زوجية الإنسان فقد خرجت عن دائرة التلقائية الغريزية هذه بتدبير إلهي يتفق ومنظومة الخلق الإنساني الخاصة وغاياتها ومقاصدها، فجميع أجزاء الجسم التي ركبها الخالق في هذا المخلوق أدوات عبادة وطاعة، وعليه فهي لم تترك لتؤدي وظائفها عشوائياً بل وفق ضوابط تصوبها نحو تحقيق الخير والمعروف. فهنالك مثلاً ضوابط السمع والبصر واللسان

والأيدي والأرجل والفؤاد والنوايا. ومن دلائل الإعجاز أن المركبات ذاتها التي نحسبها خاضعة لنا، هي أجهزة رصد وتوثيق وشهود. يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤/٢٤]، ويقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٠].

ولا يستثنى من النظام والضوابط ما ركبه الله سبحانه وتعالى في الإنسان من حوافز وآليات التكاثر، فهي أيضاً أدوات عبادة وطاعة مصوبة نحو غايات ومقاصد أُعد لها الإنسان أحسن إعداد. فقد أقام الله تعالى نظام الخلق على الزوجية، الذكر والأنثى، وجعل عنصرها واحداً هو الطين في الأصل، والماء المهين والنطفة الأمشاج في النسل، وجعل روحها واحداً، هو نفخة من الواحد المبدع، وجعل مصدرها واحداً، هو النفس الواحدة.

هذا هو الخلق الإنساني؛ وحدة واتحاد وعودة إلى الواحد، وعليه كان من تدبير الخالق أن تتسم زوجية الإنسان بوحدة وديمومة الارتباط، هذه الوحدة وارتباط الزوجين ليست كما يقول الفلاسفة وعلماء الاجتماع، نزعة وضعتها الطبيعة في الإنسان، أو فرضتها التطورات حوله، فكثيراً ما نسمع مقولة: «الإنسان حيوان اجتماعي» انحطاطاً بالإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير ممّن خلق.

إن وحدة الزوجية وارتباطها وخصوصيتها وضعها الله سبحانه وتعالى في النموذج الرباني نواة الزوجية الإنسانية الأولى. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥]. فنسبة الزوج لآدم، والأمر بالسكن في الجنة، والمشاركة في خيراتها، كلها إشارات لخصوصية العلاقة وحتمية الارتباط ومشاركة السكن والعيش.

كل هذا لم يأت عبثاً ولكنه النموذج العملي لزوجية الإنسان وهي على الأرض؛ فهي التي ستنسل الإنسان وتعده لحمل الأمانة، وهذه النطف المستلة من الماء المهين التي يذرؤها الله في الأرحام بتقديره، حيث يكتمل خلقها، ويتكامل بما أُعدت به الأنثى لاستقبالها، هي مشروع خلق جديد ممتدٌ لذلك الإنسان المكرم عند الله تعالى. وهو امتداد للتكيف والأمانة، وهو نتاج اتحاد طرفين، وعليه لابد له من السكن الذي يستقبل فيه ويحقق له الاستقرار والرعاية بوجود الطرفين.

ومقومات السكن المشترك لا تقف عند حد الماديات التي سخرها الله للإنسان من كل زوج بهيج، بل من دلائل وآيات الله وإعجازه إمداده للزوجية بعوامل غير مادية تعمل على تمتين هذه العلاقة وحماية السكن. يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

فالسكن هنا كناية عن الاستقرار النفسي الذي يفضي إلى قبول المشاركة في السكن الواحد. والمودة هي المحبة الخالصة المجردة من المصلحة والغرض، والرحمة كما يقول الشيخ محمد الغزالي: «هي أساس الأخلاق العظيمة في الرجال والنساء على سواء.. فليست الرحمة لوناً من الشفقة العارضة، وإنما هي نبع الرقة الدائمة ودماثة الأخلاق وشرف السيرة»[1].

والمتدبر لهذه الصفات، (السكن والمودة والرحمة)، التي جعلها الله لتمتين رابطة الزوجية يدرك حقاً معنى وصفها في الآية الكريمة بأنها من آيات الله. إذ ليس من المتوقع أن يجد الزوج والزوجة كل الصفات التي يتمناها كل منهما في الآخر؛ فالكمال لله. ولكن رغم التباين تأتلف

---

(١) محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٢، ص١٢٥.

القلوب، وتسكن النفوس، ويدوم الارتباط، وهذا بفضل الله الذي جعل السكينة والمودة والرحمة من هباته للزوجين، فعبر هذه الهبات المعنوية يتجاوز الزوجان الماديات ومظاهر الأشياء، ويتجردان من حب الذات والتعالي فيتحقق لهما الاستقرار والسكن.

يقدم القرآن الكريم وصفاً بليغاً للعلاقة الزوجية القائمة على السكن والمودة والرحمة، في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧]، وهذا كناية عن وحدة وترابط الزوجية، فالثوب يحتوي الجسد بكامله ويقيه من عوامل الطبيعة، وفي تشبيه آخر يقول تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٣] فالزوجية ليست علاقة طارئة، بل علاقة ديمومة واستمرار كعلاقة الزارع بأرضه؛ فهي لا تنتهي ببذر البذور فيها بل يتعهدها بالري والتهذيب ثم يجني ثمارها ويقوم بإعدادها لدورة زراعية أخرى. فالعلاقة الزوجية هنا كما يقول الشهيد سيد قطب «علاقة إخصاب وتوالد ونماء»[(١)].

هذه هي الخصائص التي جعلت من زوجية الإنسان آية من آيات الله. فزوجية الإنسان تقوم على نسق النموذج الرباني؛ فهي (ذرية آدم) مرتبطة به بإقرار الشهود على ربوبية الخالق، وحملت من أسرار التكوين ما هو آية في ذاته إلى جانب مقوماتها المعنوية من سكن ومودة ورحمة وتشكل هذه الخصائص أصلاً أصيلاً في مفهوم الأسرة في الإسلام.

الأصل الرابع - الزواج عهد وميثاق

الزوجية، كما تم توضيحه، هي أساس الخلق، وتقوم على الجمع بين طرفين؛ الذكر والأنثى، أي الزوج والزوجة. وتعرف عملية الجمع بين

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ١/ ٢٤٢.

الطرفين هذه اصطلاحاً (الزواج). وإكمالاً للسمو بهذه العلاقة المرتبطة بأصول الخلق وغاياته ووحدة أصله وأسرار تكوينه، وما أحيط بها من عوامل القوة من سكن ومودة ورحمة، أكسب الإسلام الزواج مكانة سامية تتكامل مع هذه الخصائص. فالزواج ليس بطور في حياة الإنسان دفع له ظهور الملكية الفردية والاحتكار، ولا بالانتقال من حال الصيد إلى حال الرعي كما يرى علماء الاجتماع الغربيون. ولكن الزواج تدبير رباني موصول بكل هذه الأصول والخصائص المتعلقة بالزوجية، فالزواج ليس مجرد تنظيم لميل فطري في الإنسان، أو تلبية لنزعة حب الإنسان للبقاء عبر نسله المنسوب إليه.

وإذا كان آدم قد سواه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، نفساً واحدة خلق منها زوجها لتكون هذه الزوجية نواة للإنسانية المستخلفة في الأرض، فإن الله تعالى أراد لانتشار الإنسانية أن يكون في ذاته آية خلق آخر غير خلق آدم وزوجه، فبدلاً من أن يُعمل (والله قادر)، فهو يُنسل عبر استلال نطفة من ماء مهين (للذكر) تتحد مع ما أُعدت به الأنثى فيصبح أمشاجاً، ويتدرج في مراحل التكوين إلى أن يكون بشراً بإذن الله.

وعليه فإن هذا الميل الفطري في الإنسان هو دفع رباني لحوافز النسل إكثاراً من أجل الاستعمار، وليس بدافع إنساني حباً في البقاء، وبما أن هذا الدفع الرباني مصوب نحو الاتحاد والنماء (لباس وحرث)، ولأن الناتج عنه مكرم مستخلف مقر بربوبية الله فلا يستقيم، مع حسن تدبير الخالق، أن يكون ذرؤه في الأرحام استجابة تلقائية لميل غريزي، ولذلك جعل الله الزواج عهداً وميثاقاً تجب رعايته والوفاء به تقديراً للمهمة الرسالية السامية المناطة بطرفيه وبما ينتج عنها من نسل.

والزواج شرعاً عقد وعهد على كتاب الله وسنة رسوله. ولا تتحقق صحته إلا بحضور ولي أمر المرأة وشاهدين عدلين لقوله ﷺ: «لا نكاح

إلا بولي وشاهدي عدل»[١]. هذا الشرط دليل على مكانة الزواج؛ فهو ليس بأمر شخصي ولكنه مرتبط بالزوجية التي انحدر منها طرفاه (أهله وأهلها). فالأهل في الإسلام مسؤولون عن صحة تكوين وسلامة هذه الوحدة الوليدة، كيف لا وقد جاء الأمر القرآني بتدخلهما لفض النزاع والإصلاح بين الطرفين في حال الخلاف، يقول تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٤/ ٣٥].

ومن الشواهد القرآنية على كون الزواج عهداً وميثاقاً، قوله تعالى ناهياً عن ظلم المرأة في حال الانفصال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٤/ ٢١]، والميثاق الغليظ كما يقول الشهيد سيد قطب هو «ميثاق النكاح باسم الله، وعلى سنة الله.. وهو ميثاق غليظ لا يستهين بحرمته قلب مؤمن»[٢]. ويقول الشيخ محمود شلتوت: «ثم لا يكتفي بجعله ميثاقاً، كيفما يكون، تعتريه الرقة وخفة الميزان فيتعرض للنقض كلما أراد عابث أو مأفون، بل جعله (ميثاقاً غليظاً) (وعهداً قوياً) يتعذر حله.. ولا تقع الغفلة عنه حتى بعد انتهاء أجله»[٣] يقصد انتهاء الزواج.

وتجنباً لما أشار له الشيخ شلتوت من عبث العابثين والمأفونين حدد الشرع كثيراً من المبادئ التي يجب مراعاتها قبل الإقدام على عقد الزواج. من هذه المبادئ التحري في الاختيار. وقد غلب على هذا الجانب النهي عن المظاهر والماديات؛ فالتدين أساس كل خير، وتقوى الله تحقق التعامل بين الزوجين انطلاقاً من قيم الدين، وتدفع الطرفين لإعلاء شأن الزوجية مادامت أصولها ومقاصدها ربانية. قال رسول الله ﷺ: «تنكح

(١) أخرجه الدارقطني، وابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ١/ ٦٠٧.
(٣) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، مرجع سابق، ص ١٤٦ - ١٤٧.

المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك»[1].

ومن هذه المبادئ أيضاً الكفاءة بين الطرفين، ومنها الرؤية في حدود ما أباحه الشرع.. إلخ.

وفيما يخص مرحلة ما بعد عقد الزواج والدخول في الحياة الزوجية، فقد حدد الله لها من المبادئ ما يحقق لها الاستقرار والاستمرار، وقد فصلت التشريعات الخاصة بالأسرة وأوفت مبينة كثيراً من الحقوق والواجبات التي تخص الطرفين، ولكن نشير هنا إلى أهم المبادئ الربانية الخاصة بتنظيم الحياة الزوجية، وتحقيق مبدأ العدل فيها، وهي المبادئ الخاصة بالشؤون المعيشية ومسؤولية الأبناء.

فيما يخصُّ الشق الأول من حقوق الطرفين أن يعملا ويكسبا من هذا العمل الحلال موارد لسد حاجات بيتهما. والإسلام يعلي من شأن العمل والكسب الحلال وهو مباح، بل واجب على الرجل والمرأة كلٌّ في حدود وسعة مؤهلاته.

أما فيما يخصّ الأبناء فثمة مهمة شاقة تتعلق بهم قبل مولدهم؛ إذ لابد أن يكونوا بدءاً في قرار مكين إلى قدر معلوم، وقد جعل الله ذاك المستودع والمستقر الأول من نصيب الزوجة، يكتسب فيه هذا المخلوق كل حاجاته الغذائية عالقاً برحم أمه. ثم بعد خروجه إلى الحياة بشراً سوياً جعل الله طعامه الطبيعي جزءاً من أمه، وفصاله في عامين، وبين حمله ومولده وفصاله رحلة معاناة وسهر. ويبدأ بعد ذلك درب طويل من التربية والتهذيب والتعليم إلى أن يصير رجلاً أو امرأة، ويظل نصيب الأم في هذا الدرب، بلاشك، أكبر من نصيب الأب، وكلما زاد عدد الأبناء والبنات زاد العبء.

---

(١) أخرجه الجماعة، إلا الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ.

والله الخالق يعلم هذه المعادلة التي أضافت لكدح المرأة المشروع كالرجل عبئاً آخر لا خيار لها فيه، يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤].

واختص الأم بالذكر لجسامة العبء الذي تقوم به؛ فهي حملت هذا الإنسان كرهاً ووضعته كرهاً أي معاناة ووهناً متصلاً. وحتى يستقيم بيت الزوجية ويتحقق فيه العدل رفع الله تعالى عن المرأة عبء الإنفاق مع حقها في العمل والكسب الحلال. ومنحها حق الاحتفاظ بمالها عملاً أو إرثاً، وليس من حق الزوج التصرف فيه إلا برضاها، ووقع عبْءُ الإنفاق على الرجل فرضاً يجب عليه الالتزام به. وهذا يقتضي أن يقوم بتحديد حاجات بيته وأولوياتها. وبدهي أن يتم ذلك بالتشاور مع الزوجة؛ فالشورى أصل أصيل في نظام الإسلام في جميع مجالاته، ولا تقتصر على الشأن العام فقط.

وتتضح هذه الموازنة العادلة فيما يخص مسؤوليات الزوجية في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] فالقوامة كما يتضح من هذه الآية هي تكامل وعدل في أصعب مهام الزوجية، أي الأمومة وكسب العيش. والتفضيل هنا ليس تفضيل مكانة وقيمة، بل هو تفضيل متعلق بالمهام والأعباء. فالمرأة فضلها الله على الرجل بخصائص اقتضتها مهام الأمومة، وهي خصائص مركوزة في التكوين الفطري والنفسي والشعوري. وهي خصائص لا ينال منها اعتماد الجنين على جسدها في تكوينه وغذائه ورعايته. وهذا هو سر صمود الأمهات الذي أكسبهن تفضيلاً آخر من متلقي الوحي وبيّنه المصطفى ﷺ. ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن

صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»[١].

وهذا ليس انتقاصاً من فضل الأب الذي اختصه الله بالإنفاق، ولكنه عدل الإسلام. فالمرأة تستطيع، في حال غياب الرجل موتاً أو طلاقاً، أن تعمل من أجل الإنفاق على بيتها وأولادها، والإسلام لا يمنعها ذلك. أما الرجل فلن يستطيع القيام بمهام الأمومة بمثل إحسان وإتقان المرأة لها، وذلك لأنها ليست مجرد عمل باليدين أو تقتصر على القدرة الجسمانية، والقوامة بهذا الفهم هي أن يقوم الرجل على خدمة الزوجة، والأبناء والأخوات في حال وفاة والده، كما تقوم المرأة على خدمته وبيته وذريته.

هذه هي القوامة المفترى عليها، والتي وصفها بعض علماء الاجتماع بأنها تكريس للأبوية، ويصفها أعداء الإسلام اليوم ومقلدات الأنثوية بأنها تسليط للرجل على المرأة وتمييز وتفرقة. فالقوامة كما قال الشهيد سيد قطب: «ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع الإنساني..، وإنما هي وظيفة.. داخل كيان الأسرة - لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة، وصيانتها وحمايتها»[٢]. وكيف يقول الإسلام بتسليط الرجل على المرأة وهو يقدم لنا نظاماً غير مسبوق للزوجية يقوم على وحدة الأصل والغاية وعلى السكن والمودة والرحمة؟.

هذا هو مفهوم الزواج في الإسلام، عهد وميثاق وعدل في التكليف وإحسان في المعاملة. ومع ذلك لم يتطرف الإسلام في جعل هذه العلاقة الزوجية رباطاً أزلياً لا ينقطع إلا بالخيانة الزوجية أو الموت. فالله الذي يعلم مَن خلق يعلم أن النفس الإنسانية قد يعتريها ما يهدد استقرار

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الثاني، ٥/ ٦٥٢.

الزوجية، بل ربما يصل أحياناً إلى حد فك الارتباط، وحتى لا تضار هذه اللبنة الأساسية في المجتمع أمر الشرعُ بالتدرج في معالجة الأمر بدءاً بمراجعة الأنفس ثم بجهد المصلحين من أهل الطرفين، ولا يتعسف الإسلام في ذلك لأن الغاية الأسمى هي الاستقرار القائم على المودة والرحمة والرضا.

وإذا تعذر الأمر فإن الله أحل أمراً هو أبغض الحلال إليه وهو الانفصال أي الطلاق، مع الإبقاء على محاولات الإصلاح واحتمالات عودة الأطراف في حال وقوع الطلاق مرتين. أما إذا وقع الطلاق للمرة الثالثة فلا عودة إلا إذا تزوجت المرأة زوجاً آخر وطلقها، وفي كل الأحوال يدعو الإسلام إلى العدل والإحسان، وفي هذا حفظ للحقوق وتهذيب وترقية لأخلاق المسلم في ظروف تكون فيها النفوس أشد اضطراباً. كما أن سعة عدل الله وعلمه تشمل بهذا السلوك الراقي ما بين الزوجين من ذرية حتى ولو كانت في الأرحام حفظاً لنسبها وحقوقها، وتحقيقاً لاستقرار نفوس الوالدات والمرضعات وذوات الحمل حتى لا يتضرر الأبناء.

ولعل حرص الإسلام على استقرار الزوجية حتى في حال الانفصال انعكس فيما جاء من آيات متفرقة حول الطلاق تذكيراً، مع تخصيص سورة كاملة باسم (الطلاق) هي كمال في العدل.

الأصل الخامس- حدود التكوين: من الزوجية إلى الأمة

هل ينتهي تكوين الأسرة في الإسلام عند حدود الزوجية والأبناء؟ إن المتأمل في أصول مفهوم الأسرة القائمة على الخلق وأصوله، وأسرار تكوينه، وشهوده على ربوبية الخالق، وغاياته ومقاصده، يدرك أن تكوين الأسرة أو شكلها لا يمكن أن يقف عند حدود الزوجية والأبناء، كما يدرك

أن لشكل الأسرة في الإسلام تفرده وتميزه الذي يخرج به عن دائرة مصطلحات علم الاجتماع الغربي مثل الأسرة الممتدة، أو الزواجية، أو المركبة أو الصغيرة.. إلخ.

وبالرغم من ذلك نجد أن شكل الأسرة بوصفه أصلاً من الأصول المكونة لمفهوم الأسرة في الإسلام، لم يتم تناوله إلا في نطاق ضيق، وذلك بتناول بعض مكونات الشكل مثل ذوي القربى والأرحام.. إلخ في إطار الأحكام والتشريعات.

أما التركيز على شكل ووظيفة الأسرة فقد ظهر لدى علماء الاجتماع المسلمين الحديثين، وذلك تأثراً بعلم الاجتماع الغربي، بل وبابتعاث أبناء المسلمين إلى الغرب، تبنى بعض علماء الاجتماع المسلمين مفاهيم ومصطلحات علم الاجتماع الغربي.

وفي بداية القرن العشرين بدأ الاهتمام في الغرب بدراسة الأسرة بسبب ما طرأ عليها من تغيير تحت وطأة آثار الثورة الصناعية والتوجهات غير الدينية، فكان التركيز على الشكل والوظيفة. وأدى ذلك لظهور مدرستين متخصصتين في هذه الجوانب في أمريكة هما المدرسة الوظيفية (Functionalist School) والمدرسة البنيوية أو الشكلية (Structuralist School) كما سيتم تفصيله في الفصل الرابع. ومرة أخرى يتبنى علماء الاجتماع المسلمون المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالشكل والوظيفة من هاتين المدرستين. وقد تم تقديم نماذج لذلك في المبحث الأول من هذا الفصل.

وبفضل الصحوة الإسلامية ومحاولات تأصيل العلوم الإنسانية في أواخر القرن العشرين بدأ الاهتمام بدراسة شكل الأسرة وفق المنظور الإسلامي في بعض الدراسات الخاصة بالأسرة في الإسلام. فعلى سبيل المثال يرى الدكتور حمودة عبد العاطي الخبير في علم الاجتماع الغربي

رحمه الله، أن اهتمام علماء الاجتماع الغربيين بشكل الأسرة يعود إلى التحولات الجذرية التي طرأت على المجتمع الغربي منذ القرن التاسع عشر. ويقول: إن هذه التحولات أدت إلى تفكيك الأسرة وتقليصها إلى ما أصبح يعرف بالأسرة الصغيرة (Nuclear Family).

ويرى د. حمودة أن شكل الأسرة ليس ضرورياً، وأن الأسرة المسلمة يمكن أن تكون متعددة أو ممتدة أو الاثنين معاً، وليس هنالك ما يمنع أن تكون صغيرة. يقول د. حمودة:

"There is no specific provision in Islam that it must be of one type or the other, just as there is none in favour of, or opposition to, the nuclear family type."(1)

الترجمة: «لا يوجد في الإسلام توجيه محدد يقول بأن الأسرة يجب أن تكون من هذا الشكل أو ذاك، مثلما لا يوجد توجيه بإباحة أو منع الأسرة الصغيرة الشكل».

والسبب في عدم تحديد شكل معين للأسرة - كما يقول - هو أن الحقوق والواجبات والتشريعات المنظمة للأسرة لا يتوقف تطبيقها على شكل الأسرة. كما أن تقاليد المجتمع الإسلامي تسمح بمشاركة عدة أسر في السكن الواحد. يقول د. حمودة:

"This fact... precludes the unqualified applicability to the family structure in Islam of the sociological concept of nuclear family, where unity of residence is one of the basic characteristics.'"(2)

الترجمة: «هذه الحقيقة (أي السكن المشترك) تحول دون تطبيق المفهوم الاجتماعي للأسرة الصغيرة (النووية)

---

(١) Abd al-Ati, H. The Family Structure in Islam, Cit, P. 20

(٢) Ibid. P. 20.

على شكل الأسرة في الإسلام، وذلك لارتباط (هذا المفهوم) بالسكن الموحد أي الخاص بالأسرة الصغيرة فقط».

ويرى د. حمودة أن عدم الاهتمام بتحديد الشكل مع التركيز على الحقوق والواجبات الشرعية، أكسب الأسرة في الإسلام طبيعة مزدوجة، وهي كما يقول:

"Partly Divine and Fixed, Partly human and variable."(1)

أي من ناحية فهي وحدة (ربانية ثابتة) ومن ناحية أخرى فهي (إنسانية متنوعة)، وهذا يعني أن شكل الأسرة (صغيرة، ممتدة، إلخ) شأن متروك للإنسان، مع الالتزام التام بالتشريعات والأحكام.

وإذا كانت الأسرة ذات طبيعة ربانية ثابتة كما أشار د. حمودة، وكما أكدت الشواهد التي أوردناها في أصول مفهوم الأسرة المشار إليها (ربانية الخلق والتكوين والغاية،.. إلخ)، أفحقاً ترك الخالق المدبر أمر الشكل البنائي لاجتهاد الإنسان؟ ألا يوجد في القرآن الكريم ما يشير إلى ربانية المبنى أو الشكل؟

لقد أكد بعض العلماء أن للأسرة في الإسلام شكلاً بنائياً بحكم ما ورد من نصوص قرآنية في هذا الصدد. فالدكتور زكريا بشير* مثلاً - وخلافاً لما ذهب إليه الدكتور حمودة - يرى أن شكل الأسرة في الإسلام ليس شأناً إنسانياً؛ فالأسرة في الإسلام، وبحكم النصوص، ذات شكلين: صغيرة وممتدة؛ فالأسرة الصغيرة تتكون من الوالدين والأبناء

---

(١) Abd al-Ati, ibid, P. 32.

* أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي ومدير مركز حوار الحضارات بجامعة النيلين بالسودان.

وتقوم على محبة الوالدين والإحسان لهما لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٣]. أما الأسرة الممتدة فتتكون من الأقارب وتقوم أيضاً على محبتهم والإحسان إليهم كامتداد للوالدين. ويقول د. زكريا: إن القرآن الكريم «لم يترك هذه المسألة الحيوية.. لمجرد العواطف الفردية؛ بل جعلها قانوناً وواجباً دينياً مقدساً؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٦]»[١].

واستناداً إلى هذه النصوص يرى د. زكريا «أن الأسرة الصغيرة والممتدة ليست نتيجة للعرف في المجتمع الإسلامي، بل هي مؤسسة قوية لها أصل قانوني في صلب الشريعة الإسلامية»[٢].

أما الدكتور وهبة الزحيلي* فيرى أن الأسرة ثلاثة أنواع: صغرى ووسطى وكبرى. وفي تعريفه لهذه الأنواع يقول: «أما الصغرى فهي المقصورة على الزوجين والأولاد.. وهي التي يحرص الإسلام على تكوينها على أمتن القواعد، وأرسخ الدعائم.. وأما الوسطى فهي التي تضم الدرجة الثانية من الأقارب لتشمل الآباء والأجداد، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات. وهي المقصودة بالأمر بصلة الرحم، أما الكبرى فهي المجتمع المسلم من جيران وأصدقاء وغيرهم، وقد أوصى الله بهم جميعاً، وتشمل أيضاً المجتمع الإنساني أو البشرية جمعاء الذين أوصى الإسلام بالتعاون والتوادّ معهم

---

(١) د. زكريا بشير: أصول الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم، روائع مجدلاوي، عمان - الأردن، ٢٠٠٠م، ص٥٩-٦٠.

(٢) د. زكريا بشير: أصول الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم، مصدر سابق، ص٦٠.

* رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بكلية الشريعة، جامعة دمشق.

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]»[1].

واستناداً إلى هذه الآراء يكون قول الدكتور حمودة بعدم أهمية شكل الأسرة ليس صحيحاً. فقد لا تكون هنالك مصطلحات قرآنية خاصة بالشكل (صغيرة أو ممتدة.. إلخ)، وقد نلحظ عدم إشارة الفقهاء المؤسسين واللاحقين إلى شكل الأسرة بالرغم من تناول مكوناتها في التشريع والأحكام، ولكن هذا لا يعني أن الأسرة في الإسلام لا شكل لها.

وإذا نظرنا إلى أصول مفهوم الأسرة المتعلقة بربانية خلقها وتكوينها وغاياتها وشهودها بربوبية الخالق ونظامها الزواجي، نجد أن شكل الأسرة في الإسلام أكثر تعقيداً من كونه أسرة صغيرة وممتدة (زكريا) أو صغرى ووسطى وكبرى (الزحيلي). إذ الملاحظ أن بث الإنسانية وانتشارها محكوم بذات الأصول بحيث ينتج عنه شكل متميز يقوم على مبادئ مستمدة من هذه الأصول، وتجعل منه أصلاً من أصول مفهوم الأسرة، ونورد مكونات هذا الشكل على النحو الآتي:

أولاً: تشكل الزوجية الأولى «آدم وزوجه» نواة الإنسانية التي عرَّفها القرآن الكريم ببني آدم وذريته. ومن هذه النواة اتسعت دائرة الانتشار وشبكة العلاقات الإنسانية. فآدم وزوجه أول (أبوين)، ثم جاء الأبناء ثم الصهر والنسب والحفدة، وتشعب من ذلك الخالات والأخوال والعمات والأعمام لتمتد عبرهم أسر وأسر مكونة ذوي القربى والعشيرة، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ١٦/٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٤].

---

(١) د. وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، مرجع سابق، ص٢٠.

ثانياً: كان الناس أمة واحدة موحدة تهتدي بنهج الله القويم، ثم بدأت تتسع لتشكل عبر عشائرها شعوباً وقبائل. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]. ومن آيات الله أن هذا الاتساع صحبه تباين في الألسنة والألوان، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٢] ومع هذا الاتساع والتباين بدأت تظهر بوادر مفارقة النهج والصراط المستقيم.[1]

وبدأت فطرة الشهود الرباني تنازع الإنسان، فدخل مرحلة التجريب بعقله وعلمه القاصر باحثاً عن ذاك النبع الأصيل، فصنع لنفسه آلهة من المواد وقوى الطبيعة. فيتحقق وعد الله بإرسال الرسل والنبيين هداة مذكرين ومبشرين. يقول تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣].

ثالثاً: إن رسل الإنسانية منذ نوح - عليه السلام - إلى محمد ﷺ، ومنهم رسل لم يخبرنا الله عنهم، هم جميعاً محطات في تاريخ الإنسانية تدخلت فيها إرادة الله لهداية البشرية تحقيقاً لوعده بذلك. وجاء جميع الرسل والأنبياء برسالة واحدة هي عقيدة التوحيد؛ فما من رسول إلا ودعا قومه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ﴾ [هود: ١١/ ٥٠]. هذه الهداية الربانية تأتي من مصدر رباني واحد هو الكتاب الذي ينزله الله مع النبيين بالحق. ولا اختلاف في مراحل الهداية هذه إلا في تفاصيل الشرعة والمنهاج والمنسك بتقدير من الله. وقد جاء هؤلاء الرسل جميعاً برسالة الإسلام، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩]، ويقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٣]،

ويقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٣/٦٧]، ويقول: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٢٢/٧٨]، وما خرج عن أصل الإسلام فهو انحراف واختلاف إنساني.

رابعاً: يتشكل في دائرة الانتشار الواسعة للإنسانية ما سماه القرآن الكريم بالأمم ومفردها أمة. و(الأمة) مصطلح قرآني إسلامي لا مقابل له في أكثر اللغات استخداماً بعد العربية وهي اللغة الإنجليزية. يقول الشهيد سيد قطب حول معنى كلمة أمة: «والأمة في التصور الإيماني هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة في كل جنس ومن كل أرض، وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة. وهذا هو التصور اللائق بالإنسان الذي يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية، لا من التصاقات الطين الأرضية»(١).

وفي تعريفه لمصطلح (الأمة) يقول البروفيسور إسماعيل راجي الفاروقي* رحمه الله:

"The term 'Ummah' is not translatable and must be taken in its original Islamic Arabic form. It is not synonymous with 'the people', or the nation or the state, expressions which are always determined by either race, geography, language and history, or any combination of them. On the other hand, the 'Ummah' is trans-local, not determined by geography considerations. Its territory is not only the whole earth, but all of creation. The 'Ummah' is also not restricted to any race. It is trans-ra-

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ١/ ١١٧.

* أستاذ الفكر الإسلامي وخبير باليهودية والمسيحية بجامعة تمبل بفلادلفيا بأمريكة، ومؤسس معهد الفكر الإسلامي العالمي بواشنطن، ومن مؤسسي الجامعة الإسلامية العالمية بماليزية، اغتيل غدراً وزوجته بمنزلهم بفلادلفيا عام ١٩٨٦م.

cial and regards all humanity as its actual or potential members. Nor is the 'Ummah' the 'state' because it is a trans-statal world - state, within which it may include and contain several 'states'"(1).

الترجمة: «إن مصطلح (الأمة) غير قابل للترجمة، ويجب أن يؤخذ كما هو في شكله الإسلامي العربي الأصيل أي .(Ummah) كما أنه ليس مرادفاً لمصطلح (الناس) أو (الوطن) أو (الدولة)، وهي مصطلحات محددة دائماً إما بالجنس أو الجغرافية، أو اللغة والتاريخ أو أي خليط منها. ومن ناحية أخرى فالأمة تمتد إلى ما وراء المحلية غير محدودة باعتبارات جغرافية؛ فأرضها ليست فقط الأرض كلها بل كل الوجود. والأمة ليست محدودة بجنس؛ فهي تتخطى حدود الجنس، وتعتبر كل الإنسانية من أعضائها، أصليين أو محتملين. كما أن (الأمة) ليست (الدولة) وذلك لكونها دولة عالمية تمتد إلى ما وراء حدود الدول، ويمكن أن تضم وتحتوي عدداً من الدول».

والأمة بهذا المعنى الإسلامي تختلف عن (القوم) و(الشعب) و(القبيلة) إذ تجمع بين منتمي كل من هذه الجماعات رابطة الجغرافية واللسان والتقليد. والأمة تقوم على رابطة العقيدة، وقد تضم في كنفها قبائل وأقواماً وشعوباً رغم تباينهم. ارتبط ذكر الأمة في القرآن الكريم بالأنبياء والرسل والدعوة إلى الله. ويقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ١٠/٤٧]، ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٤٤]. ووصف سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام لكمال إيمانه وثباته على

(١) Al-Faruqi, I, R, Tawhid. Its implications for Thought and Life, The International Institute of Islamic Thought, U.S. A. 1982, P. 124-125.

الحق بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٠]. كما سمى الله تعالى الجماعة القائمة على أمر الدعوة في داخل الأمة التي تنتمي إليها بالأمة. قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤]، ووصف سبحانه وتعالى من بُعث إليهم محمد ﷺ بأنهم أمة؛ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠]، ولم يقل خير قبيلة أو قوم أو شعب.

والأمة يصطفى فيها الرسل والأنبياء ويرسلون إليها بالكتاب، ويكون قدرها إما الاستجابة وحمل الأمانة، أو العصيان والتكبر. وقد تحتبس الأمة نفسها في دائرة التبعية والتقليد لما وجدت عليه الآباء والسلف ممن ضلوا عن الصراط المستقيم واتبعوا أهواءهم. وهؤلاء من تتحقق فيهم سنة الاستبدال؛ فربما يعجل الله لهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة مثل قوم نوح وهود وصالح.. إلخ.

خامساً: هذه الأمم التي تشكلت في دائرة انتشار الإنسانية وأرسل الله فيها الرسل، مضت وفق سنة الله الثابتة المحكومة بها وهي سنة الاستبدال، يقول تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨]. ومن تدبير الله تعالى للبشرية أن تكون في دائرة انتشارها رسالة خاتمة هي رسالة المصطفى ﷺ إكمالاً وتماماً لما جاء به رسل الأمم السابقة وهي رسالة الإسلام للناس كافة. ومن تدبير الله أيضاً أن تكون الأمة التي اصطفى منها الرسول الخاتم هي أمة خاتمة لا تتشكل بعدها أمة؛ إذ إن من أشراط الأمة أن يكون فيها رسول من الله.

ومن قدر هذه الأمة (أمة محمد ﷺ) أن تقوم على حمل الأمانة والبلاغ والتطبيق إلى يوم القيامة، وعليه لم يكن غريباً أن وصفت بصفات متفردة وغير مسبوقة فيما سلف من الأمم.

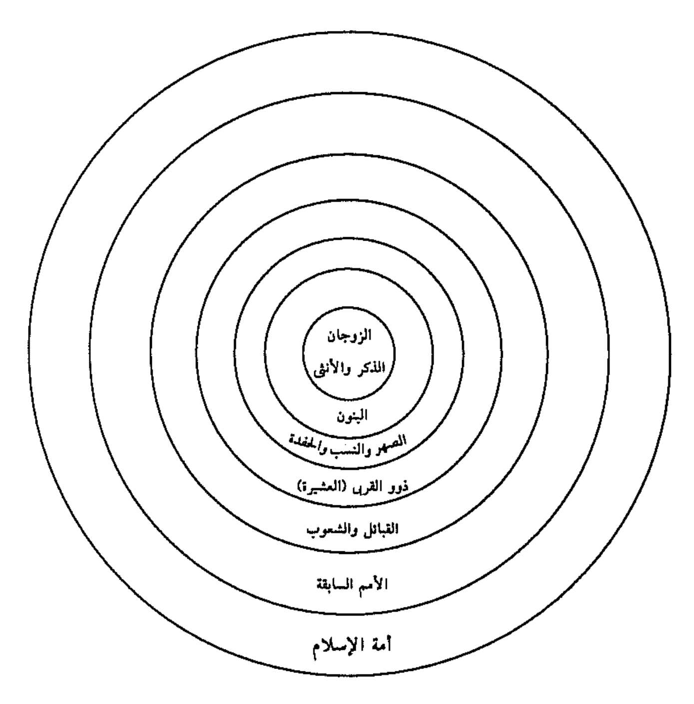
فهي خير أمة لا جنساً ولوناً؛ ولكن استقامة على الحق ومجانبة للباطل وإيماناً بالله، يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠].

وهي أمة الوسطية لأنها لم تَمِل بميزان الدين ادعاءً بأنها شعب الله المختار، ولم تجعله رهبانية وفصلاً للدين عن شؤون الدنيا، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣]. وهي أمةُ أنبلِ المهام وهي مهمة الشهودِ على الناس، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣]، وهي أمة الإيمان الكامل الجامع لحركة الاتصال الرباني بالبشرية في جميع مراحله، توحيداً لله في وحدة إنسانية تقوم على هذا التوحيد المشهود به وله في طور الذر. يقول تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

سادساً: تستوي هذه الأمم، السابقة والخاتمة، في مسؤولية الاستخلاف التي خلقت من أجلها عبادة وعملاً. ويحشر الله تعالى الناس أمماً يوم القيامة في مشهد مهيب، لتطلع كل أمة على سجل عملها المرصود بالحق، ومع كل أمة شهيد عليها. يقول تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١)﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٨-٣١].

هذا هو الشكل البنائي للزوجية الإنسانية أو (الأسرة) كما اصطلح على تسميتها. ذكر وأنثى من أصل واحد (نفس واحدة)، وبث وانتشار مركوز في ذلك الأصل عبر رباط جعله الله سبيلاً مشروعاً لكثرة يحمل كل

فرد فيها أمانة الاستخلاف بعلم وإرادة حرة، إن شاء ورد بها مورد أبويه الأصل، جنة عرضها السماوات والأرض، أو اتبع الشيطان فيورده مورد الهلاك؛ ناراً لا يموت فيها ولا يحيى (انظر الشكل).



والأسرة في الإسلام ليست محدودة بحدود الصغر أو الامتداد، لأنها لم تخلق بهذا النظام والتشريعات الدقيقة لذاتها، وإنما هي امتداد واتساع نحو أمة الرسالة والبلاغ والشهود. وعليه لم يكن غريباً أن جعل الإسلام لكل دائرة من دوائرها المبثوثة أحكاماً وتشريعات دقيقة تحكم بناءها وتربطها بسابقتها وتصوبها نحو الدائرة الكبرى (الأمة) والرسالة الأسمى، وهي أمانة الاستخلاف وإعمار الأرض كدحاً نحو الله تعالى وملاقاته.

فدائرة الزوجية - أي الوالدين - أحكمها الإسلام بالمودة والسكينة والرحمة وتقاسم المسؤولية والعدل في الحقوق والواجبات بين الطرفين مع الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان. ودائرة البنين لها أحكامها وحقوقها ولها على الوالدين حق البر والإحسان. والإحسان للوالدين مهمة جسيمة لأن الله تعالى جعلها في المنزلة التالية للإيمان به في جميع مراحل الدعوة الإسلامية. فهو ميثاق أخذ على قوم موسى عليه السلام. يقول تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١]، يقتضي الإحسان طاعة الوالدين وكريم معاملتهما في الكِبَر، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٣-٢٤] وإذا دعا الوالدان أبناءهما للشرك بالله، هنا فقط سمح الله بعدم طاعتهما ولكن بطريقة لا تسيء لحقوق الأبوة والأمومة ولا تقطع الصلة بهما. يقول تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ٣١/ ١٥].

ودائرة الصهر والنسب والحفدة بمن فيهم ذوو القربى، فالإحسان إليهم امتداد للإحسان للوالدين، يقول تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٤/ ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣]، ويقول تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٦]، والصلة بين دائرة الرحم هذه، أي بين الأصل والفروع، وفيما بينها فرض ديني لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ٤/ ١]، ولقوله تعالى أيضاً: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦/٣٣]. ويشمل الإحسان في هذه الدائرة إلى جانب الوالدين وذوي القربى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦/٤] ودائرة الصهر والنسب وما تفرع عنها تشكل دائرة العشيرة التي تحكم علاقاتها صلة الرحم والدم مهما اتسعت وتباعدت، وهي صلة تقوم على أحكام المودة والرحمة والعطاء والتكافل والإيثار.. إلخ. وبالأحكام والقيم ذاتها تمتد علاقاتها للعشائر الأخرى التي لا تربطها بها صلة رحم أو قربى.

ودائرة الشعوب التي تتشكل من العشائر والأجناس والألسنة المختلفة محكومة بالتعارف والتعاون بالقيم ذاتها التي تحكم علاقات الدوائر الأصغر، وهي الإيمان بالله وتقواه، والمودة والرحمة والبر والتكافل، والمشاركة في حماية العقيدة وبيوت العبادة والأرض والشعب. ونهى الإسلام في هذه الدائرة عن العصبية والانكفاء على العرق واللون، وجعل التعارف مفتاحاً للتوحد والمشاركة في المصلحة العامة. كما جعل معيار التمايز هو تقوى الله التي يترتب عليها دائماً العمل الصالح.

ونلاحظ أن ما جاء في القرآن الكريم بشأن هذه الدوائر بدءاً بالوالدين وانتهاء بالعشيرة والشعوب ركز - إلى جانب عبادة الله وتوحيده - على الأحكام والقيم الحاكمة لتمتين علاقة هذه الدوائر بعضها ببعض، وشملت هذه الأحكام ذوي الأوضاع الخاصة مثل الأيتام والمساكين والجيران والأرامل والمطلقات.. إلخ. وعليه لم يكن غريباً أن ينتج فقهاء الأمة هذا الإرث الشامل والدقيق من الأحكام والتشريعات التي تبدأ بتكوين الزوجية وتنتهي بالموت والإرث، كما تناولت علاقات الشعوب فيما بينها بمعايير الإسلام الداعية للعدل والتسامح والتعاون على البر والتقوى.

هذه الدقة في الأحكام والتشريعات والقيم الحاكمة للعلاقات المركوزة في عقيدة التوحيد ومقاصدها، ليست مقصودة لذاتها، ولكنها مصوبة نحو إعداد المكونات البشرية لهذه الدوائر وتوحيدها رغم تباين ألوانها وألسنتها تحت راية التوحيد؛ لتشكل مجتمعة آخر وأهم دائرة في دوائر الانتشار الإنساني، وهي الأمة الإسلامية. وقد تمت الإشارة (في رابعاً وخامساً أعلاه) إلى تفرد معنى (أمة) وارتباطه بالإسلام.

وجدير بالذكر أن مصطلح (أمة) ورد في القرآن الكريم في خمسين آية، و(أمتكم) في آيتين، و(أمم) بالجمع في ثلاث عشرة آية. تربط هذه الآيات جميعها بين الأمة والرسالة، ويبين بعضها موقف الأمم من رسلهم وأنبيائهم، كما يبين بعضها الآخر مصائر ومآلات هذه الأمم وسريان سنن الله الثابتة فيها. وركزت آيات أخرى على خصوصية أمة النبي محمد ﷺ، ومهامها كما تم توضيحه (انظر سادساً أعلاه).

وتمتاز أمة محمد ﷺ، ليس بكونها آخر دائرة في التشكيل البنائي للأسرة بمفهومها الإسلامي، ولكن بكونها آخر أمة في حلقات أمم الرسل والأنبياء. وقد أكرمها الله باصطفاء خاتم الأنبياء منها، وبإكمال الدين وتمامه فيها بتشريفها بالقرآن الكريم. فهي بذلك أمة ذات رسالة للعالمين، مبرأة من العصبية لدوائرها الصغرى (الأهل والعشيرة والقبيلة والشعب) يتساوى فيها الناس جميعاً؛ فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وهي أمة قادرة على جمع الناس على كلمة سواء ألا يعبدوا إلا الله، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لينالوا مقام التكريم عند الله تعالى. وهي أمة أمن وسلام لا تعادي إلا من عادى عقيدتها، ولا تجاهد وتقاتل إلا في سبيل الله. ومن هنا أعلى الإسلام من شأن نواتها التي ترفدها بالعنصر البشري وهي الزوجية.

استناداً إلى هذه الأصول القرآنية الخمسة الجامعة لمفهوم الأسرة، يمكن تعريف الأسرة إسلامياً بأنها خلق وتدبير رباني، بل آية من آيات الله

الدالة على عظمته وإعجازه، وهي ذات أصل واحد (النفس الواحدة)، قوامها طرفان هما الزوجان الذكر والأنثى، لحمتها السكينة والمودة والرحمة، وسداها أحكام وتشريعات تقيمها على العدل والإحسان إمساكاً وتسريحاً، ونتاجها بث وانتشار لإنسانية يحمل كل فرد فيها إقرار الشهود بربوبية الخالق وقبول أمانة الاستخلاف بعلم وإرادة حرة، وما بين بثها وانتشارها اصطفى الخالق أمم الرسالة التوحيدية، وختمها بخير أمةٍ أخرجت للناس وأنزل إليها كتاباً منيراً.

هذا المفهوم الإسلامي للأسرة وتعريفها المركوز فيه يجعل الأسرة مسؤولية المجتمع المسلم كله تكويناً ورعاية بحسبانها لبنة بناء الأمة. وقد جسد الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، في إيجاز بليغ هذه المسؤولية الجسيمة حين قال عن الأسرة: «إن تكوينها دين، والحفاظ عليها إيمان، ومكافحة الأوبئة التي تهددها جهاد، ورعاية ثمرتها من بنين وبنات جزء من شعائر الله»[١].

مظاهر الخروج عن المفهوم الإسلامي للأسرة

هذا هو المفهوم الإسلامي للأسرة، وهو مفهوم يجمع في وحدة تتكامل مع عقيدة التوحيد، بين أصول الدين المتعلقة بخلق الإنسان والغاية من خلقه، وبين الإطار القيمي الأخلاقي والتشريعي الحاكم لنظام الأسرة وحركتها في الواقع العملي. فالمفهوم الإسلامي في كل مجالات الحياة رباني إنسانيٌ، دنيوي أخروي، وهو مزيج من الأصول والتشريعات الربانية والاجتهاد الإنساني المركوز في هذه الأصول، وفق متطلبات ومتغيرات واقع الإنسان العملي.

---

(١) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، مرجع سابق، ص١١٠.

في هذا التدبير الرباني فإن الإنسان، بدءاً من بيت الزوجية وانتهاءً بالأمة، مكلف بمقتضى أصول الدين وما يتعلق بها من نظام تشريعي وأخلاقي.. إلخ، بمسؤولية خطيرة وبفروض وواجبات ذات نتائج لا مثيل لها في أي نظام عقائدي أو وضعي. ويجد الإنسان نفسه أمام غايات وأهداف تمتد إلى ما وراء أبعاد زمانه ومكانه المحدود؛ فحركته وسكونه ليست ذاتية الدفع ولكنها مدفوعة بالوجود الرباني في كل فعل وسكون، ومرتبطة بغاياته ومقاصده.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٨٤/٦]. ويقول تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٦]. فمن كان كدحه طاعة واستقامة على الصراط المستقيم فإنه ينال رضاء الله ويفوز بنعيمه الدائم، ومن كان كدحه معصية وانحرافاً عن النهج فسيواجه مآلاً يدعو من هوله بالهلاك على نفسه، ويقول: يا ليتني كنت تراباً. فالرجوع إلى الله ونيل رضاه لا يكون إلا بالتعلق بمقاصده، واستخدام الطاقات والمحركات التي زودنا بها الله وهدانا إليها بوساطة الرسل والأنبياء. وحين تستقر في وجدان الإنسان معاني الكدح إلى الله واليقين بأنه من الله المنطلق وإليه الرجعى، حينها ستكون كل أفعاله وأقواله في سبيل الله، وسيكون لسان حاله ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٢].

ومن أجل إخراج مثل هذا الإنسان ومن ثم إخراج الأمة المسلمة، حرص الإسلام على نواة الأمة ومصدر رفدها، وهي الزوجية. فقد خصّها الإسلام بالتكوين الشرعي المشهود، الذي يحقق النسل الشرعي الأصل والنسب، ويصونها من الاعتلال والأوبئة ويصون حقوق أطرافها جميعاً. وبالإضافة لكل هذا خصّها الإسلام بتحريم كل ما من شأنه أن يؤدي للانحراف بهذا المفهوم الإسلامي البديع، ونلخص هذه المحرمات على النحو الآتي:

أولاً: حرم الإسلام أي زواج لا يستوفي شروط عقد وعهد الزواج، مثل زواج المحلّل، والزواج المؤقت، وزواج المتعة، والشغار، والمسيار، والزواج المدني والسري، وبدعة زماننا هذا المسماة بالزواج العرفي وهو زواج سري لا يشهده ولي الأنثى ولا شهود عدول، ولا تصان فيه حقوقها وحقوق المواليد غير الشرعيين لهذا الزواج.

ثانياً: حرّم الإسلام زواج المحرمات من النساء تحريماً مؤقتاً، مثل المطلقة ثلاثاً إلا بعد زواج أعقبه طلاق لا يقصد التحليل، وغير ذات الدين كالوثنية مثلاً، وأخت الزوجة ومحارمها.. إلخ، وحرّم أيضاً المحرمات أبدياً بسبب النسب أو حرمة المصاهرة والرضاع.. إلخ وفي هذا تفصيل فقهي دقيق لا يتسع المجال لذكره.

ثالثاً: حرّم الإسلام التبني حفظاً للروابط الطبيعية في الأسرة، وحفظاً لخصوصية وحقوق من يكون تحت رعاية الأسرة من الأبناء والبنات. فهؤلاء ينسبون لآبائهم إن كانوا معروفين، وذلك ليشعر الأبناء بالانتماء الأسري الطبيعي. أما إذا كانوا مجهولي الآباء فقد منحهم الإسلام علاقة تقوم على الإخاء والموالاة في الدين، يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥].

رابعاً: حرّم الإسلام الزنا وجعله من الجرائم الحدّية حماية للعرض ومنعاً للفوضى وحفظاً للنسل. وأباح التعدد، المحدود بأربع والمشروط بالعدل، وذلك تحصيناً للنفس من التعدي على الأعراض وإشاعة الفوضى.

خامساً: حرم الإسلام الخروج على الفطرة والتدبير الرباني الذي جعل طرفي الزوجية الذكرَ والأنثى. وعدّ الإسلام الخروج عن هذا التدبير فاحشة وفسوقاً، ويورد القرآن الكريم شاهداً تاريخياً يبين كيف يكون

غضب الله وعقابه لمن يفعل ذلك. فقد وصف الله تعالى قرية قوم لوط بأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا قوم سوء فاسقين، فأرسل الله لوطاً يدعوهم لتقوى الله مستنكراً عليهم الانقلاب على تدبير الله فيما يخص الزوجية، يقول تعالى على لسان لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٦٥-١٦٦].

وكما انقلبوا على الفطرة السليمة عاقبهم الله بأن قلب عليهم الأرض. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ١١/ ٨٢] أي أصبحت مدينتهم تحت الأرض، وأمطرت بحجارة ملوثة بالطين، فكأنها تثبيت لعالي الأرض عليهم فلم يعد لهم وجود.

كل هذه المحرمات التي حددها الإسلام حفاظاً على الزوجية والنسل والمجتمع بدأت تظهر في مجتمعات انقلبت على عقيدتها، وأنكرت دينها، وأخلدت إلى الأرض فعبدت الماديات، وأنكرت الغيب. وبلغ هذا الحال أوجه في القرن العشرين المنصرم في الغرب، وبدأ يستهدف مجتمعات المسلمين في إطار استراتيجية عولمة الفكر والسلوك الغربي، من أجل الهيمنة على الشعوب وخيراتها، وأصبح الاتجاه لتغيير مفهوم الأسرة سياسة تنعقد لها المؤتمرات، وتصاغ من أجلها الاتفاقيات. فما طبيعة هذا التوجه، وكيف نشأ في الغرب المسيحي؟

هذا ما سيتم تناوله في الفصول الآتية.

الفصل الثاني

نشأة الحضارة الغربية



المبحث الأول
سنن النهوض والاستبدال الحضاري

التاريخ يخلّد الأفراد بسبب تأثيرهم ودورهم التاريخي في مجتمعاتهم، وكذلك يخلد التاريخ الشعوب حينما تؤسس حضارة لها مميزاتها الخاصة وتأثيرها فيمن يجاورها من شعوب. وعليه لم يكن غريباً أن يحفل سجل الإنسانية بحضارات عظيمة مثل الحضارة النوبية في السودان ومصر، والسومرية والبابلية في شمال الجزيرة العربية، والفارسية في إيران، وحضارات السند والصين في أقصى الشرق، والإنكا والمايا في أمريكة الجنوبية.. إلخ، وقد خضعت هذه الحضارات لدراسات تاريخية وصفية مستفيضة من حيث تاريخ النشأة وأسبابها، وإنجازاتها وسمات النهوض الحضاري المميز لكل منها، ثم أسباب انهيارها.

وقد استعار الدارسون الدورة الحيوية للإنسان نموذجاً لنشأة الحضارة، فهي مثله تماماً؛ تولد، ثم تنمو وتزدهر، ثم تضعف وتموت. هذه الدورة الحيوية حددها كيقلي مثلاً في سبعة أطوار هي التداخل، ثم الاستيعاب، والتمدد، ثم التوسع عبر القوة، ثم ظهور الإمبراطورية الإمبريالية، ثم الضعف، ثم النهاية على يد الغزاة.

أما نموذج ميلكو فيقوم على ثلاث مراحل هي الإقطاع، ثم الدولة، ثم الإمبريالية. ويرى المؤرخ البريطاني توينبي أن أطوار الحضارة خمسة، فهي تظهر ردَّ فعل لتحديات ما، ثم تمر بمرحلة النمو التي تقودها قلة

مستنيرة تتحكم في البيئة والموارد، ثم تأتي مرحلة صراع تتسع فيها الدولة على حساب من حولها، ثم تصبح عالمية، ثم تضعف وتنهار(١).

ويبدو أن العلماء الغربيين قد استعاروا هذه الدورة الحيوية للحضارة من فكر ابن خلدون الاجتماعي في (المقدمة) إذ يرى ابن خلدون أن ظهور الحضارة ولادة، ونموها وقوتها شبابٌ، وضعفها شيخوخة، وزوالها موت. إلّا أن هناك فرقاً جوهرياً بين منهجية علماء الغرب ومنهجية ابن خلدون وغيره من علماء المسلمين.

فعلماء الغرب تعاملوا مع الحضارة على أنها وجود مادي له مكونات وعناصر صنعها الإنسان، بما في ذلك عنصر الدين والعبادة وطقوسها. وعليه فلم يحاولوا فهم ظاهرة الحضارة وإمبراطورياتها في الإطار الكلي للوجود الكوني الطبيعي والإنساني وغاياته ومراميه، والقوانين التي تتحكم في كل ذلك. وهذا ما وفره القرآن الكريم لابن خلدون وغيره بوصفه وحياً ربانياً سابقاً للإرث الغربي في كل مجالات المعرفة.

فالقرآن الكريم يؤكد على وجود سنن ربانية وراء الوجود كله لا تتبدل، ولا ينفك الوجود بإنسانه عن إسارها ومسارها. سنن لا تتعلق بظهور الحضارات وجبروتها وزوالها بوصفها ظواهرَ مادية محسوسة، ولكنها تتعلق بالفعل الإنساني ودوره في صنع حضارة سائدة وفق قوانين وقيم وأخلاق ومبادئ، أو دوره في تدمير حضارة قائمة بمفارقة هذه القوانين والقيم والأخلاق والمبادئ، فالعبرة في الحضارة الإنسانية ليست بمكوناتها المادية ومبتكراتها الإعجازية، وإنما العبرة بإنسانها والقيم الحاكمة لمسيرة عطائه الحضاري وما يترتب عليها من خير وصلاح للإنسانية جمعاء.

---

(١) For further reading see: Huntington, S, The Clash of Civilzations, Simon and Schuster U.K. 1997. Also: Quigley, C, The Evolution of Civilization An Introduction to Historical Analysis, N.Y. Macmillan, 1961.

والإنسان المستخلف في الأرض لاستعمارها، كما وضحنا في الفصل الأول، خاضع لقوانين النهوض الحضاري الربانية الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول وهي كما يلي:

١- **الإيمان بالله والتقوى والتوكل**: فمن دونها لا يؤسس الإنسان أسرة ولا مجتمعاً ولا حضارة، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٦] ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٣].

والإيمان يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والالتزام بشريعته وإعمار الأرض وفق هداه تحقيقاً لإرادته. والإيمان والتقوى والتوكل مركوزة في الفطرة الإنسانية لا يستقيم أمر الإنسان إلا بصياغة نفسه بها، وتجسيده لمضامينها في فكره وسلوكه ومظهره، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

٢- **التدافع**: وهو سنة أملتها طبيعة الصراع الأزلي بين الحق والباطل؛ إذ لابد للمؤمن من الدفاع عن عقيدته، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠] وفي الآية نلاحظ قيمة إسلامية سامية، وهي مسؤولية المسلم حيال كل بيت للعبادة وليس المساجد وحدها.

ويلزم المسلمَ أيضاً الجهادُ حفظاً لصلاح الأرض، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١].

٣- **الاستبدال**: فبغياب الإيمان والتقوى المستتبع بالعمل الصالح يحل الشرك المستتبع بفساد الأعمال من ظلم وطغيان وترف وفسوق وانحراف أخلاقي وسلوكي.. إلخ، ويؤدي هذا كله إلى غضب الله تعالى، فيعجل بعذاب القوم الذين ظلموا أنفسهم بمجانبة الحق والصراط المستقيم،

وبعجزهم عن حمل أمانة الاستخلاف. وقد قضى عدل الله ألا يهلك إلا الذين ظلموا أنفسهم بهذه الأفعال يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٩] ويقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٩].

والمؤمنون الذين لم يظلموا أنفسهم بالشرك وفاسد الأعمال يقول تعالى في شأنهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥].

أما الهالكون فيستبدلُ الله بهم قوماً ارتبطت قلوبهم بطاعة الله وحبه فيحبهم الله، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

٤- **الأجل المحدود:** وهو سنة كونية ربانية فمثلما للإنسان أجل فللأمة وحضارتها أجل ونهاية، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٤].

والأجل والنهاية ليسا حدثاً عشوائياً اعتباطياً فجائياً، ولكنه - في تقديري واجتهادي - مناط بسنة الابتلاء والتمحيص، فقدر الأمم أن تختبر في إيمانها وصبرها على المكاره وطاعتها للأوامر واستجابتها لداعي الجهاد ونصرة المستضعفين.. كما تبتلى بالنقص في الأموال والثمرات والأنفس.. إلخ.

وحينما تخفق الأمم في الابتلاء ومختبر التمحيص لا تشفع لها عظمتها وقوتها، فيُرفع عنها التمكين بما كسبت أيدي الناس. وهذا لا يعني انهيار الأصول والثوابت والقيم، فهذه باقية خالدة. وتمضي سنة

الاستبدال؛ فيأتي قوم يحبون الله ويحبهم فيحققون مقام الخيرية بتجديد الدين وتفعيل الأصول والثوابت في حياة الأمة.

هذه هي السنن الحاكمة لمسيرة الإنسانية؛ وعليه لم يكن غريباً أن وقف عندها القرآن مذكراً وداعياً للاعتبار؛ يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٧] فقد وقف القرآن عند مصائر ما يزيد على عشرين مجتمعاً إنسانياً، بلغت مبلغاً من العلو والعظمة المادية لم يقابلها علو في الإيمان والاستقامة وصالح الأعمال. فجاءتهم رسلهم بالبينات داعيةً للتوحيد والعمل الصالح، ومذكرةً بأنعم الله على أقوامها، منذرةً بعاقبة الشرك، والبطر، والظلم، والطغيان، وتطفيف الكيل والميزان، وانحراف الأخلاق والسلوك.. إلخ. ولما لم يستجيبوا أهلكهم الله، ومن هؤلاء قوم نوح وهود وصالح وموسى عليهم السلام.

خلاصة القول: أن بناء الحضارة لا يكون إلا وفق هذه الأصول والسنن الربانية، فقد جعل الله القرآن وما احتواه من أصول وثوابت وقيم، جعله العنصر الثابت المحفوظ في حياة الأمة والركيزة التي يقوم عليها البناء. وجعل الله الإنسان هو المتحرك في هذه المعادلة، فإما فلاح دنيوي وأخروي، وإما فشل ربما يُمهل فيه الفاشل ولا يُهمل.

وتمضي سنة الاستبدال؛ فيأتي من يدرك عظمة هذه الثوابت ويستشعر عبء أمانة الاستخلاف، فيربط نفسه وحركة الحياة بغايات الوجود ومقاصد السماء. وفي ظل وضع كهذا يستقيم أمر الإنسان، وتنفتح بركات السماء والأرض، فتصلح مجالات حياته كافة. وينقاد له طائعاً كلُّ ما سخره الله له من كائنات حية، وموارد طبيعية، وعلوم مستحدثة، واستكشافات لظاهر الأرض وباطنها والفضاء الرحب، فتكون الحضارة المثال، والإنسان الأنموذج. وفي هذا دليل على أن مرحلة شيخوخة

وموت الحضارات التي أوردها ابن خلدون ومقلدوه من العلماء الغربيين لا تنطبق على حضارة الإسلام. وذلك لأن مقومات هذه الحضارة وعناصر بنائها، كما جاء بها الوحي، خالدة لا تموت، فالذي يذهب هم الأقوام الذين يخفقون في إدراك كُنه هذه الأصول والسنن وضرورة الالتزام بها والعمل وفق مقتضياتها، وعليه يُستبدل بهم آخرون، ولا يكونون أمثالهم.

لم يكن غريباً إذن أن تتم من رحم هذه الأصول والثوابت ولادة حضارة إسلامية رائدة انطلقت خارج حدود مهدها في بلاد العرب شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً.

وهنالك عدة عوامل كان لها دورها في استجابة الشعوب غير العربية لدعوة الإسلام. هذه العوامل لا تنفصل عن الأصول والثوابت الربانية التي أشرنا إليها. من هذه العوامل اتساق عقيدة التوحيد مع الفطرة الإنسانية السليمة. ومنها المبادئ الإسلامية المتمثلة في التحرر والمساواة والعدل والشورى والتكافل.. إلخ، ومنها التشريعات والمفاهيم الإسلامية المتصلة بشؤون الفرد والأسرة والمجتمع، التي تقوم على الطهر والاستقامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها أيضاً القيادات والدعاة الذين كانوا أنموذجاً وقدوة.

وهذا ما افتقرت إليه الحضارة الغربية المعاصرة، فقد استندت هذه الحضارة إلى مذاهب وأفكار وضعية كانت نتاج استقراء قاصر لمراحل نشأتها التاريخية. وكان لهذا القصور أثره في مجالات الحياة كافة بما في ذلك مفهوم الأسرة كما سنوضح لاحقاً.

وحتى نستبين طبيعة هذا الاستقراء القاصر وأثره في مفهوم الأسرة في الغرب، لابد من استعراض موجز لتاريخ نشأة الحضارة الغربية. ونقسم هذا التاريخ إلى مرحلتين: تبدأ الأولى بالحضارة الإغريقية ثم الرومانية

وتنتهي بمرحلة المسيحية وعصور الظلام، وتبدأ الثانية بمراحل النهوض الأولى ودور الإسلام فيها، وتنتهي بالنهضة الصناعية والفكرية التي كانت وراء ما يعرف اليوم بالحضارة الغربية.

المبحث الثاني
مراحل نشوء الحضارة الغربية

المرحلة الأولى: من الحضارة الإغريقية إلى عصور الظلام

■ الحضارة الإغريقية

لم تعرف أوربة بمساحتها الجغرافية المعلومة وتعدد أجناسها ولغاتها، ما يمكن أن يسمى بالحضارة إلا في جزء يسير منها هو شبه الجزر الممتدة في البحر الأبيض المتوسط، أي اليونان وإيطالية، فأول حضارة أوربية نشأت في اليونان في القرن الثامن قبل الميلاد، وتعدّ قصيدتا الإلياذة والأوديسة لمؤلفهما هومر (٧٢٥ق.م) من أقدم مصادر المعرفة عن طبيعة الحياة والفكر الإغريقي. كما تعدّ مؤلفات سولون حاكم دولة أثينا (القرن السادس ق.م) من أهم مصادر المعرفة عن نشأة دويلات المدن وكيفية إدارتها، وإلى جانب مظاهر الاستقرار السياسي والتقسيم الطبقي للمجتمع اشتهرت حضارة الإغريق بالفلسفة وإعمال الفكر والمنطق في القضايا المتعلقة بالكون وظواهره الطبيعية. ومن أشهر فلاسفتها الذين امتد أثرهم إلى اليوم سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) وأفلاطون (٤٢٩-٣٤٨ق.م) وأرسطو (٣٨٤-٣٢١ق.م) كما اشتهرت بعلم الفلك والرياضيات.

وأهم ما يميز الحضارة الإغريقية هو العقيدة الدينية التي انعكست في أوجه الحياة كافة، فالإغريق جعلوا لكل شيء إلهاً، لكن أشهرها تلك

التي يعتقدون أنها تتخذ من جبل الأولمب مسكناً لها. كما اشتهر الإغريق بالطقوس والاحتفالات الدينية، وأشهرها الألعاب الأولمبية، ويشير سايمون برايس إلى أن الاهتمام بالاحتفالات والطقوس يعكس الطبيعة الروحية للإغريق، ويدل على أن الروحانيات تمتزج بكل أوجه الحياة، يقول برايس:

"The number of frequencies of such festivals reflects the intensely spiritual nature of the orient Greeks. Meditation with the gods took place through prayer and sacrifice."(1)

الترجمة: «إن عدد تكرار هذه الاحتفالات يعكس الطبيعة الشديدة الروحانية للإغريق الشرقيين. ويتم التأمل مع الآلهة عبر الصلاة والقرابين».

ويعتقد الإغريق أن تقديم القرابين للآلهة هو سر عظمة مدينة أثينا، ويقول أحد أعيان المدينة مخاطباً المواطنين بأن أسلافهم قاموا بتقديم القرابين للآلهة وفق قوانين الحاكم سولون (التي وضعها في بداية القرن السادس ق. م) ونتج عن هذا الالتزام أن أثينا ظلت أعظم مدن الإغريق، وعليه:

"It behoved us to perform the same sacrifices as they did if for no other reason than that of the success which has resulted from these rites."(2)

الترجمة: «وعليه فمن واجبنا تقديم القرابين على نهج أسلافنا حتى وإن كان دافعنا لذلك فقط التوفيق الذي حققوه بفضل هذه القرابين - أي عظمة أثينا التي ورثناها».

(١) Price, S., Religions of the Ancient Greeks, Cambridge, 1999, P. 79.

(٢) Price, S., Religions of the Ancient Greeks, ibid., P. 79

ومن المميزات الأخرى للحضارة الإغريقية النزعةُ الإمبريالية التي اتصف بها حكامهم، ففي القرن الخامس قبل الميلاد استطاعت أثينا توحيد دويلات المدن في إمبراطورية موحدة وأنشأت أسطولاً بحرياً قوياً تحكمت به في جزر وشواطئ بحر إيجة، إلا أن سلطة أثينا زالت عندما هزمتها أسبارطة عام ٤٠٤ق.م. ودخلت دويلات المدن في صراع مع أسبارطة، مما أضعف الإمبراطورية. وفي عام ٣٣٨ ق.م احتل فيليب المقدوني بلاد الإغريق. ليحكمها بعد قتله عام ٣٣٦ ق.م ابنه الإسكندر الأكبر. واتسعت الإمبراطورية في عهد الإسكندر حين احتل بلاد فارس شرقاً ومصر وشواطئ ليبية عبر المتوسط. وأدى انشغال الإسكندر بالمعارك إلى إهمال إدارة بلاد الإغريق وما حولها، مما أضعف الدولة وأدى لتفككها بعد وفاته عام ٣٢٣ ق.م.

لم يترك الإسكندر إدارة قوية، ودخلت الإمبراطورية في صراع أدى إلى تقسيمها عام ٣٠٧ ق.م إلى ثلاث ممالك هي مقدونية، والبطالمة في مصر، والسلاجقة في آسية الصغرى.

وعرفت مرحلة الممالك هذه بالمرحلة الهيلينيّة في تاريخ الحضارة الإغريقية، واهتم ملوكها إلى جانب الاستقرار الإداري بالإرث الديني الثقافي والفلسفي الإغريقي. فالبطالمة في مصر أسسوا مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وازدهرت العلوم والرياضيات، كما كسبوا ولاء المصريين باحترام عقائدهم وبناء المعابد لآلهتهم، كما ظلت أثينا مركزاً للفلسفة والمنطق.

ظهرت في أثينا في هذه الفترة مدرستان حديثتان للفلسفة؛ هما مدرسة الفيلسوف أبيقور، ومدرسة زينو القبرصي (٣١١ ق.م) التي طورها تلميذه كريسيبس إلى فلسفة متكاملة، وشكلت هاتان المدرستان نقطة تحول كبرى في الفلسفة الإغريقية. فالأبيقورية - على عكس ما يعتقد الإغريق - ألغت دور الآلهة في حياة الإنسان، ودعت الناس للبحث عن التوازن النفسي

في الرفاه المادي الحسي. أما فلسفة زينو - Stoicism التي استمدت اسمها من المظلة المسقوفة Stoa في أثينا التي كان زينو يلقي فيها دروسه - فهي ترى الإنسان جزءاً من الناموس الكوني، وعليه أن يدور في فلكه باستسلام كامل. ومع أن الإنسان يملك قدراً من حرية التصرف والاختيار، لكن عليه ضبط عواطفه ورغباته وأن يتقبل أقداره بلا احتجاج، وهذا قمة التحرر في نظرهم.

استمرت الممالك الإغريقية الثلاث مركزاً للحضارة الإغريقية إلى أن بدأت الإمبراطورية الرومانية غزوها واحتلالها تدريجياً لتنقل أوربة بذلك إلى مرحلة الحضارة الرومانية.

■ الحضارة الرومانية

يعود تاريخ رومة إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وأصبحت جمهورية عام ٥٠٩ق.م. وفي عام ٢٠٠ق.م ظهرت الإمبراطورية الرومانية بعد أن احتلت رومة صقلية وإسبانية وشمال إفريقية.

بدأت رومة احتلال المدن والممالك الإغريقية تدريجياً، فاحتلت عام ١٤٨ق. م مملكة مقدونية، ثم مدينة بيرقاموم عام ١٣٣ق.م، ثم مملكة السلاجقة عام ٦٣ق.م ثم مملكة البطالمة في مصر عام ٣١ق.م، ومن أشهر الأباطرة الرومان يوليوس قيصر ومارك أنطوني. وقد امتد نفوذ الإمبراطورية الرومانية قبل نهاية القرن الأول ق. م إلى إنجلترة وفرنسة وآسية الصغرى ثم إلى فلسطين التي احتلها بومي عام ٦٣ق.م، وكانت رومة تعين حكام فلسطين ومن أشهرهم بونتياس بيلاطس (٢٦-٣٦ق.م) وهو من قام بتسليم المسيح عليه السلام لليهود.

تعدّ الحضارة الرومانية امتداداً طبيعياً للحضارة الإغريقية، فرومة تاريخياً كانت على اتصال مع أثينا، وهنالك تشابه في المعتقدات

والآلهة، وقامت رومة بنقل الآثار من المدن الإغريقية التي احتلتها، وعند هزيمة مقدونية نقل القائد الروماني مكتبتها الملكية إلى رومة.

ويعود الفضل إلى ماركوس سيزيرو في ترجمة الإرث الإغريقي - خاصة الفلسفة - إلى اللاتينية؛ فقد مكث في بلاد اليونان مدة عامين، درس خلالها علم المنطق والخطابة، ثم ألف كتاب (الجمهورية) عام ٥٤ ق.م، واتجه سيزيرو بعد ذلك إلى الفلسفة الإغريقية، وكانت قضيته الأساسية هي الآلهة؛ فمع قناعته بأهمية الاعتقاد والطقوس إلا أنه تشكك في وجود آلهة كما يعتقد الإغريق والرومان. وتعد الحضارة الرومانية في مجال الأدب والفن المعماري والاهتمام بالطقوس الدينية امتداداً للحضارة الإغريقية؛ إذ واصل الإغريق عطاءهم الحضاري تحت حكم الرومان. بل يذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الحضارة الرومانية قدمت للتاريخ قدرتها العسكرية والإدارية فقط، أما عطاؤها الثقافي والفكري فسيطرت عليه الفلسفة والآداب والفنون الإغريقية. ويستدلون على ذلك بأن عظماء الفلاسفة والمبدعين في ظل الإمبراطورية الرومانية كانوا من الإغريق أمثال عالم الطب جالينوس وعالم الفلك بطليموس.

ظلت رومة تبسط سلطتها على الإمبراطورية عبر قدراتها العسكرية والإدارية، وحين كانت الإمبراطورية على هذا الحال من الاستقرار، أطل عامل جديد هو دخول المسيحية إلى قلب الإمبراطورية الرومانية في منتصف القرن الأول لميلاد المسيح عليه السلام، ويشكل دخول المسيحية بداية المرحلة الثالثة من تاريخ الحضارة الأوربية.

■ المسيحية وعصور الظلام

دخلت المسيحية إلى مدن الإمبراطورية الرومانية بواسطة المبشر بولس، وتشكل رسائله إلى المدن الإغريقية والرومانية وآسية الصغرى

توثيقاً لرحلاته التبشيرية[١]. وبولس يهودي من طائفة القرنيين واسمه أيضاً شاؤل، كما ورد في أعمال الرسل حول ذهابه إلى دمشق لمطاردة المسيحيين وجلبهم إلى القدسِ موثقين. وعندما وصل دمشق ادّعى أن المسيح قابله في الطريق وأمره بأن يبشر بأن المسيح ابن الله وألا يضطهد المسيحيين[٢]. وعند عودته إلى القدس حاول اليونان قتله فهرب إلى طَرْسُوس موطنه الأصلي، ثم بشر في أنطاكية ثم غلاطية ومقدونية حيث كون أول مجموعات مسيحية. وعاد إلى القدس مرة أخرى، ثم واصل رحلاته التبشيرية في بلاد الإغريق وهي جزء من الإمبراطورية الرومانية. وعاد مرة أخرى إلى القدس، حيث اعتقله الحاكم الروماني وأرسله إلى رومة، وواصل بولس نشاطه التبشيري، ويقال إنه اغتيل هناك. وتمتد فترة نشاط بولس التبشيري من العام ٣٣ إلى العام ٦٠ الميلادي.

شكلت المجموعات التي أسسها بولس نواة للمسيحية في الإمبراطورية الرومانية. ومنذ دخولها في منتصف القرن الأول الميلادي ظلت المجموعات المسيحية تعيش عزلة كاملة إلى القرن الرابع الميلادي، وطوال هذه القرون ظل المسيحيون مضطهدين من قبل الرومان. والرومان - مثل الإغريق قبلهم - يعتقدون أن للآلهة دوراً أساسياً في استقرار الكون والحياة.

ومن هنا جاء احترامهم لآلهة الشعوب التي أخضعوها، يقول فريمان:

"The Romans assumed that other people's gods were as important apart of the fabric of their society as theirs, and this provides one reason why they were so easily prepared to tolerate other deities and beliefs"[3].

(١) رسائل بولس وأعمال الرسل جزء أساسي في كتاب العهد الجديد.

(٢) العهد الجديد: أعمال الرسل، الإصحاح ٩.

(٣) Freeman, Ch., The Closing of the Western Mind, Pimlico Pub, London, 2002, p066

الترجمة: «يفترض الرومان أن آلهة الشعوب الأخرى تشكل جزءاً هاماً في تكوين مجتمعاتهم، وهذا الافتراض يشكل أحد الأسباب التي جعلتهم متسامحين مع آلهة ومعتقدات الشعوب الأخرى».

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا اضطهد الرومان المسيحيين وسخروا من عقيدتهم؟ إن أسباب هذه العزلة والاضطهاد نجدها في رسائل بولس للإغريق والرومان، وفي أعمال الرسل الموجودة في كتاب العهد الجديد. وأول أسباب عزلة المسيحيين هي نبذهم التام للآلهة والقرابين والطقوس الرومانية اتساقاً مع عقيدتهم. وقد بدا هذا للرومان نوعاً من عدم التسامح، أما بولس فقد كان جريئاً في وصف آلهتهم بالشياطين، وانتقد قرابينهم، مشيراً إلى أن دم المسيح هو القربان الأفضل من دم حيواناتهم[١]. وهاجم بولس الفلسفة الإغريقية واستخدام الرومان للمنطق وإعمال الفكر، بل جعلها من صميم العقيدة حينما خاطب أهل كورنتس في رسالته إليهم قائلاً: «لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء.. ألم يُجَهِّل الله حكمة هذا العالم؟... استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة، لأن اليهود يسألون آية، واليونانيين يطلبون حكمة»[٢].

لقد شكلت المسيحية التي قدمها بولس انقلاباً شاملاً على المعتقدات والطقوس والثقافة الرومانية وما احتوته من فلسفة الإغريق. وعليه فلم يكن غريباً أن عزلتهم الإمبراطورية، وعاشوا على هامشها، وكان لتعاليم بولس المتعلقة بالزهد والرهبنة دورها في ترسيخ هذه العزلة والاضطهاد. وبلغ الاضطهاد ذروته في عهد الإمبراطور ديوكليشيان الذي أصدر قراراً عام

---

(١) العهد الجديد: أعمال الرسل - الإصحاح ٩.

(٢) العهد الجديد: أعمال الرسل، مصدر سابق، رسالة مورنس - الإصحاح الأول (١٩-٢٣).

٣٠٣م بمصادرة ممتلكات المسيحيين ووثائقهم الدينية وقام بإحراقها، وقام الإمبراطور جاليرس من بعده بمطالبة المسيحيين بتقديم القرابين لآلهة الرومان وأمر بقتلهم وتعذيبهم إذا امتنعوا عن ذلك.

أما نقطة التحول في علاقة المسيحية بالإمبراطورية الرومانية فقد كانت في عهد الإمبراطور قسطنطين (٢٧٢-٣٣٧م). فقد اتخذ خطوات لإدماج المسيحيين في المجتمع بتقريبهم إلى الإمبراطور، فاعترف بإلههم وبالمسيح إلى جانب آلهة الرومان، وقام بإعفاء الأساقفة والكنائس من الضرائب، وسمح بتوظيف المسيحيين في مؤسسات الدولة.

وبينما حسم قسطنطين المواجهات بين المسيحيين والإمبراطورية فوجئ بالخلاف العقائدي يحتدم بين المسيحيين، فالجزء الغربي الروماني يعتقد بألوهية المسيح والثالوث على مذهب المؤسس بولس، والجزء الشرقي الإغريقي يتبع المذهب الآري القائل بعدم ألوهية المسيح ووحدانية الإله. وحتى لا يهدد الخلاف وحدة الإمبراطورية دعا قسطنطين لأول مجمع مسيحي في مدينة نيقية بآسية الصغرى عام ٣٢٥م.

انحاز قسطنطين في هذا المجمع لعقيدة رومة وقام باعتمادها عقيدة رسمية، وأقر كذلك منع زواج القساوسة، وحدد تاريخ عيد القيامة وبنى قسطنطين كنيسة سانت بيتر في رومة، وتنسب إليه وثيقة تشير إلى أنه أول من ابتدع نظام البابوية باعتماد أسقف سانت بيتر في رومة أعلى سلطة دينية مركزية في الإمبراطورية[١]. وهكذا أرسى قسطنطين دعائم سلطة رومة الدينية وعناصر عقيدتها علماً أنه كان وثنياً ولم يعمد في المسيحية إلا قبيل وفاته بقليل عام ٣٣٧م[٢].

(١) Al- Fârûqi, I, and Sopher, D, Historical Atlas of the Religions of the World, Macmillan pub, New York, 1974, P. 22.

(٢) Ibid, P. 209

وتعدُّ هذه المرحلة (القرن الرابع الميلادي) مرحلة التكامل بين السلطة السياسية (الأباطرة) والسلطة الدينية (البابا والأساقفة). واكتسب الأباطرة نوعاً من القداسة؛ إذ أصبح تنصيب الإمبراطور من مهام البابا والكنيسة مما جعل الكنيسة تبدو وكأنها أصبحت السلطة العليا سياسياً ودينياً. بعد نصف قرن من وفاة قسطنطين انقسمت الإمبراطورية إلى دولتين، إغريقية في الشرق وعاصمتها القسطنطينية[1]، ورومانية لاتينية في الغرب وعاصمتها روما (٣٩٥م). وقد أدى هذا لانقسام الكنيسة أيضاً؛ فالخلاف السائد بين كنائس بلاد الإغريق وروما حول العقيدة منذ مجمع نيقية عام ٣٢٥م اكتسب بعداً سياسياً ولغوياً وثقافياً بعد انقسام الدولة. فالكنيسة في الشرق الإغريقي أرثوذكسية، استمدت استقرارها من استقرار حكم الإمبراطورية البيزنطية، وكانت خاضعة لسلطة الإمبراطور.

أما في الغرب (إيطالية) فقد ظلت الكنيسة في روما على نفوذها، وازداد نفوذ الأساقفة في الدولة على جميع مستوياتها؛ يقول فريمان:

> "The bishops combined the roles of spiritual leader, patron, estates manager, builder, overseen of law and order, city representative, and protector of the poor...

> **الترجمة**: «جمع الأساقفة بين دور القائد الروحي وأدوار أخرى مثل إدارة الأملاك والبناء، وحفظ النظام والقانون وتمثيل المدن، وحماية الفقراء.. إلخ».

ويرى فريمان أن هذه السلطات الواسعة قلبت ميزان القوى في كثير من الحالات بين الكنيسة والدولة، فبدتِ الكنيسة وكأنها صاحبة السلطة الكاملة وأصبح الأسقف وكأنه الإمبراطور، ومع بوادر ضعف

---

(١) هذه الدولة أصبحت فيما بعد الإمبراطورية البيزنطية (٣٩٥-٦..م)

الإمبراطورية الرومانية (إيطالية) تحت وطأة هجمات البرابرة والقبائل الأوربية القادمة من الشمال ظلت الكنيسة تمثل بسلطاتها هذه صمام الأمان لتماسك المجتمع والدولة. وفي عام ٤٧٠م الذي شهد انهيار الإمبراطورية أصبح بإمكان الكنيسة استحداث نظام بديل للسلطة، فقد قام البابا جريجوري الملقب بالعظيم (٥٩٠-٦٠٤م) بإعلان البابا سلطة عليا تخضع لها كنائس الغرب الإيطالي والشرق الإغريقي. وكان هذا بمنزلة إعلان لوقف الجدل حول أمور العقيدة المتعلقة بطبيعة المسيح والعذراء واعتماد قرارات مجمع نيقية وما تبعه من مجامع. وعدت كنيسة رومة كل ما يصدر عن الكنيسة الشرقية في القسطنطينية مخالفاً لقرارات مجمع نيقية. والتزمت الكنيسة نهج المبشر بولس فيما يخص أمر الفلسفة الإغريقية والمنطق، وحرمت استخدام العقل والاجتهاد الإنساني في أمور الدين. وقد ترجم رجال الدين تحذير المؤسس بولس من الفلسفة والحكمة الإغريقية إلى توجيهات صارمة، فجون كريسوستم (توفي ٤٠٧م) يقول:

> "Let us restrain our own reasoning and empty our mind of secular learning in order to provide a mind swept clear for the reception of divine word"(1).

> **الترجمة**: «فلنتحكم في قدراتنا العقلية، ولنفرغ عقولنا من المعرفة الدنيوية، حتى نهيئ عقولاً صافية لقبول الكلمات الإلهية».

ويقلل الأسقف باسل (توفي عام ٣٧٩م) من قيمة التدبر والبحث في خفايا وجوهر الأشياء قائلاً:

> "Let us, Christians, prefer the simplicity of our faith

---

(١) Freemam, Ch., op, cit, P. 322.

to the demonstrations of the human reason... For to spend much time on research about the essence of things would not serve the edification of the church"[1].

الترجمة: «فلنفضل - نحن المسيحيين - بساطة عقيدتنا على اجتهادات العقل الإنساني، فإضاعة الوقت في البحث عن كنه الأشياء وجوهرها لا يخدم الكنيسة روحياً».

وعليه انتهى الجدل العقائدي الذي ساد القرن الرابع الميلادي بوضع حد لاستخدام الفلسفة والمنطق والحوار الذي امتازت به الحضارة الإغريقية، وأصبحت كلمة الكنيسة، ممثلة في البابا، هي كلام الروح وليست من عند المتكلمين. والأصل في ذلك مستمد من رسالة بولس الأولى لكورنثوس إذ يقول: «وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع، بل ببرهان الروح والقوة لكي لا يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله.. بل نتكلم بحكمة الله.. التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر»[٢].

ويبدو أن الحرص على حماية العقيدة من فلسفة المتفلسفين ومنطق المجادلين جعل هذه الحماية تتسع لتشمل كل ضروب العلم من فلك ورياضيات وطب.. إلخ، وبقي العطاء المعرفي محصوراً لعدة قرون في التحليل والتخليص والتعليق على الوثائق الدينية.

خلاصة القول: أن المسيحية منذ إدماجها في الإمبراطورية الرومانية عام ٣٢٥م إلى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي أصبحت ذات نفوذ في الدولة في شتى المجالات. وظل التكامل بين الكنيسة في رومة والسلطة الحاكمة متصلاً لم ينته بزوال الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م، بل امتد هذا التكامل مع ملوك الممالك الجرمانية وأمراء الإقطاع.

(١) Ibid, P. 322.

(٢) العهد الجديد: رسالة كورنثوس الأولى - الإصحاح الثاني (٢-٨).

ويجمع معظم المؤرخين الأوربيين على أن الفترة من القرن الخامس إلى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي اتسمت بالركود الفكري والعلمي، بل سميت هذه المرحلة وعرفت تاريخياً بعصور الظلام (Dark Ages).

المرحلة الثانية: بدايات النهوض إلى الحضارة المعاصرة

■ **الأثر الإسلامي والحركة المدرسية (Scholasticism)**

في القرن السادس الميلادي وأوربة تدخل بدايات عصور الظلام، وتحديداً في عام ٥٧١م ولد المصطفى ﷺ، كان ميلاده إيذاناً ببزوغ فجر جديد حيث حسم أمر العقيدة بردها إلى أصولها التوحيدية منذ آدم إلى عيسى عليهم السلام. وباكتمال الوحي قرآناً وبكمال الدين بياناً وفتحاً مكياً (٦٣٠م/ ٨هـ) تحددت معالم مسيرة الإنسانية بعد طول تخبط وضلال.

بدأ المسلمون، بوصفهم خير أمة أخرجت للناس، الحركة بدينهم أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، ودعوة للإيمان بالله الواحد الأحد، وتأسيساً للمجتمع الفاضل. وانطلقت عملية تغيير داخلي في الأنفس والواقع. ووفقاً لمقتضيات فهم الدين وأمانة التبليغ والبناء كان لابد من إعداد الوسائل المطلوبة، فشهدت هذه المرحلة ثورة فكرية وثقافية غير مسبوقة، إذ نشأت علوم اللغة والتجويد ومدارس التفسير وعلوم القرآن والحديث ومذاهب الفقه، وذلك تحديداً للأصول والثوابت، واستنباطاً للأحكام وفق ضرورات الزمان والمكان دون تجاوز لهذه الأصول والثوابت.

وتحقيقاً لعالمية الدعوة وأمر التبليغ؛ وعلى نهج المصطفى ﷺ خرجت بعوث الدعاة إلى الأباطرة والأكاسرة والملوك في بلاد فارس

والروم وشمال إفريقية. وعندما استهدف هؤلاء الحكام الدعاة خوفاً على عروشهم كان لابد من رد العدوان بالمثل. فانطلقت حركة فتوح غير مسبوقة شرقاً وشمالاً وغرباً. وشهدت الفترة من عام (٦٣٢م/ ١١هـ) إلى عام (٧٥٠م/ ١٦٥هـ) سقوط جميع المناطق التي احتلتها الإمبراطورية الرومانية قبل تفككها والإمبراطورية البيزنطية. وتضم هذه المناطق بلاد الشام وآسية الصغرى وشمال غرب إفريقية والحدود الجنوبية لأوربة، كما أخضعت أقاليم خراسان وأفغانستان وما جاورهما، وامتد نفوذ المسلمين شرقاً إلى بلاد السند والبنجاب والصين.

لم يفرض المسلمون الإسلام على الشعوب، فالإسلام يحرم ذلك ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] إلا أن مضامين الدعوة الإسلامية المركوزة في الفطرة الإنسانية السليمة، إلى جانب عدل المسلمين وتسامحهم ودعوتهم للناس بالحسنى، أدى كل هذا إلى دخول الناس في الإسلام، وشهد المسيحيون على عدل المسلمين وسماحة الإسلام؛ فعندما فتح المسلمون مصر عام ٦٣٩م/ ١٨هـ يقول سلويان:

"The Egyptian monophysite church rejoiced over its liberation from Byzantium."(1)

الترجمة: «عندما فتح المسلمون مصر فرحت الكنيسة بتحريرها من بيزنطة».

وذلك بسبب الضغوط التي كانت تواجهها هذه الكنيسة بسبب اختلاف عقيدتها.

وينقل فريمان عن بطريرك النساطرة عام ٦٤٩م قوله:

---

(١) Sloyam. G. (and others) Historical Atlas of the Religions of the World, Macmillam pub, 1974, P. 215.

"These Arabs fight not against our Christian religion, nay, rather they defend our faith, they revere our priests and saints, and they make gifts to our churches and monasteries."(1)

الترجمة: «هؤلاء العرب لا يحاربون عقيدتنا المسيحية أبداً، بل على العكس إنهم يدافعون عن عقيدتنا، ويحترمون كهنتنا وقديسينا، ويقدمون الهدايا لكنائسنا وأديرتنا».

إنها شهادة على أن حروب المسلمين كانت ضد الأباطرة والملوك الذين بادروا المسلمين بالعداء، ولم تكن ضد الشعوب، بل إنها شهادة على عدل وسماحة المسلمين حتى عدَّهُم أهل الكنائس محررين لا غزاة، وهكذا دخلت كل هذه الشعوب في الإسلام عن قناعة ورضا.

وقد امتد تسامح المسلمين ليشمل إرث هذه الشعوب العلمي والفكري والثقافي، وتعاملوا معه دون خوف أو تردد، وهنا انطلقت المرحلة الثانية للثورة الثقافية العلمية؛ فبينما شهد عهد الخلافة الراشدة والأمويين انطلاقة العلوم الإسلامية واللغوية بصفتها أساساً ضرورياً للنهضة العلمية، شهد العصر العباسي بزوغ فجر الثورة العلمية الشاملة.

كان الدافع لذلك اكتشاف الإرث المعرفي الإغريقي حينما أنشأ الخليفة العباسي المأمون - خلافته (١٩٨هـ - ٢١٣هـ/ ٨١٣م - ٨٤٧م) - بيت الحكمة، ونشطت حركة ترجمة الإرث الإغريقي من فلسفة ومنطق ورياضيات وطب وفلك. ولم يكن تعامل المسلمين مع هذه العلوم استيعاباً، بل انتقدوا وأضافوا وطوروا وأفادوا من كل ذلك حتى في مجال العقيدة. واستطاع المسلمون تأسيس حضارة علمية غير مسبوقة، وجعلوا من عواصمهم في مصر والمغرب وبلاد الأندلس إلى جانب بغداد مركزاً للإشعاع الحضاري.

---

(١) Freeman, Chi, op, cit, P. 330.

ويعود الفضل للمسلمين في إحياء التراث الإغريقي بعد أن هجره أهل السلطة السياسية والروحية في رومة بحسبانه زندقة وخروجاً على العقيدة ونصوص العهد القديم، فالمسلمون وهم الأحرص على عقيدتهم لم يهابوا هذه العلوم المنبوذة من قبل أهلها وذلك لسببين:

الأول: هو إعلاء الإسلام للعقل الإنساني وجعله الفيصل في كل أمر، بما في ذلك الإيمان بالله. ويعرف إعمال العقل عند المسلمين بالاجتهاد. والمسلم يدرك أن اجتهاده العقلي مركوز في عقيدة التوحيد وقيم الإسلام، وعليه فمقياسه هو مدى قرب ما يتعامل معه من إرث إنساني إلى أصول الدين والفطرة السليمة، ومدى بعده عنهما.

أما السبب الثاني: فهو أن الإسلام بعقلانيته وعالميته، وبفصله التام بين قداسة الخالق وعبودية المخلوق، وبجعله الكون مسخراً للإنسان، قد أسقط تماماً قيود الخرافة والغموض والدجل والسحر. وبقدر ما يتيحه الخالق للإنسان من علم يستطيع أن يسبر غور الأشياء ويصل إلى حقيقتها فيفيد منها إيمانياً قبل الفائدة المادية. ومن هنا كانت الجرأة والجسارة التي امتاز بها المسلمون الأوائل، وخاض بعضهم فيها حتى في أمور العقيدة، فمنهم من ينال الأجرين؛ أجر الاجتهاد والإصابة ومنهم من تم تصويبه وتقويمه في حال الخطأ مع احتفاظه بأمر الاجتهاد.

بهذه المفاهيم الإسلامية الراقية أعطى الإسلام للفلسفة والعلوم الطبيعية مشروعيتها، فالعقل والمشاهدة والتجربة العلمية لا تتناقض مع الدين، وبذات المفاهيم اقتحم المسلمون علوم الإغريق وصبغوها بصبغة الإسلام وقدموها لأهلها في قالب جديد، يقول فريمان:

"The Arabs sustained the Greek tradition by valuing
the intellectual achievement of the past without being

overowed by them, and by using empirical evidence and reason to carry the understanding further."(1)

الترجمة: «لقد حافظ العرب على التراث الإغريقي بتثمينهم لإنجازات الماضي الفكرية.. وباستخدامهم للتجربة والعقل للتوسع في الفهم والاستيعاب. كان هذا ممكناً دون تجاوز أو تهديد للعقيدة الإسلامية. لهذه الأسباب تمت المحافظة على الإرث الكلاسيكي الإغريقي وبمرور الوقت تسرب مرة أخرى إلى أوربة».

التسرب المشار إليه في النص أعلاه استمر لعدة قرون مع استمرار الفتح والتواصل الإسلامي مع أوربة، وبلغ ذروته بعد الحروب الصليبية، فانقسام الدولة الإسلامية (فاطميين وسلاجقة وأتابك.. إلخ) شجع الكنيسة في رومة على محاولة استعادة البلدان التي حررها المسلمون بما في ذلك القدس. ففي عام ١٠٩٥م دعا البابا إيربان الثاني المسيحيين للانخراط في الحروب الصليبية على المسلمين، وتوالت الحروب لأكثر من قرن لتكون آخر حملة منها عام ١٢٢١ مما أدى إلى إضعافِ سلطة المسلمين السياسية.

وبما أن الغزاة لم يكن لديهم من أسباب الرقي الفكري والثقافي ليسهموا في تغيير ما جعله الإسلام واقعاً، فقد استمر دخول الناس في الإسلام رغم انحسار نفوذ المسلمين السياسي، إلا أن الغزاة أفادوا من الحضارة الإسلامية مما أحدث تغييراً جذرياً في أوربة الغربية، يقول د. الفاروقي رحمه الله:

"The Crusaders returned to Europe loaded not only with the material products of the Muslim world... but

(١) Freeman. Chi. Op. cit. P. 331.

also with the ideas that later helped to bring about the Renaissance."(1)

الترجمة: «لقد عاد الصليبيون إلى أوربة محملين ليس فقط بإنتاج المسلمين المادي.. ولكن أيضاً بالأفكار التي ساعدت لاحقاً في إحداث النهضة».

النهضة المشار إليها (Renaissance) بدأت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي بما عرف بالحركة المدرسية (Scholasticism). لم يكن في أوربة المظلمة علماء ليستفيدوا من إبداع المسلمين المنهوب سوى علماء اللاهوت. بدأ هؤلاء العلماء وتحت تأثير عطاء المسلمين الفكري يدركون أن استخدام العقل والمنطق في معرفة الكون لا تمس قداسة الرب والكنيسة. ومن هؤلاء الراهب هيجو وبيتر لومبارد من فرنسة، وسانت انثلم الإيطالي. وشكلت حلقات هؤلاء الرهبان الدراسية نواة لإنشاء أول جامعات في أوربة مثل جامعة باريس ١١٧٠م وجامعة أكسفورد بإنجلترة وجامعة نابولي بإيطالية في ذات الفترة. أما أشهر المدرسيين فهو الإيطالي توماس الأقويني (١٢٢٥-١٢٧٤م) الذي درس مؤلفات الفلاسفة العرب في جامعة نابولي بإيطالية. ويعد الأقويني واضع أساس إخضاع العقيدة المسيحية للعقل والمنطق وذلك بإصدار عديد من الموسوعات التي تبنت آراء أرسطو. وتخرج على يديه كثيرون.

ويعترف العلماء الغربيون بفضل الفكر والحضارة الإسلامية في إيقاظ العقل الأوربي على مستوى العقيدة أولاً ومن ثم على مستوى العلوم الإنسانية والطبيعية. يقول سلويان حول أثر الإسلام في رجال الحركة المدرسية من الرهبان:

---

(١) Al-Faruqi, I, and others, Historical Atlas of the Religions of the World, op, cit, P. 273.

"This twelfth century activity had been spurred by the example of the rational spirit in Islam, which resulted in the availability of Aristotle's (logic) and physics through the commentaries of scholars like Ibn Sina (d.1037) and Ibn Rushd (d 1198).[1]

الترجمة: «إن حركة القرن الثاني عشر انبثقت باتباع روح الإسلام العقلانية التي نتج عنها إتاحة فكر أرسطو في المنطق والطبيعة عبر أعمال العلماء المسلمين أمثال ابن سينا (ت١٠٣٧م) وابن رشد (ت١١٩٨م)».

ويرى فريمان أيضاً أن الحركة المدرسية نتجت أيضاً بسبب النهضة العلمية الإسلامية إذ يقول:

"It was not until the twelfth century that the emerging investigative spirit in the west (Scholasticism), began to rediscover the classical tradition as it had been preserved in the writings of the Islamic East.. Aristotle was not to be feared and, as the philosophers of Islam had already argued, reason and faith would eventually reach a harmony in the knowledge of God."[2]

الترجمة: «لم تظهر الروح الاستكشافية في الغرب إلا في بدايةئ القرن الثاني عشر الميلادي، حيث بدأت الحركة المدرسية استكشاف الإرث التقليدي الكلاسيكي الذي تم حفظه في كتابات الشرق المسلم.. لم يعد أرسطو مخيفاً فقد أكد الفلاسفة المسلمون من قبل أن العقل والإيمان حتماً سينسجمان بمعرفة الله».

---

(١) Solyan, G, Ibid. P. 219.

(٢) Freeman, Ch. Op. cit. P. 332-333.

هذه الروح الاستكشافية الإسلامية دفعت توماس الأقويني إلى عدم الخوف من أرسطو فقام بتأليف موسوعات شهيرة رغم رفض الكنيسة لها، وحول مؤلفاته عن أرسطو يقول ريتشارد تارناس:

"He is little read today, but it is arguable that Thomas Aquinas revived the Aristotelian approach to Knowing things so successfully that he unwittingly laid the foundation of the scientific that he unwittingly laid the foundation of the scientific revolution that was to transform western thought."(1)

الترجمة: لا يقرأ له كثيرون، ولكن يمكن القول: إن توماس الأقويني نجح في إحياء منهجية أرسطو في معرفة الأشياء نجاحاً كبيراً يجعله بلا شك أول من أرسى دعائم الثورة العلمية التي غيرت الفكر الغربي.

■ **حركة الإصلاح الديني Reformation أو المعارضين Protestants:**

تعد هذه الحركة جزءاً من عصر النهضة Reformation. لم تغير المرحلة الممتدة من بداية القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر الميلادي من الأوضاع في أوربة، فالنهضة انحصرت في التأليف والبحث والفنون دون إحداث تغيير اجتماعي. وظل الانفصال بين الكنيسة وبين الحركة الفكرية قائماً، بل كان العطاء الأكبر في مجال العلم محصوراً في المجموعات المسيحية التي اتسم بها عصر النهضة. ومن هذه المجموعات جماعة القديس دومنيك الإسباني (ت١٢٢١م) وكان توماس الأقويني من أعضائها، وجماعة القديس فرانسيس الإيطالي (ت١٢٢٦م) وامتد أثر هذه المجموعات لقرون كانت حركة الإصلاح الديني رد فعل لسلوك واحد منها هي مجموعة الدومينيكان.

---

(١) Quoted in Freeman. CH, op. cit, P. 333.

ففي العام ١٥١٧م قامت هذه المجموعة في ألمانية بحملة لجمع التبرعات لصالح كنيسة سانت بيتر مقابل منح المساهمين صكوكاً للغفران. وفي زمان انتشر فيه استخدام العقل في أمور الدين استفز هذا المسلك عالم اللاهوت الألماني في جامعة ويتنبرج مارتن لوثر (١٤٨٢-١٥٤٠م)، قدم لوثر عام ١٥٢٠م مرافعة حوت كل البراهين على بطلان هذا الادعاء، إلا أن الكنيسة تبرأت منه.

قرر لوثر تطوير أسس جديدة للعقيدة فوضع ثلاث رسائل سماها رسائل الإصلاح (Reformation Tracts) وتمثل رسائله خروجاً عن الوضع السائد؛ إذ عَدَّ المخلص الحقيقي للمسيحي هو إيمانه وليس وساطة الكهنة، ودعا للسماح المسيحي بتناول الوثائق الدينية، بما فيها العهد القديم والإنجيل، بالدراسة وإخضاع ما فيها للعقل.

كان الوضع في أوربة مهيأً لهذا الخروج، وذلك بسبب موقف كثير من الكنائس من الكنيسة الأم بسبب مركزيتها القابضة وبذخها المناقض لروح الزهد المسيحي، وعليه وجدت أفكار لوثر قبولاً لدى بعض رجال الدين خارج ألمانية، ومن هؤلاء زوينقلي (١٤٨٤-١٥٣١م) الذي أسس عام ١٥١٨م حركة الإصلاح في سويسرة، ومنهم كالفين (١٥٠٩م - ١٥٦٤م) الذي ألف دليلاً في اللاهوت أسماه (أسس الدين المسيحي) وهو أول من أنشأ كنيسة خارجة عن سلطة رومة في فرنسة.

وانحاز بعض الأباطرة والملوك إلى البروتستانت لأسباب مصلحية، فملك إنجلترة هنري الثامن (١٤٩١-١٥٤٧م) الذي حاربهم طويلاً كان يريد تطليق زوجته التي لم يرزق منها وريثاً للعرش، وبسبب رفض البابا لذلك انضم الملك للبروتستانت وحطم أديرة الرهبان الكاثوليك وطردهم من إنكلترة. شهدت أوربة حروباً طاحنةً بين البروتستانت والكاثوليك امتدت من القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي،

وفي عام ١٨٨٤م تم الاعتراف بالبروتستانت كنيسةً مستقلةً تماماً عن كنيسة روما الكاثوليكية.

■ النهضة الصناعية والفكرية

تعدُّ مرحلة ما بعد ظهور البروتستانت (١٤٩٣م - ١٧٥٠م) مرحلة تغيير جذري في أوربة في شتى المجالات. واتخذ هذا التغيير مسارين: أحدهما اقتصادي والآخر فكري فلسفي.

وبالرغم من ملازمة هذين المسارين بعضهما لبعض منذ بداية المرحلة إلا أن المسار الاقتصادي كان له أثره الفاعل في بلورة المسار الثاني. ونظراً لأهمية المسار الثاني (الفكري الفلسفي) لدراسة اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة فسيتم الفصل بينهما فنتناول أولاً المسار الاقتصادي.

١- **الثورة الصناعية**: تعدّ الثورة الصناعية في أوربة معلماً بارزاً من معالم تاريخ الإنسانية، وذلك لحجم التطورات التي أحدثتها داخل أوربة وخارجها. لم تكن هذه الثورة وليدة زمانها ولكنها نتاج عوامل امتدت لأكثر من قرنين أي من عام ١٤٩٣-١٧٥٠م. من هذه العوامل الرحلات الاستكشافية البحرية التي قامت بها إسبانية غرباً، حيث اكتشف كولومبس جزر الكاريبي وأمريكة (الموجودة أصلاً) عام ١٤٩٣م، والبرتغال حول إفريقية إلى الهند شرقاً.

دفعت هذه المبادرات بقية دول أوربة (إنجلترة - فرنسة - النمسة وألمانية) للمشاركة في هذه الرحلات في بداية القرن السادس عشر الميلادي. وحينها بدأت حملات نهب منهجي للموارد الطبيعية والبشرية (الرق) لتفجير نهضة صناعية في إنجلترة أولاً لتنداح إلى باقي القارة لاحقاً. وكان الناتج بزوغ طبقة رأسمالية جديدة تقوم على الصناعة، وتؤمن بممكنات العلم وتستعين برجاله وتنفق عليهم.. وأقيمت في ظل الرأسمالية

المعامل والمصانع والسكك الحديدية وبنيت السفن الكبيرة.. وأصبحت هذه الطبقة ذات أثر كبير في توجيه الحياة السياسية[١].

ومن العوامل أيضاً حركة الإصلاح الديني التي نتج عنها ظهور البروتستانتية، فالبروتستانتية بوصفها امتداداً للحركة المدرسية المتأثرة بالفكر والمنهجية الإسلامية، تعلي من شأن الفرد وقدراته العقلية والفردية، إلا أن الإسلام يحصن هذه الحريات والقدرات بأصول ربانية لا ينبغي تجاوزها، كما تم توضيحه.

ويرى كثير من علماء الاجتماع الغربيين أن مبادئ البروتستانت كان لها دور كبير في ظهور الرأسمالية ودفع النهضة العلمية والصناعية في تلك المرحلة، فدوركهايم مثلاً يرى أن إعطاء الفرد حرية غير محدودة في مجال الفكر واتخاذ القرار يعود إلى عدم وجود طقوس مشتركةٍ عند البروتستانت، وهذا في نظره تكريس للفردانية التي أدت إلى ظهور الرأسمالية وما نتج عنها[٢].

أما ماكس ويبر فقد اشتهر بنظريته القائلة بالترابط الوثيق بين مبادئ البروتستانت والرأسمالية؛ فالبروتستانتية بعقلانيتها ورفضها لكاثوليكية القرون الوسطى جردت الوجود من التدخلات الغيبية، وجعلته متاحاً للاختيار العقلاني بواسطة العلماء، ومن ثم للمهندس والمحترف للتحكم فيه وتشكيله بعقلانية، وأصدر ويبر مؤلفاً خاصاً بهذه النظرية بعنوان:

The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism - Allen and Unwind London 1948.

---

(١) عبد الغني عبود: العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة، الكتاب الأول، دار الفكر العربي ١٩٨٠، ص٨٢.

(٢) See Lukes. S, Durkheim, His Life and Work, Penguin Books England, 1973, P. 208

هذه هي بعض العوامل التي أدت إلى بلوغ الثورة الصناعية مداها بحلول عام ١٧٥٠م في أوربة، وبلورة أبرز سماتها المتمثلة في أوجه الحداثة Modernism التي شكلت الوجه الجديد لأوربة. كما جعلت من أوربة قوة إمبريالية أصبح لكل دولة منها نصيب في آسية وإفريقية وأمريكة شمالاً وجنوباً تحت عنوان خادع (الاستعمار) وهو في حقيقته (استخرابٌ) جعل الاستقلال فيما بعد بلا طعم ولا لون.

هكذا وبفضل الثورة الصناعية بسطت أوربة سلطاتها على شعوب العالم المستضعف، فعلت ذلك لا بفضل قيمها وعقيدتها وأفكارها، ولكن بفضل آلياتها الحربية المصحوبة بالتدريب والتنظيم وسبل المواصلات نهباً لثروات الشعوب واسترقاقاً لهم. والعالم اليوم يعيش التحدي ذاته من الإمبريالية ذاتها المدعومة بالمستحدث من أسلحة الدمار الشامل، وتقانة الحركة والاتصال، وما يحدث في أفغانستان وفلسطين والعراق خير شاهد.

٢- النهضة الفكرية أو التنوير Enlightenment: أحدثت الثورة الصناعية في أوربة انقلاباً شاملاً في مراكز القوى. إذ استبدلت شعوبها بسلطة الإقطاع والكنيسة سلطة الحكومات المستحدثة وملوك الصناعات (الإقطاعيين الجدد)، وخرج الإنسان الأوربي من حياة الفلاحة في الإقطاعية إلى المصانع والمعامل، وأصبح العمل بالأجر بعيداً عن الأسرة بديلاً عن العمل في الإقطاعية مقابل السكن والإعاشة، وحلت الصناعات الكبيرة محل الصناعات المنزلية الصغيرة.

وبالإضافة لصدمة التحول المعيشي تعرض الإنسان الأوربي لصدمة الصراع الديني الدموي الذي نتج عنه ظهور البروتستانت. إذ خرج الإنسان من ظل الكاثوليكية القابضة في مجال الدين والعلم إلى رحاب البروتستانتية الداعية لحرية التدين بلا كهنوت واستخدام العقل والمنطق واكتساب العلم.

وكان من الطبيعي في ظل الانقلابين (الصناعي والديني) حدوث تجاوزات وردود فعل قد تكون عنيفة بفعل الصدمة والانتقال من حال إلى حال.

ففي مجال الصناعة تمثل التجاوز في اختراع أسلحة الدمار والقهر، واحتكار المال، وحصر الرفاه المادي فيمن يملكه، واستغلال الإنسان المستضعف في التصنيع مقابل أجر زهيد، هذا إلى جانب تلويث البيئة دون اكتراث بالنفايات السامة، ومازالت أوربة تعاني من هذا الوضع إلى يومنا هذا.

أما في مجال الفكر والفلسفة فالتجاوزات ليست بأقل دماراً وتلويثاً منها في مجال الصناعة، فقد شهدت الفترة من منتصف القرن السابع عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر حركة فكرية فلسفية قلقة تمخضت عن فلسفات «كانت هي الأساس الذي قامت عليه الأيديولوجيات المعاصرة، فقد ظهرت الفلسفة المثالية، والفلسفة الواقعية، والطبيعية، والتجريبية، والبراجماتية، والمادية الجدلية، كل منها تقدم لنا نظرية للمعرفة، ونظرية للكون، ونظرية للأخلاق، ونظرية للطبيعة الإنسانية، يترتب عليها جميعاً في الميدان التربوي نظرية معينة للعلم، ونظرية للتربية الخلقية.. إلخ»[1].

وانعكس الاضطراب والقلق الفكري على شكل المسارات التي اتخذتها هذه الحركة الفكرية، فقد اتخذت مسارين نوجزهما بما يلي:

المسار الأول: أبقى هذا المسار على الدين مع الفصل التام بينه وبين الدولة، أي أن يكون التدين أمراً شخصياً. أما الحياة العامة فهي دنيوية بحتة يحيا فيها الإنسان حراً بعقله، ويكون هدفه تحقيق ذاته كيفما أراد بلا قيود،

(١) عبد الغني عبود، العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٠م، ص٣٧.

ويسمى هذا المسار (Secularism) أي دنيوي أو عَالماني - من العَالم وليس عِلماني من العِلم كما يترجم غالباً - وقد يسمى بالليبرالية (Liberalism) وأهداف العالمانية كما أشار البروفيسور الفاروقي تتلخص في:

"Removing the public affairs of society from every possible determination by religion. Its main argument, as the history of secularism in the west has presented it, is that religion is a vested interest of one section of society, the church over all others. Since the internal structure and the decision-making process of the church are authoritarian, and since all society is not therein represented, determination of public affairs by the church is tantamount to tyranny, a form of exploitation and suppression of the nation by one group."(1)

الترجمة: «تسعى العلمانية ألا يتدخل الدين في الشأن العام للمجتمع، وتبريرها لذلك كما عكسه تاريخها في الغرب، هو أن الدين يمثل مصلحة فئة واحدة من فئات المجتمع وهي الكنيسة، وبما أن التنظيم الداخلي وآلية اتخاذ القرار في الكنيسة سلطوية، وبما أن باقي فئات المجتمع لا تمثل فيها، فإن أي تدخل للكنيسة في الشأن العام يعد طغياناً واستغلالاً وقهراً للمجتمع بوساطة مجموعة صغيرة».

كان هذا موقف العالمانية تاريخياً عند ظهورها، أي إن تبريرها ارتبط بشكل الكنيسة وسلطتها، أما اليوم فإن العالمانية ترفض الدين نفسه، ولا تقبل باعتماد قيم الدين موجهاً للحياة العامة، مبررة ذلك بأن الدين مصدر لا يوثق به، وغير عقلاني، وخرافي(٢).

(١) Al-Faruqi, I, Tawhid Its Implications for Thought and Life, Kuala Lumpur, 1984, 104.

(٢) Al-Faruqi, I, Tawhid Its Implications for Thought and life, ibid, P. 125.

وتحقيقاً لهذه الأهداف انشغل فلاسفة هذا المسار بالتنظير لحرية الإنسان وحقوقه، ومن هؤلاء الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) وتقوم فلسفته على أساس الحرية الفردية في الفكر والعلم والدين. ومضى على طريقه الفرنسيون أمثال فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٧٥م) وروسو (١٧١٢-١٧٧٨م).

وبما أن الدين لم يعد مصدر القيم والمثل الموجهة لحياة الإنسان فلابد من إيجاد وسائل لتحرير الإنسان وحفظ حقوقه. لم يجد فلاسفة التنوير سوى استحداث نظام سياسي وتعليمي بديل:

"The new political order that the enlightenment sought to bring about was to a great liberating agency, and education was to provide training for the liberated citizens."(1)

الترجمة: «إن النظام السياسي الذي عمل عصر التنوير على استحداثه أريد له أن يكون أداة تحرير عظيمة، بينما يوفر النظام التعليمي التدريب للمواطنين المحررين».

النظام السياسي الذي استحدث هو الديمقراطية التي تقوم على الانتخاب والتمثيل والفصل بين السلطات. أما التعليم فأراد له فلاسفة التنوير أن يكون علماً دنيوياً، وأن يكون موضوعه الإنسان والطبيعة، وأن يكون هدف التعليم كما قال دوركهايم تخريج أفراد:

"Rationalists of a new type, who know that things whether human or physical are of irreducible complexity and who know how to confront that complexity directly and without faltering."(2)

---

(١) Berger, B, and the War Over the Family, Penguin Book, England, 1984, p16.

(٢) Lukes, s, Emile Durkheim, op, cit, p391.

الترجمة: «تخريج أفراد عقلاء من نوع جديد، يدركون أن الأشياء، إنسانية كانت أم طبيعية، تتمتع بتعقيدات لا محدودة، ويدركون كيف يواجهون هذه التعقيدات مباشرة وبلا تردد».

فالإنسان هنا شيء من ضمن الأشياء، أي لا خصوصية له، وهكذا جرد عصر التنوير العلم من الدين والغيبيات، وأصبح إنسانوياً دنيوياً، ومن ثم عرف عصر التنوير بعصر العالمانية .(Secularism).

خلاصة القول: أن العالمانية (Secularism) اعتمدت العقلانية (Rationalism) عقيدة، والفردانية (Individualism) صنماً إلهاً، والديمقراطية (Democracy) طقوساً، وسيتم لاحقاً توضيح آثار تجريد الفرد من كل عناصر الارتباط الديني والأسري والاجتماعي التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من تكوينه الوجداني وقدراته العقلية. ويكفي أن نشير هنا إلى أن القيم الدنيوية المنبتة عن الدين والتي حققت ثورة علمية وصناعية وتوسعية باسم الاستعمار لم تنجح في تحقيق الحرية والعدالة لإنسان أوربة، بل أصبح المجتمع قسمة بين رأسمالية محتكرة وغالبية تعمل مقابل أجر زهيد.

المسار الثاني: بينما أبقى مسار الدنيوية (Secularism) للدين مساحة في حياة الإنسان الخاصة دون إقحامه في الحياة العامة، ظهر مسار آخر نموذجاً للغلو في تجاوز حدود حرية الفكر والنظر في قضايا الدين التي أطلقها البروتستانت، واتسم هذا المسار بجنوح موقفه من المسيحية بل من الدين مطلقاً، فهو لا يؤمن بإله ومن ثم لا يعترف بمؤسسات الدين القائمة. ومن رواد هذا الاتجاه من الفلاسفة هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م) وكارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) ونيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) وعالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم (١٨٥٨ -١٩١٦م).

وقد استند هؤلاء الفلاسفة في إنكارهم للدين إلى الدراسات التي قام بها مجموعة من العلماء الألمان حول التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من كتاب العهد القديم). فبعد حركة الإصلاح الديني وإقرار مبدأ إتاحة الوثائق الدينية للجميع، قام العلماء الألمان ولهاوزن وثون قراف وكوهنن في منتصف القرن الثامن عشر بدراسة التوراة، وخرجوا بحقائق شكلت صدمة أخرى للمجتمع الأوربي بعد انشقاق الكنيسة، يقول البروفسور الفاروقي رحمه الله: «فهؤلاء دفعهم حبهم للاستطلاع لدراسة القرآن الكريم بحثاً وراء ما يلقي الضوء على العهد القديم الذي كانوا يدرسونه بقصد تفهمه علمياً ونقدياً وتحليلياً. وفي دراستهم للقرآن الكريم تشبعوا بالمبدأ القرآني القائل بأن بني إسرائيل تلاعبوا في كتابهم، وأنهم حرفوه.. فزعزع هذا المبدأ ما نشؤوا عليه من إيمان بأن التوراة هي من صنع الله. وأخذوا عندئذ، بدلاً من الحيرة في تفسير النزعات المختلفة التي تنم عنها نصوص التوراة، يتبينون مختلف الأيدي وراء هذه النصوص ويبحثون عن أصولها وعن الأحوال التاريخية التي أدخلت هذه النصوص في التوراة»[١].

استطاع هؤلاء العلماء الثلاثة، مستعينين بعلم الآثار الوليد آنذاك، أن يؤكدوا أن التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) ليست كتاباً واحداً منزلاً من الله تعالى على موسى عليه السلام. وإنما تم تأليفه على مدى أربع مراحل، وهي القرن العاشر والثامن والسابع والخامس قبل الميلاد. كما أكدوا أن مواد كل مرحلة تختلط فيها أحداث سابقة ولاحقة لا علاقة لها بمرحلة سيدنا موسى عليه السلام[٢]. ومنذ هذا الاكتشاف نشأ علم نقد

---

(١) إسماعيل راجي الفاروقي، أصول الصهيونية في الدين اليهودي، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٤م، ص٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٩.

الكتاب المقدس (Biblical Criticism) وتم تطبيقه على العهد الجديد وغيره من الوثائق الدينية.

هذا هو الاكتشاف الذي استند إليه المسار الثاني من عصر التنوير، فكان هيجل أول من نسبت إليه مقولة (مات الإله God is dead) والعياذ بالله. كما نسبت أيضاً إلى نيتشه الذي اتهم المسيحية بأنها سبب تخلف أوربة لادعائها بوجود إله، ودعوتها للزهد والرهبانية، وإيواء الضعفاء والأرقاء، وباتهامها للفلسفة الإغريقية بالزندقة، ويرى نيتشه أن الأخلاق والقيم قيود لابد من كسرها، لأنها تدعو للضعف وليس للقوة. يقول نيتشه:

> "Humanity was driven by a will to power. Christianity appeared to preach the very opposite, with its ideas of humility, love, and compassion Christianity was a religion born out of slave mentality. This was the will to power of slaves rather than the more recognizable will to power of the powerful."(1)

> **الترجمة**: «إن محرك الإنسانية الطبيعي هو غريزة القوة، والمسيحية بقيمها الداعية للمحبة والرحمة والتواضع تناقض ذلك تماماً. فالمسيحية عقيدة ولدت في العهد الروماني في حضن الاسترقاق. ولم تتخلص أبداً من عقليتها الاسترقاقية. وعليه فعقليتها فيما يخص أمر القوة هي عقلية الأرقاء (أي الضعف) بدلاً من عقلية القوة المعروفة، أي غريزة قوة الأقوياء».

ولا يخفي نيتشه إعجابه بقوة الإغريق والرومان وإخضاعهم للشعوب، وحريتهم التي لا تقيدها قيم ولا أخلاق، يسترقون الضعفاء، ويتسلون

(١) Strathern, P., Nietzsche, Virgin Books ltd, 2001, P. 30

بمنظر الأسود وهي تفترسهم في مسارح اللهو. فالمثل الأعلى لنيتشه هو الإغريقي والروماني المتحرر من كل قيد ديني أو غيره، ويقول:

"Each individual must take absolute responsibility for his own action in a godless world. He must make his own values in unfettered freedom."(1)

الترجمة: «على كل فرد أن يتحمل المسؤولية المطلقة عن أعماله في عالم بلا إله، يجب أن يصنع قيمه الخاصة به في حرية غير مقيدة».

ويرى نيتشه أن أوربة لن تستعيد حضارتها التي قضت عليها المسيحية إلا بالقوة، وقد عبر عن هذه الفلسفة حينما كان متطوعاً في الجيش الألماني (بروسية) للحرب ضد فرنسة عام ١٨٧٠م فأعجبه مشهد استعراض الجيش فقال:

"I felt for the first time that the strongest and highest will to life is not to be found in the struggle for existence but in a will to power. A will to war and domination."(2)

الترجمة: «شعرت للمرة الأولى أن أقوى وأسمى قوة لكي يحيا الإنسان لا توجد في الصراع من أجل البقاء، ولكن في غريزة القوة المطلقة، ونزعة الحرب المهيمنة».

هذا الإلغاء التام للإله والدين وتأليه غريزة القوة والتسلط تركت فراغاً كبيراً وأسئلة لا تستطيع القوة وحدها الإجابة عنها، فالإنسان بطبعه وفطرته سيسأل من أين أتيت؟ وما الغاية من وجودي؟ وكان يجد الإجابات في عقيدته التي دعا فلاسفة اللادين لإلغائها. وحتى لا يقعوا في الحرج خرج

---

(١) Ibid, p 32.

(٢) Strathern, P., Nietzsche, Virgin Books ltd, 2001, P. 12

من بينهم من جاء بنظرية تعين السائلين، جاء دارون (ت١٨٨٢م) بنظرية الخلق الجديد (النشوء والارتقاء أو التطور) Evolution Theory فالإنسان أصله قرد! (ومن أين جاء القرد؟)، وجاءت من بعدها المادية الجدلية لتجعل الإنسان وليد المصادفة، أو ربما تفاعلات المادة في حركتها التي لا تعرف السكون!!.

حاول بعض هؤلاء الفلاسفة تأسيس منهج حياة بديل للرأسمالية، فقد عاش هؤلاء تجربة الرأسمالية والثورة الصناعية، وأحسوا بمعاناة الجماهير بسبب ظلم الرأسماليين (البرجوازيين) للطبقة العاملة (البروليتاريا)، وبدلاً من تحليل سلبيات ثالوث العقلانية والفردانية والديمقراطية الذي قامت عليه الرأسمالية لمعرفة أسباب فشله في خلق المجتمع المثالي، اتخذ هؤلاء من ثالوث اللادين، والقوة، والاشتراكية أسساً لبناء نظام بديل.

وأول من وضع أسس هذا النظام هيجل الذي دعا لوضع القوة في الدولة على أن يكون هدفها تحقيق الاشتراكية التي تضمن العدالة والمساواة للجميع، يقول هيجل:

> "The state should pursue a truly social end, peculiar to each society which did not concern individuals and of which they were the mere instrument; the individual must work the glory, grandeur, and wealth of society, and in return he would receive some of the rays of that glory, which would be sufficient recompense for his paints."(1)

الترجمة: «على الدولة أن تسعى إلى تحقيق اشتراكية حقيقية وفق خصائص كل مجتمع، اشتراكية لا تستهدف

---

(١) Quoted in: Lukes, S, Emile Durkheim. Op. cit, p270.

الأفراد وإنما يكون الأفراد مجرد آليات لتحقيقها، على الفرد أن يعمل لشهرة وعظمة وثراء المجتمع، وبالمقابل سينال بعضاً من بريق هذه الشهرة، وسيكون كافياً كثمن لمعاناته».

وقام كارل ماركس وإنجلز ولينين بصياغة أفكار هيجل ونيتشه وداروِن فيما عرف بالمادية الجدلية وهي أساس الفكر الشيوعي، وسنوضح لاحقاً أثر هذه النظرية والفكر الشيوعي الذي قام عليها في تغيير مفهوم الأسرة في الغرب.

وبينما وضعت النظرية الماركسية لأوربة الغربية إلا أن تطبيقها العملي تمَّ في دولة مختلفة تماماً وهي روسية، فروسية ذات حضارة مزيج من البيزنطية وحكم التتار، وتدين بالأرثوذكسية كما لم تصل إليها مؤثرات عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني وانشقاق الكنيسة أو مؤثرات عصر التنوير. وظلت علاقاتها مع أوربة طبيعية إلى أن جاءت الثورة الفرنسية عام ١٩١٧م. حيث قام لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤م) بإعادة صياغتها وفق الماركسية - اللينينية، وأصبحت روسية دولة متطورة ذات قوة باطشة في وجه أوربة الغربية. ولم يكن نصيب الإنسان الروسي من هذا الكدح إلا بريق عظمة دولته كما أراد هيجل. فالإنسان في ظل الشيوعية لم يكن بأفضل حالاً من نظيره في ظل الرأسمالية، رغم القوة الباطشة والتقدم المادي الذي حققه المساران بكدحه وشقائه.

هذه هي الأوضاع التي استقرت عليها الحضارة الغربية شكلاً ومضموناً بحلول القرن العشرين، ففي الغرب أوربة الغربية الرأسمالية وأمريكة التي أصبحت امتداداً لها ومركزاً لقوتها العسكرية. وفي الشرق الاتحاد السوفييتي الشيوعي الاشتراكي الذي ظل خصماً عنيداً للغرب إلى العقد الأخير من القرن العشرين. ففي عام ١٩٨٩م تم تحطيم تمثال لينين رمزاً لنهاية الشيوعية، وبداية التحول الديمقراطي، والتصالح مع الغرب

وأمريكة خاصة، ومازالت تطورات الأحداث لا ترتقي لمستوى ما بدا في الظاهر من تغيير(١).

إن الحضارة الغربية الماثلة بين أيدينا اليوم (بما في ذلك روسية) وعلى الرغم من مظاهر قوتها العسكرية والمادية والعلمية، وبالرغم من احتكارها للتطور التقاني خاصة الفضاء والاتصالات، وبالرغم من قهرها للدول النامية (إلا حلفاءها) فهي تعاني من مشاكل قد تؤدي لانهيارها، بل هي كما وصفها هنتنغتون حضارة على وشك الانهيار سياسياً واقتصادياً وعسكرياً. فإلى جانب ما تواجهه خارجياً من رفض لثقافتها وتمرد على هيمنتها، فهي داخلياً تواجه مشاكل جوهرية حددها هنتنغتون في الآتي:

"Slow economic growth, stagnating populations, unemployment, huge government deficits, a declining work ethic, low saving rates, and in many countries, including the United States, social disintegration, drugs and crime. Economic power is rapidly shifting to east Asia, and military power and political influence are starting to follow."(2)

الترجمة: «يواجه الغرب بطء النمو الاقتصادي، وتوقف النمو السكاني، والعطالة، والتضخم، وتدهور أخلاقيات العمل، وضعف نسب الادخار. وفي معظم

---

(١) في كتابه (New lies for old) نشر عام ١٩٨٤م، ذكر أناتولي قوليتسين عضو جهاز المخابرات الروسية KGB، الذي هرب إلى الغرب، ذكر أن ما حدث في روسية عام ١٩٨٩م (البيريسترويكا) ليس نهاية الشيوعية كما أعلن قورباتشوف (رئيس روسية)، وإنما هو انتقال للمرحلة النهائية The final phase من هيمنة الشيوعية وانتصارها عالمياً. وهذا يقتضي التظاهر بسقوط الشيوعية وانتقال روسية للحرية والديمقراطية. ورد هذا في كتاب بات روبرتسون (The New World Order) مرجع سابق.

(٢) Huntington, S, The Clash of Civilizations, op. cit. p82.

الدول، بما فيها الولايات المتحدة يواجه الانهيار الاجتماعي والمخدرات والجريمة. مركز القوة الاقتصادية يتحول إلى شرق آسية، والقوة العسكرية والتأثير السياسي في طريقه (إلى التحول أيضاً)».

هذا التناقض بين القوة بكل جوانبها وبين حال المجتمع الذي يعاني كل أنواع الانهيار، هو أبرز دليل على غياب الأصول والثوابت الربانية التي تضمن نمو حضارة تتناسق فيها أوجه الحياة، وتنضبط فيها علاقات المجتمع، ويكون فيها الرفاه المادي والتطور الصناعي موجهاً لخير المجتمع كله في عدالة ومساواة.

فبالنظر إلى مراحل الحضارة الأوربية التي تم استعراضها، يمكن تلخيص المبادئ التي استمدتها الحضارة الغربية المعاصرة من بعض هذه المراحل وذلك على النحو التالي:

أولاً: إقصاء الدين، أي إن مرجعية هذه الحضارة الغربية بما فيها الاتحاد السوفييتي لم تكن الدين أي المسيحية. فالمسيحية إلى جانب كونها لا تمتلك نظرية أو نظاماً اجتماعياً لتقوم عليه حضارة، فقد تم تجاوزها باعتبارها سبب التخلف، أما قيمها الداعية إلى المحبة والرحمة والتواضع، التي يقرها الإسلام أيضاً، فقد عدت قيوداً تحول دون انطلاق الإنسان لتحقيق ذاته.

ثانياً: التزام العقلانية المطلقة Rationalism وهذا انحراف بالأثر الإسلامي الذي نتجت عنه الحركة المدرسية كما تم توضيحه. ففي رد فعل عنيف على موقف الكنيسة من العقل والعلم، أصبح العقل وحده مصدر المعرفة، أما الوحي والغيب كما جاءت به الكنيسة فهو وضع وخرافة وألغاز.. إلخ، وعليه أهمل فلاسفة التنوير الذين ساهموا في بلورة الحضارة الحالية، عطاء الحركة المدرسية في محاولتها لاستخدام العقل

في أمور العقيدة كما فعل المسلمون. ويمكن القول: إنه أيضاً انحراف عن النهج الإغريقي؛ فالإغريق مصدر الفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية، اعتقدوا في الآلهة ودورها في استقرار المجتمع وإن لم ينعكس ذلك في تشريعات أو قيم.

ثالثاً: التزام العالمانية أو الدنيوية (Secularism) منهجاً للحياة. ويتم تحقيقها بفصل الدين عن الدولة وعدِّه أمراً شخصياً. واتخذوا مسوغاً لذلك ما جاء على لسان المسيح عليه السلام في إنجيل لوقا (الإصحاح العشرون فقرة خمس وعشرون): أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وهو نص مأخوذ وتم تفسيره خارج سياقه.

ومبدأ فصل الدين عن الدولة مأخوذ من الفيلسوف الروماني ماركوس سيزيرو (القرن الأول قبل الميلاد) فهو أول من خالف الإغريق وأنكر وجود الإله. وجعل الاعتقاد في الآلهة أمراً شخصياً على ألا يجاهر الإنسان بإنكارها أو يرفض المشاركة في الطقوس. وقد كان لسيزيرو أثره في فلاسفة عصر التنوير، وقد وصفه فريمان بقوله:

> "He is one of the founders of European liberal humanism, and forerunner of the eighteenth century Enlightenment."(1)
>
> الترجمة: «يعدّ سيزيرو أحد مؤسسي الإنسانوية الليبرالية الأوربية وسابقاً (في فكره) لحركة التنوير التي ظهرت في القرن الثامن عشر».

رابعاً: التزام الفردانية Individualism، فالفرد منبت عن كل ما حوله من أسرة ومجتمع، هو محور الحياة، لا تقيده قيود اجتماعية أو أخلاقية ولاسيما ما يتصل بالدين. فللفرد كل الحرية في تحقيق رغباته مادية كانت

---

(١) Freeman ch, The Closing of the Western Mind, op. cit, p54.

أم حسية، وتندرج هذه فيما يسمى بحقوق الإنسان. وهذا الاتجاه مزيج من الأبيقورية التي ترتكز على تحقيق النزعات الحسية، ومدرسة زينو التي ترتكز على الحاجات المادية للفرد. علماً أن المدرستين الإغريقيتين تطالبان الفرد بتحقيق توازن بينه وبين المجتمع، أما الحضارة الغربية فقد تطرفت في مفهوم الفردانية فجعلت من الفرد إلهاً ومن حريته المطلقة عقيدة. وبلغ هذا التطرف مداه في اتجاه التحلل المطلق الذي أرسى دعائمه اليهودي الفرنسي سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م).

خامساً: التزام مبدأ القوة، فالمثل الأعلى للغرب هو أباطرة الإغريق والرومان في قوتهم العسكرية، واحتلالهم وقهرهم للشعوب، واسترقاقهم، ثم التسلي بالإنسان في مسارح اللهو تمزقه الأسود الجائعة.

سادساً: التزام النظام السياسي (الديمقراطية) والقانون الروماني مع التزام المؤسسات السياسية والقانونية بحماية العلمانية والفردانية وحقوق الفرد بما فيها الإباحية، وذلك دون الأخذ في الاعتبار برؤى الكنيسة أو رغبات الأغلبية المسيحية المتدينة.

سابعاً: تجاوز أهداف حركة الإصلاح الديني إلى اللادين، واعتبار قيم وأخلاقيات البروتستانت، ومنها الداعية إلى الحرية وإعلاء قدرات العقل والتعلم، بأنها هي مصدر التوجهات الرأسمالية والعلمانية والفردانية. علماً أن مصادر هذه التوجهات الإغريقية الأصل هي فلسفات عصر التنوير اللادينية كما تم توضيحه. أما قيم وأخلاقيات البروتستانت وهي مما أخذته الحركة المدرسية وحركة الإصلاح الديني من الإسلام فقد تطرفت بها العلمانية فأفقدتها مضامينها الأصلية.

هذه هي الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية.

وخلاصة القول: أنها أسس مستقاة من فكر إنساني وضعي لا يتفق ولا ينبثق من عقيدة أو شريعة. كما أن فلسفات ما عرف بعصر التنوير التي جاءت بهذه الأسس قد ثبت فشلها، فالنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي استند إليها لم يحقق المجتمع المثالي الذي بشرت به؛ أي مجتمع الحرية والعدل والمساواة، علماً أن هذه القيم الثلاث لا يمكن تحقيقها إلا في مجتمع يؤمن فيه الإنسان بالله، ويهتدي بهداه، فيعرف الغاية من خلقه فيتَّقي الله في حق نفسه ومجتمعه، وحق الأمانة التي حملها طائعاً برضاه، وعليه لم يكن غريباً أن تظل الحضارة الغربية (بما فيها روسية) على ذات المسار فتصل إلى ما آلت إليه اليوم، رفاه مادي وتفكك اجتماعي.

هذه هي الحضارة التي أفرزها فكر وتخطيط دوائر بعينها جمع بينها وحدة الفكر والمصلحة والهدف، لم تنسب إلى شعب كما نسبت الحضارة الفارسية والهندية مثلاً. كما لم تنسب إلى عقيدة كما نسبت الحضارة الإسلامية، فقد ازدهرت بين شعوب لم تجمع بينهم رابطة الأرض والدم واللغة، وعلى أسس أقصت الدين. وعليه لم تجد لنفسها ما تنسب إليه إلا الاتجاه الجغرافي فعرفت بالحضارة الغربية (Western Civilization).

في الفصل الآتي نتناول أثر مكونات الحضارة الغربية في مفهوم الأسرة في الغرب.

الفصل الثالث

مصادر اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة في الغرب



المبحث الأول

البروتستانت وتأصيل مفهوم الأسرة

ظلت الأسرة في الغرب، قبل تطورات الثورة الصناعية، محافظة على مكانتها ودورها الطبيعي، يعود ذلك إلى ارتباط تكوين الأسرة بالكنيسة؛ فالزواج في المسيحية رباط مقدس أبدي، أي يجمع بين الزوجين إلى أن يفرق بينهما الموت، والطلاق محرم إلا بسبب خيانة أحد الطرفين.

والأسرة في المسيحية تتسم بشيء من القداسة، يقول إيشلمان:

"The family and marriage are divine and holy institutions. They are created and maintained by God, The Catholic Church today views marriage as one of the seven sacraments."(1)

الترجمة: «الأسرة والزواج مؤسسات ربانية مقدسة فخالقها وحافظها الله..، والكنيسة الكاثوليكية اليوم ترى الزواج أحد الطقوس السبعة».

وتقول بريجيت بيرجر:

"Both Jews and Christians have always viewed the family as a divinely instituted structure, and Catholic Christianity has even defined marriage as a sacrament -

(١) Eshelman, J, The family: An Introduction, ALLyn and Bacon Inc, Boston, USA, 1978, p.7.

one of the seven means by which human beings can gain access to redeeming grace."(1)

الترجمة: «يرى اليهودُ والمسيحيون الأسرة نظاماً جاء بتدبير إلهي، وقد عرَّفت المسيحية الكاثوليكية الزواج بأنه طقس ديني - وواحد من الوسائل السبع التي ينال بها الإنسان الرحمة والغفران».

وعلى الكنيسة تقع مسؤولية حماية الأسرة والحفاظ عليها، وذلك بالتبشير بالتعاليم المسيحية الخاصة بالأسرة، وتشكل الوصايا العشر مصدراً أساسياً للتعاليم الخاصة بالأسرة؛ فالوصية الخامسة مثلاً تدعو للإحسان بالوالدين، والوصية السادسة تحرم القتل، والإجهاض وفق مفهوم الكنيسة يعدّ قتلاً، كما تحرم الوصية السادسة الزنا.

وقد ظلت الأسرة في أوربة، وفي ظل تعاليم الدين ورعاية الكنيسة، مستقرة محافظة على وظيفتها في تربية النشء، وبالرغم من مظاهر الظلم التي طالت عامة الناس في ظل النظام الإقطاعي إلا أن بعض عوامل استقرار واستمرار الرابطة الأسرية قد توافرت لها.

ففي النظام الإقطاعي مثلاً كانت غالبية المجتمع مسخرة لخدمة الأقلية الأرستقراطية ومالكي الأراضي، فالأسر في الإقطاعية (Serf) أي أرقاء يعملون مقابل العيش بها، يفلحون الأرض، ويرعون الحيوان. وتختص النساء بالصناعات المنزلية الصغيرة كمنتجات الألبان والأصواف وحياكة الملابس إلى جانب العمل في منازل الإقطاعيين.

وقد نتج عن هذا الوضع المستقر اتساع شبكة العلاقات الأسرية داخل الإقطاعية، فالأسرة قد تمتد لتشمل أقرباء الزوجين وغيرهم.

---

(١) Berger, B and P, The War Over The family, Penguin Books, 1983. p205.

ويؤكد علماء الاجتماع الغربيون أن هذا النمط من الحياة الأسرية (Extended Family)، أي الأسرة الممتدة أو الواسعة هو السائد في أوربة إلى ما قبل مرحلة الثورة الصناعية.

"Sociologists in particular argued that, in pre-industrial societies, the dominant household form had contained an extended family, often involving three co-resident generations."(1)

الترجمة: «لقد أكد علماء الاجتماع بوجه خاص أن شكل الأسرة السائد في مرحلة ما قبل الثورة الصناعية، هو الأسرة الممتدة التي تشمل في الغالب ثلاثة أجيال تعيش معاً».

وتقوم الحياة في الأسرة الممتدة على قيم التكافل والتعاون، فالأفراد فيها جميعاً منتجون بما في ذلك الأطفال:

"Children in the past were in a household relationship with a wide range of adults, and the roles they played and the tasks they carried out were similar to those that the adults performed, such as tending animals. Planting crops and harvesting."(2)

الترجمة: «كان الأطفال في الماضي يعيشون في ظل علاقة تتشكل من مجموعة متنوعة من الكبار، وكان ما يقومون به من أدوار وأعمال يشبه ما يقوم به الكبار، مثل رعي الحيوانات، وزراعة المحاصيل والحصاد».

---

(١) Jorgensen, N, Investigating Families and Households, Harper Collins Pub. 1996, p15.

(٢) Ibid. P17.

وبالرغم من مظاهر الظلم والاستغلال التي عانت منها الأسرة والمجتمع الأوربي في عهود الإقطاع، مثل الحرمان من امتلاك الأراضي، والمشاركة بعدالة في إدارة الأرضي الزراعية والعائد منها، والتعليم، إلا أن الإطار القيمي الديني الذي تقوم عليه الأسرة والنشء حافظ على سلامتها ومن ثم حافظ على سلامة المجتمعات.

وبالانتقال إلى مرحلة الثورة الصناعية وظهور الرأسمالية في القرن السابع عشر الميلادي، حدثت تغييرات جذرية في المجتمعات الغربية أدت بدورها إلى التأثير في وضع الأسرة، وأهم هذه التغييرات نوردها على النحو الآتي:

أولاً: انتهاء السلطة السابقة المتمثلة في أمراء الإقطاع، ومالكي الأراضي، والكنيسة، وظهور سلطة جديدة تمثلت في الملوك، والرأسماليين ملوك الصناعات (الأرستقراطية)، مع دور محدود للكنيسة، فالعلم لم يبقَ خاضعاً للمقاييس اللاهوتية. والحرية والعقلانية المنبتة عن الدين، والدنيوية، والفردانية التي تطورت كلها في تناغم وتكامل مع الثورة الصناعية كما تم توضيحه في الفصل الأول، أدت إلى ازدهار العلوم الطبيعية التي تم تسخيرها في مجال تطوير الصناعة.

ثانياً: أدت الثورة الصناعية المدعومة بخيرات الدول التي احتلتها أوربة إلى القضاء على الصناعات المنزلية الصغيرة التي كانت تستفيد منها الأسر مقابل العمل في الإقطاعية، واتجه الناس إلى العمل في المصانع الكبيرة، كما أصبح العمل بالأجر والتنافس على فرصه المتاحة ظاهرة جديدة في أوربة.

ثالثاً: ظهرت المدن الكبيرة حول مراكز الصناعة بسبب الهجرة الداخلية من الريف إلى حيث فرص العمل بعد انتهاء الصناعات المنزلية.

رابعاً: ظهرت طبقات جديدة في المجتمع كالطبقة الأرستقراطية والطبقة الوسطى التي اشتهرت لدى الماركسيين بالبرجوازية، والطبقة العاملة وسماها الماركسيون البروليتاريا.

هذه هي التحولات بصفة عامة في المجتمع الغربي، وقد كان لها أثرها في الأسرة بصفة خاصة، نوجز هذه الآثار على النحو الآتي:

اقتصادياً تحولت الأسر من أسر منتجة تأكل مما تزرع وتلبس مما تصنع، كمقابل للعمل والعيش في الإقطاعية لدى مالك الأرض، إلى مستهلكة؛ فقد حولت الثورة الصناعية الصناعات المنزلية إلى المصانع الكبيرة التي أنشأها الرأسماليون الجدد، وانتقل أرباب الأسر إلى كسب عيشهم من المصانع بأجر لا يفي بحاجات الأسرة خاصة الملابس والطعام.

استبدلت الأسرة بظلم الإقطاع ظلماً أكبر، فقد انطلقت الرأسمالية في تطوير الصناعات والسعي للكسب المادي دون قوانين وقيم ترعى حقوق العاملين ومصالحهم، وامتدت ساعات العمل مقابل أجر زهيد.

> "The worker is regimented, separated from his family throughout the day; his life is separate from that of his employer, etc. but since these transformations have been accomplished with an extreme rapidity, the interests in conflict have not yet had time to achieve equilibrium."(1)

> **الترجمة**: «فالعامل مسيطر عليه، بعيداً عن أسرته طوال اليوم، حياته مفصولة تماماً عن حياة صاحب العمل. هذه الأوضاع الجديدة للحياة الصناعية تحتاج لنظم جديدة

---

(١) Sehnore, L.F. quoted in Lukes, S., Emile Durkheim, His Life and Work, A Historical and Critical Study, Penguin Books, England, 1973, P165.

ولكن السرعة التي تمت بها هذه التحولات لم تتح مجالاً لخلق توازن بين مصالح العاملين ومرؤوسيهم».

أدى ظهور المراكز الصناعية إلى هجرة داخلية من الريف بحثاً عن فرص العمل. ونتج عن هذا تباعدٌ بين الأسر، إذ لم تجد الأسر الممتدة سكناً يسعها في هذه المدن. كما أن فرص العمل المتاحة قد لا توجد في منطقة واحدة لكل أفراد الأسرة.

أما سياسياً فقد احتلت الدولة بنظمها المستحدثة محل الأنظمة السابقة وبقيت الملكية مثلاً مجرد رمز تاريخي. وقد كان لهذا التغيير أثره في الأسرة أيضاً. فالنظام الإقطاعي مثلاً اتسم بالطابع الأسري وهو يتعامل مع القاعدة الجماهيرية في شكل أسر تعمل بكاملها تحت سيطرة مالكي الأراضي. وعليه فهو يقدم أنموذجاً أسرياً للأسرة تتطلع إليه وتقتدي به. أما في ظل النظام السياسي الجديد القائم على أجهزة تشريعية وتنفيذية.. إلخ فلم يعد الأنموذج أسرياً:

"The feudal system, from top to bottom, was essentially an organization of households, and was aptly legitimated in familistic images. With the modernization of government, the household lost political functions. But more fundamentally, the individual, abstracted from all family relationships, increasingly became the basic political unit, first as subject, then as citizen."(1)

الترجمة: «النظام الإقطاعي في الأصل تنظيم أسري، يكتسب مشروعيته عبر مفاهيم أسرية. ومع تحديث نظام الحكم، فقدت الأسرة وظائفها السياسية، ليس هذا فحسب، بل وبصورة أساسية أصبح الفرد مجرداً من كل الروابط

(١) Burger, B & P, The War Over the Family, Penguin Books, 1983, P105.

الأسرية، أصبح هو الوحدة السياسية الأساسية تابعاً أولاً، ومواطناً ثانياً».

وإذا كانت التحولات الصناعية قد نتج عنها تفكيك الروابط بين مكونات الأسرة الممتدة بسبب الهجرة والانتقال طلباً للعمل والرزق، فإن التحولات السياسية اتجهت نحو تفكيك الأسرة الأساسية (الأب والأم والأبناء)، باعتماد الفرد وحدة أساسية في المجتمع وليس الأسرة.

هذه الآثار تتعلق بشكل الأسرة (من ممتدة إلى صغيرة)، وبوظيفتها الاقتصادية (من الاعتماد على الذات في ظل الإقطاعية إلى العمل بالأجر عند بداية الثورة الصناعية). فهل طالت هذه الآثار في القرن السابع عشر مفهوم الأسرة بوصفها نظاماً دينياً ينشأ تحت رعاية الكنيسة؟

البروتستانت وتأصيل مفهوم الأسرة

أحدثت تعاليم البروتستانت نقلة كبيرة في مجتمعات أوربة الغربية ومستعمراتها الأمريكية في القرن السابع عشر. وإذا كان الألماني مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) (مؤسس المذهب) قد ركز على القضاء على سلطة الكنيسة، ودعا لحرية الفرد واعتماده على عقله وضميره في نيل الخلاص، فإن تلميذه السويسري جون كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤م) تخطى شؤون العقيدة لمجالات أخرى:

> "Calvin was not particularly interested in dogma: his concern was centered on the social, political and economic aspects of religion..."[1]

الترجمة: «لم يقتصر اهتمام كالفن بوجه خاص على

(١) Armstrong, K. A History of God, Mandarin Pub, 1994, p322.

العقيدة، فقد ركز اهتمامه على جوانب الدين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية».

تعاليم كالفن التي تؤكد ضرورةَ اهتمام الفرد بالشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية انتشرت في أوربة الغربية ومستعمراتها الأمريكية عبر مجموعات البروتستانت التي تشكلت في القرن السابع عشر. ومن هذه المجموعات البيوريتانز، والبريسبيتيريانز والميثودست. ووجدت هذه التعاليم تعبيرها الفلسفي عند فلاسفة القرن السابع عشر من أمثال جون لوك (١٦١٢-١٧٠٤م)، وفولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م)، ومونتسكيو (١٦٨٩-١٧٧٥م)، وروسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م). وقد سبقت الإشارة لدور روح مبادئ البروتستانت وأفكار هؤلاء الفلاسفة في دفع التطور العلمي والصناعي قُدُماً.

وشهد القرن السابع عشر ظهور طبقة أفادت من هذه التطورات وما أتاحته من فرص عمل ووظائف جديدة، وهي الطبقة المسماة بالبرجوازية.

"The great increase in productivity, the accumulation of capital, and the expansion of mass-markets as well as the new intellectual advances in science led to social revolution: the power of the landed gentry declined and was replaced by the financial muscle of the bourgeoisie."(1)

الترجمة: «إن الزيادة الكبيرة في الإنتاج، وتراكم رأس المال، وانتشار الأسواق الكبيرة مع التقدم العلمي الحديث في مجال العلوم الطبيعية أدت جميعها إلى ثورة اجتماعية: فقد تلاشت سلطة النبلاء الإقطاعيين وحلت محلها سلطة البرجوازيين الاقتصادية».

---

(١) Armstrong, K. ibid, p339.

ولم تقتصر قوة هذه الطبقة الجديدة على الاقتصاد فقط، فقد كان للمبادئ التي وضعها كالفن دورها في استقرار هذه الطبقة وتأثيرها في مجالات الحياة كافة:

"Calvin's version of Christianity was especially attractive to the bourgeoisie in the newly - developing cities of Europe, who wanted to shake off the shackles of repressive hierarchy."(1)

الترجمة: «كانت تعاليم كالفن المسيحية جاذبة بوجه خاص لبرجوازيي المدن الحديثة في أوربة، الذين أرادوا التحرر من قيود الزعامات الكنسية المتسلطة». يقصد الكاثوليك.

وتشتمل تعاليم كالفن على نظام أخلاقي كان له أثره الكبير في أتباع هذا المذهب، ومن ثم المجتمع الأوربي. ونوجز أهم مبادئ هذا النظام في الآتي:

أ- العقلانية: وليس المقصود بها إحلال العقل والمشاهدة الحسية محل العقيدة، بل تعني تحرير العقل المسيحي من سلطان الخرافة والكهانة:

"The anti-magical, radically transcendent orientation of Protestant faith had the consequence of freeing the world from supernatural intervention (as in the sacramental world view of medieval Catholicism) and thus laying it open first to the rational inquiries of the scientist and then to the imposition of rational controls by both the engineer and entrepreneur."(2)

---

(١) Ibid, p322.

(٢) Berger, B & P, The War Over the Family, op. cit, p122.

الترجمة: «إن توجه العقيدة البروتستانتية الروحاني الرافض للسحر أدى إلى تحرير العالم من تدخل ما وراء الطبيعية (كما هو الحال في طقوس كاثوليكية العصور الوسطى)، وأدى إلى إتاحة العالم للاستكشاف العقلي من قِبَلِ العلماء، ومن ثم التحكم فيه عقلياً بوساطة المهندس ثم المحترف».

ب- **المسؤولية الفردية**: تعد المسؤولية الفردية النابعة من ضمير يقظ بديلاً لوساطة رجال الدين بين الفرد والله، إذ لا يستقيم عقلاً أن يسيء الإنسان استخدام عقله، ثم يعتمد على شخص آخر ليمنحه المغفرة. فالعقل الحر يعصمه من الزلل، وإحساس الفرد بمسؤوليته إنما هو حيال أفعاله ونتائجها، وتعد هذه المسؤولية طاقة داخلية مركوزة في الدين:

"The individual is to be both free and responsible, guided only by a specific (originally, of course, religiously grounded) internal self-piloting process."(1).

الترجمة: «على الفرد أن يكون حراً ومسؤولاً معاً، مهتدياً فقط بنظام داخلي ذاتي الدفع، وبالطبع مركوز في الدين أصلاً».

ج- **العمل**: تعد البروتستانتية انقلاباً على النظام السلطوي الكاثوليكي الذي اتسم في العصور الوسطى بفرض قيود صارمة على إعمال العقل واكتساب العلم. أما في البروتستانتية:

"There are to be no more barriers, social or natural, to the advancement of the individual, provided the latter follows those virtues that have proved to lead to success."(2).

(١) Berger, B & P. ibid, p122.

(٢) Ibid p.123.

الترجمة: «ينبغي ألا تكون هنالك معوقات، طبيعية كانت أم اجتماعية، تعوق تقدم الفرد، شريطة أن يلتزم الفرد بتلك الفضائل التي ثبت أنها تقود إلى النجاح».

وما هذه الفضائل يا تُرى؟

"The virtues enjoined by this Bourgeois-Protestant morality are, in principle, accessible to everyone: hard work, diligence, discipline, attention to detail, frugality, and the systematic (not sporadic) cultivation of will-power. And the obverse vices can be avoided by every one: idleness, thoughtlessness, intemperance, vanity, and self-indulgence in all its forms."(1)

الترجمة: «القيم التي أمر بها النظام الأخلاقي البروتستانتي البرجوازي متاحة أساساً للجميع وهي: العمل الجاد، الاجتهاد، النظام، الحرص على التفاصيل، عدم الإسراف وتقوية العزيمة بمنهجية وليس عشوائياً. أما الرذائل التي يمكن أن يتجنبها الجميع فهي: الكسل، عدم الاكتراث، الإسراف، التكبر والانغماس في الملذات بكل أشكالها».

هذا التركيز على الفرد لا يعني بأي حال الأنانية والفردانية القائمة على تحقيق الذات دون اعتبار للآخرين، وإنما تعني قوة الشخصية وتحمل المسؤولية انطلاقاً من إيمان قوي بالله. أما الدعوة للعمل والكسب المادي فلا تعدّ قيمة وهدفاً في ذاتها، وإنما الأساس هو الإنسان وقيمه التي يرتكز عليها في كسبه المادي. وحول هذا المبدأ البروتستانتي تقول بريجيت بيرجر:

(١) Ibid, p123.

"In this ethic, economic success in itself is not a virtue. Rather, the virtue lies in individual responsibility and performance of duty. This is not at all a morality that legitimated greed. It placed a major burden on the successful and the rich: to earn ever again a (state of grace) by resisting the temptations and vices of wealth."[1]

الترجمة: «إن الكسب المادي في إطار هذه القيم ليس بفضيلة في ذاته، وإنما الفضيلة في المسؤولية الفردية وأداء الواجب، وهذه ليست أخلاقيات تبيح الجشع، ولكنها تضع عبئاً ثقيلاً على الفرد الناجح والثري كي يسعى إلى كسب رضا الله ورحمته عبر مقاومة الإغراءات والرذائل التي قد يجلبها الثراء».

من هذه المبادئ تتضح أهمية الفرد لدى البروتستانت، فهو الذي يحقق مكونات العقيدة ويجسد نظامها الأخلاقي في المجتمع لينال الخلاص. فمن الذي يقوم إذن بإعداد الفرد لأداء هذا التكليف؟ والإجابة هي:

"The family, the character - building institution par excellence. Only strong families could shape strong characters, and this the bourgeois family set itself to do with remarkable success."[2]

الترجمة: «الأسرة، مؤسسة بناء الشخصية بجدارة، الأسرة القوية فقط تستطيع صياغة شخصيات قوية، وهذا ما أعدت الأسرة البرجوازية نفسها لفعله بنجاح ملحوظ».

---

(١) Burger. B & P, ibid, p124.

(٢) Burger. B & P, ibid, p124.

وهنا يظهر اتجاه البروتستانت لتأصيل دور الأسرة، وكانت الأسرة البرجوازية التي جذبتها تعاليم ومبادئ البروتستانت في القرن السابع عشر النموذج والمثال لهذا الدور الأصيل.

ومن سمات هذا التأصيل المحافظة على مؤسسة الزواج نظاماً دينياً له قداسته؛ مع ربط مهام ومقاصد الحياة الزوجية بهذه المكانة الرفيعة للزواج. وعليه احتلت الأسرة مكانة رفيعة عند البروتستانت بل وعُدَّت الكنيسة هي المسؤول الأول عن نجاح أو فشل الأسرة:

"Whenever the church has done her work positively, she has so strengthened her families that they have served as a stabilizing influence in society, producing freedom. liberty, and opportunity.. when the church has failed in her teaching role, it has been at the expense of both the family and society."(1)

الترجمة: «كلما أدت الكنيسة مهامها بإيجابية تكون قد دعمت الأسر لتكون عامل استقرار في المجتمع وتمنح أفرادها الحرية والاستقلال وفرص النجاح.. وحينما تفشل الكنيسة في دورها التربوي يكون ذلك على حساب الأسرة والمجتمع».

ومن سمات التأصيل أيضاً الاهتمام بالأطفال بحسبانه واجباً دينياً، والأسرة هي المسؤولة عن إخراج جيل بصفات النظام الأخلاقي البروتستانتي وملامحه، ومن أهمها تحمل المسؤولية ويقظة الضمير:

".. It is of the utmost importance to raise children in such a way that they will become 'men if conscience'.. on

---

(١) Lahaye, T & B Spirit Controlled Family Living, Fleming Revell Pub, U.S. A, 1978, p16.

the other hand only the family can be the social context within which such individuals can be formed."[1]

الترجمة: «من المهم جداً أن يربى الأطفال بطريقة تجعل منهم رجالاً ذوي ضمير.. والأسرة فقط هي السياق الاجتماعي الذي يمكن أن يصنع فيه أفراد بهذه الصفة».

والمقصود هنا الأسرة الملتزمة بتعاليم الدين، ونظامه الأخلاقي الذي يعينها على تربية أبنائها، وفي كنفها يلتقط الأبناء القيم الأخلاقية والصفات المطلوبة للشخصية السوية:

"Moral values and character are not taught; they are caught in the home."[2]

الترجمة: «القيم الأخلاقية والشخصية (السوية) لا تتحقق بالتعليم وإنما تلتقط داخل المنزل».

إلى جانب ذلك أصبح التعليم مطلباً أساسياً؛ وقد سبق البروتستانت التعليم النظامي في أوربة حيث كانت الأسرة تقوم بتعليم أبنائها في المنزل.

ومن سمات تأصيل دور الأسرة مشاركة الأسرة الموسرة في دعم أسر الطبقة العاملة. فتعاليم البروتستانت المتعلقة بالعمل الخيري أكسبت الأمهات دوراً طوعياً خيرياً. ارتبط هذا الدور بالعمل التبشيري، وأصبح لزاماً على نساء الطبقة البرجوازية المشاركة مع الكنيسة في التبشير والتعليم وتقديم المساعدات للأسر الفقيرة. ولم يكن الهدف المساعدات المادية بل نشر قيم ومبادئ البروتستانت خاصة المتعلقة بالأسرة:

"But what was diffused to all social classes was not

---

(١) Burger. B & P, ibid, p123

(٢) La Haye, T & B, op. cit, p22.

only the external accoutrements of Bourgeois life but its peculiar vision of family life."(1)

الترجمة: «لم يقتصر ما ينشر بين طبقات المجتمع (الأوربي) على المظاهر الخارجية للحياة البرجوازية، بل شمل ذلك رؤاها ومفاهيمها الخاصة بالحياة الأسرية».

وهذا يعني نشر عقيدة البروتستانت ونظامها الأخلاقي خاصة الذي يعلي من شأن الأسرة، وقد تحالف رجال الدين البروتستانت مع نساء الطبقة البرجوازية للقيام بهذه المهمة:

"Bourgeois women (not their spouses) were the standard-bearers of the new sensibility, first of all within the home, but then more and more in the public arena as well... The Protestant clergy were an important ally in this missionary enterprise."(2)

الترجمة: «نساء البرجوازيين (وليس أزواجهن) كن الأحرص على تجسيد هذه القيم الجديدة لا في بيوتهن فحسب، بل في الساحة الاجتماعية أيضاً.. وكان رجال الدين البروتستانت حليفاً هاماً لهن في هذه المهمة التبشيرية».

وعليه عدت الأسرة، بل المرأة فيها بوجه خاص، صانعة التغيير في القرن السابع عشر. ويقول المودودي واصفاً ما قامت به نساء هذه الحقبة من تاريخ أوربة: «فقمن يتعهدن البيوت، ويُحَسِّنَّ آداب العشرة، وأبلين بلاء حسناً في سبل الخير وأعمال البر. فترقية الصحة العامة وتربية الجيل الناشئ، ومواساة المرضى وتنمية النظام العائلي وآدابه؛ كل أولئك كان من بواكير ثمار اليقظة التي حصلت بين النساء بفعل الحضارة الجديدة»(٣).

---

(١) Burger. B & P, op, cit, p113.

(٢) Burger, ibid, p17.

(٣) أبو الأعلى المودودي، الحجاب، دار الفكر، من دون تاريخ، ص٢٦.

هذه الأعمال الفاضلة التي أشار إليها المودودي ليست بفعل الحضارة الجديدة، ولكن بفعل الإطار القيمي الديني الذي استند إليه البروتستانت في سعيهم إلى تغيير المجتمع:

"Rather, behind this morality lies the primarily protestant conviction that God is present in even the smallest things of this world, which for that reason deserve the most careful and reverential attention."(1)

الترجمة: «بل وراء هذه الفضائل القناعة البروتستانتية الأصيلة بأن وجود الله تدل عليه حتى أصغر الأشياء في هذا العالم، وعليه؛ حتى الأشياء الصغيرة يجب أن تحظى بالاهتمام والحرص والتوقير».

وكلما تمكن الشعور بوجود الله من النفس الإنسانية، كما يعتقد البروتستانت، فإن الرفاه المادي لن يقودها إلى الانحراف والانغماس في الملذات، وذلك لأن قوة الإيمان تكسب صاحبها قوة في العزيمة والإرادة:

"The man who can withstand the weight of rich, and still be diligent, industrious, and strong in mind and heart, must be made of strong stuff. For people who are rich are disposed to be idle, luxurious, and self-indulgent."(2)

الترجمة: «إن الرجل الذي تتراكم لديه الثروة ويظل يعمل ويكدح، ويظل عقله وقلبه سليمين لابد أنه رجل من معدن صلب».

---

(١) Burger, B & P, Op. Cit, p124.

(٢) Burger, B & p. Cit. P125.

والمعدن الصلب هذا هو الالتزام بالنظام الأخلاقي للبروتستانت. واشتهر صموئيل سمايلز بتأليف عدة أسفار تفصِّل هذا النظام الأخلاقي (نشرت عام ١٨٥٩م بإنجلترة)، ويستند هذا النظام أصلاً إلى العقيدة المسيحية وفق مذهب البروتستانت:

> "Everywhere, religion provided the ultimate foundation of these moral strictures for everyone and the balancing force in social life. Without this religious foundation this morality was bound to lapse progressively into implausibility. This is why the fate of the bourgeois, its ethic and its family form, was very intimately tied to the fate of religion."(1)

> **الترجمة**: «في كل مجال، كان الدين هو القاعدة الأساسية لهذه القواعد الأخلاقية، وكان القوة التي تكسب الحياة الاجتماعية توازنها. ومن دون هذا الأساس الديني تفقِدُ هذه الأخلاقيات مصداقيتها تدريجياً. وعليه فإن مصير أخلاقيات البرجوازيين ونظامهم الأسري ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير الدين».

هكذا استطاع البروتستانت عبر التمسك بعقيدتهم ونظامهم الأخلاقي امتصاص آثار التغييرات الاقتصادية في ظل الثورة الصناعية. ذلك عبر تأصيل دور الأسرة بالمزج بين مهمتها الرسالية الطبيعية في المنزل وبين مهمتها الطوعية الخيرية في المجتمع، ورعاية الطبقة العاملة خاصة.

استمر هذا التكامل بين التقدم العلمي الصناعي والقيم الدينية البروتستانتية إلى أواخر القرن الثامن عشر، وكانت الطبقة البرجوازية نموذجاً لهذا التكامل. وعلى هذا الأساس كان من المفترض أن تشهد

---

(١) Burger, B & P. op. cit, p125.

القرون التالية اكتمال حضارة راقية أقرب للحضارة الإسلامية، وذلك لأن المذهب البروتستانتي ما هو إلا امتداد للحركة المدرسية التي استمدت توجهها العقلاني، المرتبط بأصول الدين، من الإسلام كما تم توضيحه سابقاً.

ولكن لم تمض الأحداث نحو هذه الغاية، فقد شهدت خواتيم القرن الثامن عشر بداية تحول كبير في مسار هذه النهضة المتكاملة، فبينما ظل المسار الصناعي متقدماً وبخطا غير مسبوقة، بدأ المسار اللاديني العلماني يستهدف الدين والنظام الأخلاقي والأسري الذي ساد في أوربة ومستعمراتها الأمريكية، واستطاع هذا المسار أن يشكل الأساس الذي نشأت عليه الحضارة الغربية المعاصرة. المبحث الثاني يتناول بإيجاز الأسباب التي أدت إلى هيمنة هذا المسار على الغرب، ولاسيما دوره في محاولة تغيير مفهوم الأسرة بوصفها عاملاً أساسياً في تحقيق اختراق المجتمعات وتفكيك نسيجها الروحي والاجتماعي والثقافي.

المبحث الثاني
المادية اللادينية وتغيير مفهوم الأسرة

مصادر المادية اللادينية وأهدافها

بالرغم من الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت حول قضايا العقيدة والعقل والعلم، واختلافهم حول طبيعة الإله والمسيح والعذراء والمغفرة. إلا أن هذا الصراع والاختلاف لم يؤد إلى زعزعة الإيمان أو التشكيك في وجود الله لدى أي من أتباعهما. فقد ظل المسيحيون في أوربة - منذ بداية الصراع في القرن الثاني عشر إلى أن تم الاعتراف بكنيسة البروتستانت عام ١٧٨٧م - ظلوا يحافظون على عقيدتهم ومفاهيمهم الخاصة بالزواج والأسرة. كما أن تعاليم البروتستانت كما أوضحنا أضفت بعداً جديداً للتعامل مع الحياة الدنيوية وذلك بإعلاء قيمة العلم والعمل وتأصيل دور الأسرة.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا طغى التوجه اللاديني الذي بدأ يظهر في القرن الثامن عشر بصورة حالت دون تطوير حضارة على أساس ما قدمه البروتستانت للمجتمع الأوربي؟ ولماذا نجح التوجه اللاديني في فرض الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية المعاصرة في المجالات كافة بما في ذلك مفاهيمها الخاصة بالفرد والأسرة والأخلاق والمجتمع؟

يشير كثير من الباحثين إلى أن المسار اللاديني الذي تبلور في القرن

التاسع عشر في شكل فلسفة قام على أساسها المجتمع الإنسانوي الليبرالي (Liberal humanism) والذي يعرف بالدنيوية (Secularism) وبالشيوعية (Communism) لم يكن نتاج تطور عادي للأحداث. كما يشير الباحثون إلى أن هذا الكم المقدر من المفكرين اللادينيين الذين وضعوا نظريات بديلة عن الخلق، والإنسان، والكون، والاقتصاد، والسياسة، والأسرة، والمجتمع والأخلاق.. إلخ لم يكن وليد حركة فكرية عادية.

فكارل ماركس، أحد أعمدة التوجه اللاديني، يؤكد أن تطبيق منهج الحياة المادية اللاديني في أوربة كان سابقاً للنظريات والفلسفات الداعمة له. ويقول ماركس: إن التجربة العملية بدأت في فرنسة وألمانية وإنجلترة في بداية القرن الثامن عشر، وذلك بتوجيه الحياة لتصبح دنيوية بلا دين. وهذا التطبيق العملي هو ضرورة وجود نظريات داعمة، يقول ماركس:

"That life (French life) was turned to the immediate present, worldly enjoyment and worldly interest, the earthly world. Its anti-theological, anti-metaphysical, and materialistic practice demanded corresponding anti-theological, anti-metaphysical and materialistic theories."(1)

الترجمة: «لقد تم توجيه الحياة (في فرنسة) نحو المتعة والمصلحة الدنيوية المباشرة، أي العالم الدنيوي. وطبيعة هذا التوجه اللاديني اللاغيبي المادي تطلبت ما يقابلها من نظريات لادينية لا غيبية مادية».

فمَن الموجه للحياة في أوربة نحو اللادين والمادية البحتة، ومَن الذي قرر أن هذا التوجه بحاجة لنظريات داعمة؟

يشير الدكتور محمد الشاذلي إلى أن اليهود وعبر الحركة الصهيونية

(١) Caute, D, Essential Writings of Karl Marx, Collier Books, N.T. 1973, p26.

ومنظماتها الفرعية هي التي تحكمت في مسار الأحداث في أوربة وشكلتها وفق استراتيجية محددة. ويستدل الشاذلي بما أورده أول ناشر لبروتوكولات بني صهيون، سيرجي نيلسون، من أن اليهود وعبر الصهيونية ظلوا يخططون للسيطرة على العالم منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وظلت الصهيونية تطور أساليبها ووسائلها على مر العصور، إلا أن أشهر واجهاتها هي الماسونية التي يعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وعن انتقال الماسونية إلى أوربة يقول د. الشاذلي:

«ويجمع كثير من دارسي المسألة الماسونية أنها انتشرت من إنجلترة إلى القارة الأوربية. ففي عام ١١٥٥م انتخب ملك إنجلترة (ريتشارد) الملقب بقلب الأسد أستاذاً أعظم للمحافل الماسونية.. وهذا هو أحد ملوك أوربة الذين قادوا الحملة الصليبية الثالثة»[١].

أما بات روبرتسون فقد ذكر في دراسة عن تاريخ فكرة (النظام العالمي الجديد) أن تسلسل وترابط الأحداث في أوربة وأمريكة منذ القرن السابع عشر وإلى اليوم لا يمكن أن يكون تسلسلاً طبيعياً. وردَّ الأمر بتوثيق دقيق إلى منظمة خفية يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، خططت لتشكيل العالم والسيطرة عليه، ويؤكد روبرتسون على إجماع الباحثين على هذه الحقيقة وإن اختلفوا في تحديد هوية هذه المنظمة نسبة لتعدد واجهاتها.

ويشير روبرتسون إلى أن أقوى واجهات هذه المنظمة الخفية وأكثرها فاعلية في تنفيذ مخططها هي الماسونية المعروفة باسم البنَّائين الأحرار (Free masons). وتعمل الماسونية على السيطرة على العالم عبر احتواء أنظمة الحكم، وموارد المال والاقتصاد، وعليه لم يكن غريباً أن تستقطب الماسونية الطبقة الأرستقراطية في بريطانية في القرن السابع عشر

---

(١) محمود ثابت الشاذلي، الماسونية عقدة المولد وعار النهاية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م، ص٢٤٠.

الميلادي، ثم الملكية في فرنسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، يقول روبرتسون:

"From 1737 to 1907 about sixteen English princes of royal blood joined the order: The list of past grand masters included eight princes who later became monarchs: George IV, Edward VII, Edward VIII,.. etc."(1)

الترجمة: «منذ العام ١٧٣٧ إلى العام ١٩٠٧م انضم قرابة ستة عشر من الأمراء الإنجليز للمنظمة (الماسونية). وتضم قائمة من منحوا لقب الأستاذ الكبير ثمانية أمراء أصبحوا فيما بعد ملوكاً، ومنهم جورج الرابع، وإدوارد السابع، إدوارد الثامن.. إلخ».

وفي عام ١٧٧٦م أسس يهودي من بافاريا جمعية المستنيرين (Order of the illuminati) وكانت سرية في بدايتها. وكان من أهدافها الأساسية إنشاء نظام عالمي جديد تتلخص وسائله في:

1- "Abolition of monarchies and all ordered governments.
2- Abolition of private property.
3- Abolition of patriotism and nationalism.
4- Abolition of family life, and the institution of marriage, and the establishment of communal education for children.
5- Abolition of all religion."(2)

الترجمة:

١- القضاء على الأنظمة الملكية والحكومات.

---

(١) Robertson, P. The New World Order, Word pub, Dallas, USA, 1991, p179.

(٢) Robertson, P, ibid P.180.

٢- القضاء على الملكية الفردية (أو الخاصة).

٣- القضاء على حب الوطن والقومية.

٤- القضاء على الحياة الأسرية (نظام الأسرة) ومؤسسة الزواج، وإنشاء (نظام) تربية جماعية للأطفال.

٥- القضاء على كل الأديان.

ويسعى المستنيرون عبر هذه الوسائل إلى:

"establishing a new world order.. and the elevation to world leadership of a group of group of hand-picked 'adepts' or illuminated ones."(1)

الترجمة: «إنشاء نظام عالمي جديد.. وتنصيب قيادة عالمية من مجموعة منتقاة من (الصفوة) أو (المستنيرين)».

وفي عام ١٧٨٢م شارك وايزهوبت في المؤتمر العالمي للبنائين الأحرار (الماسون) الذي أقامه المحفل الماسوني العالمي ويرأسه إمبراطور روسية (فردريك العظيم). في هذا المؤتمر الذي انعقد بألمانية استطاع وايزهوبت أن يطرح مشروع النظام العالمي الجديد ووسائله. ومن أجل تحقيق ذلك تم دمج المنظمتين (الماسونية والمستنيرين) لتصبح (الماسونية المستنيرة). وفي ذات العام تم نقل مقر المستنيرين من فيينا إلى فرانكفورت لتصبح الماسونية المستنيرة تحت رعاية أسرة اللورد روثجايلد اليهودية الثرية الشهيرة إلى اليوم.

ويشير روبرتسون إلى دور هذه الأسرة اليهودية في استقطاب الأثرياء والمشاهير للماسونية، إلى جانب تمويلها لواجهات الماسونية في أوربة مثل مركز الموائد المستديرة في بريطانية، الذي كان يرأسه سيسيل رودس

---

(١) Robertson, P, ibid P. 67.

مؤسس روديسية وصاحب مناجم الماس في جنوب إفريقية، ويقول روبرتسون: إن محفل المستنيرين بألمانية هو الذي اتخذ عام ١٧٨٦م قرار اغتيال لويس الحادي عشر إمبراطور فرنسة، وجوستاف الثالث ملك السويد.

والماسونية المستنيرة كانت وراء الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، فقد استغلت فرع فرنسة في تعيين المستنيرين في أهم المناصب الحكومية:

"Once installed these members set about to undermine the Bourbon dynasty of France and to prepare the way for the French revolution. It is believed that several of the key leaders of the French Revolution were members of the illuminati."(1)

الترجمة: «وبمجرد تعيينهم بدأ هؤلاء الأعضاء في زعزعة أسرة البوربون الحاكمة في فرنسة، وفي الإعداد للثورة الفرنسية، ويعتقد أن عدداً كبيراً من القادة الأساسيين للثورة كانوا أعضاء تنظيم المستنيرين».

وتعدّ الماسونية المستنيرة المؤسس الفعلي للشيوعية، فحينما واجه المستنيرون ضغوطاً في ألمانية وفرنسة نقلوا نشاطهم في بداية القرن التاسع عشر لمقرهم في جنيف بسويسرة، وعملوا تحت واجهة أسموها عصبة الرجال العادلين (League of just men)، ثم قاموا بتغيير الاسم إلى العصبة الشيوعية (Communist league) وبدؤوا في تأسيس الحركة البلشفية.

وفي عام ١٨٤٧م انضم ماركس وإنجلز إلى فرع العصبة الشيوعية في بروكسل، وبينما تنسب النظرية الشيوعية - كما جاءت في (المانفستو

(١) Robertson, p, ibid, p68.

الشيوعي) و(الشيوعي العالمي) - لماركس وإنجلز؛ إلا أنها في حقيقة الأمر من صنع الماسونية المستنيرة، ولم يكن دور ماركس وإنجلز فيها إلا إعداد المانفستو للنشر كما أكد ذلك الرجلان. في مقدمة الطبعة الألمانية للمانفستو عام ١٨٧٢م قال:

"The communist league (formerly called the league of just men.. commissioned the undersigned (Karl Marx and Friedrich Engels), at the Congress held in London in Nov. 1847, to draw up for publication a detailed theoretical and practical program of the party.. the manuscript of which traveled to London to be printed a few weeks before the Feb. revolution."(1)

الترجمة: «لقد طلبت العصبة الشيوعية والمعروفة سابقاً باسم عصبة الرجال العادلين في مؤتمرها بلندن (تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٤٧)، من الموقعين أدناه (كارل ماركس وفردريك إنجلز)، أن يعدا للنشر برنامج العصبة النظري والعملي المفصل، هذا هو مصدر المانفستو التالي والذي أرسلت منه نسخة إلى لندن للطبع قبل أسابيع قليلة من ثورة شباط/فبراير».

(وهنالك فرق واضح بين التأليف وبين الإعداد للنشر).

أما الشيوعي العالمي (Communist International) لماركس أيضاً، فهي ليست من تأليفه، يقول روبرتسن:

"The Communist International was not the work of Karl Marx but that of secret societies which from 1789 to this day have been perfecting their formation ..."(2)

---

(١) Ibid, p69.

(٢) Ibid, p 69.

الترجمة: «الشيوعي العالمي لم تكن من إنتاج كارل ماركس، وإنما من إنتاج جمعيات سرية ظلت منذ العام ١٧٨٩ وإلى اليوم تتقن تنظيم نفسها..».

قامت الماسونية المستنيرة بإنشاء فروع للعصبة الشيوعية في كلٍّ من فرنسة باسم الاشتراكيين عام ١٨٤٠م، بزعامة أوغست بلانكي المشهور بالثوري التآمري، وفي بلجيكة باسم الحزب الديمقراطي عام ١٨٤٤م حيث انضم ماركس لأول مرة للعصبة، وأصبح نائباً لرئيس الحزب، ثم في ألمانية باسم الحزب الاشتراكي الألماني عام ١٨٧٥م حيث شارك ماركس في مؤتمر الحزب التأسيسي وأسس اتحاداً للعمال. ولم تنجح هذه الفروع في تحريك العمال وإشعال الثورات في أوربة الغربية، وظل ماركس طريداً من دولة إلى أخرى حتى استقر أخيراً في إنجلترة إلى وفاته عام ١٨٨٣م[١].

حينما يئست الماسونية المستنيرة من تحقيق أهدافها في أوربة الغربية في مجال تغيير أنظمة الحكم ركزت عبر فروعها على تحقيق أهداف التغيير العقائدي والاجتماعي، واتجهت شرقاً من مقرها في جنيف لتحريك الحركة البلشفية في روسية، وبدأت حملة دعائية للشيوعية في الفترة ما بين العام ١٨٩٨ إلى العام ١٩٠٣م بقيادة لينين، وما بين العام ١٩٠٣ إلى ١٩١٧م تم تكوين الحزب الشيوعي بهدف أساسي هو قيادة الثورة ضد القيصر، وتنصيب ما سماه الشيوعيون بدكتاتورية البروليتارية، فماذا حدث؟

Robertson, p, ibid, p68.The new order swept away property, the government, and the outward worship of God.. and the nationalization of not only the means of production but ultimately all private property as well."[2]

---

(١) Caute, D, Essential Writings of Karl Marx, Colier Books, N. y, 1970, p13-15.

(٢) Robertson, p, ibid, P. 73.

الترجمة: «لقد قضى النظام (الشيوعي) الجديد على الممتلكات، والحكومة، ومظاهر عبادة الله.. ولم يكتف بتأميم وسائل الإنتاج فقط بل أمم في خاتمة المطاف كل مظاهر الملكية الفردية».

وثمة ملاحظة لابد منها وهي أن الذين نفذوا مخطط المستنيرين من اليهود. فماركس ولينين من اليهود، وأول مجلس حكم في روسية بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م كان مكوناً من عشرة أعضاء كان بينهم ستة من اليهود[١]، وتشير الأدلة إلى أن مصادر دعم هذه المنظمات وأنشطتها هم اليهود. يقول د. شاذلي:

«من المحقق تاريخياً أن رجال المال والاقتصاد اليهود في أمريكة وأوربة تزعموا حركة القضاء على الحكم القيصري في روسية، فدفعوا ملايين الدولارات وحرضوا الشباب اليهودي على الاشتراك في الثورة ضد القيصر»[٢].

ويسمي روبرتسون بعض رجال المال اليهود هؤلاء فيقول:

"We also knew that lord Milner of the British Round Table, and Jacob Schiff, of Federal Reserve Board creator Paul Warburg's banking firm, gave the essential seed money to finance the Russian Revolution" ... "Jacob Schiff gift of 20 million dollars in gold to the struggling communists in 1917 no doubt saved their revolution."[3]

---

(١) د. عبد الغني عبود، العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة، مصدر سابق، ص٩٤.

(٢) د. محمود الشاذلي، الماسونية، مرجع سابق، ص٢٧٩.

(٣) Robertson, P. The New World Order, op, Cit, p178 and p 123 respectively.

الترجمة: «ونحن نعلم أن لورد ملنر عضو الدائرة المستديرة البريطانية*، وجيكوب سجيف الموظف بمصرف بول وربرج مؤسس إدارة الاحتياطي المركزي، قدموا المال الأساسي لتمويل الثورة الروسية».. «ومما لاشك فيه أن هدية جيكوب سجيف من الذهب الذي يعادل ٢٠ مليون دولار لدعم الشيوعيين عام ١٩١٧م أنقذت ثورتهم».

ويشير روبرتسون إلى أن ممولي الثورة الشيوعية في روسية من أمريكة ينتمون إلى فرع الماسونية المستنيرة الأمريكي المعروف باسم (المؤسسة الشرقية)، وهو فرع أسسه لورد ملنر المذكور في النص أعلاه. ومن أشهر أعضائه في أمريكة أسرة مورقان، وسيسيل رودس، وآل روكفلر وفورد.. إلخ.

سيطرت هذه المؤسسة على الاقتصاد عبر مصارفها الخاصة، وسيطرت على السياسة عبر مجلس العلاقات الخارجية الذي أسسه لورد ملنر عام ١٩٢١م والذي ما زال يسيطر على سياسة أمريكة الخارجية. وفي هذا المجال تعمل المؤسسة على تنفيذ مشروع الماسونية المستنيرة كما حدده وايزهوبت وهو خلق نظام عالمي جديد بحكومة واحدة. فالتخطيط يتم في فرع إنجلترة (المائدة المستديرة) وتنفذه أمريكة كما يقول روبرتسون:

"...The pattern of operation was set in England, but the American Establishment has played it to the letter.. in New York the council on Foreign Relations was a front for J.P. Morgan and Company."[1]

---

* واجهة ماسونية بريطانية.

(١) Robertson, P. op. cit, P.112.

الترجمة: «تفاصيل الخطة توضع في إنجلترة، والمؤسسة الأمريكية تنفذها حرفياً.. في نيويورك مجلس العلاقات الخارجية ما هو إلا واجهة فقط لجي. بي. مورقان وشركاه».

وإذا كانت المؤسسة الشرقية في أمريكة فرعاً للمنظمة الأم في جنيف ولندن، فليس غريباً أن تدعم الشيوعية في روسية التي أنشأتها المنظمة الأم لتحقيق أهدافها، يقول روبرتسون:

"Americans are appropriately shocked when they find that the one-worlders of the early twentieth-century American Money Trust have financed the one-worlders of the Kremlin, not realizing that both groups hold larger goals and aims for the world that apparently complement one another."(1)

الترجمة: «سيصدم الأمريكيون حينما يدركون أن أصحاب المال الأمريكيين الذين نادوا بفكرة العالم الواحد في بداية القرن العشرين قاموا بتمويل أصحاب فكرة العالم الواحد في الكرملين.. وما لا يعلمه الأمريكيون هو أن المجموعتين حملتا أهدافاً يكمل بعضها بعضاً».

وقد يُصدم الأمريكيون أيضاً إذا علموا أن أصحاب فكرة العالم الواحد والحكومة الواحدة في بلدهم وفي الكرملين هم الذين أشعلوا الثورات في أوربة وأمريكة في منتصف القرن التاسع عشر، وهم الذين أشعلوا الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م من أجل خلق نظام عالمي جديد. يقول روبرتسون إن نهاية الحرب العالمية الأولى شهدت ميلاد مؤسستين؛ الأولى هي عصبة الأمم التي تم التخطيط لإنشائها قبل الحرب

---

(١) Robertson, p. ibid, P. 63.

أي عام ١٩١٢م بوساطة الرئيس الأمريكي ودرو ويلسون. والثانية هي مؤسسة (الشيوعي العالمي Communist International) التي أسسها لينين في روسية.

يقول روبرتسون:

"On the face of it, these two concepts were light-years apart.. however we will see that both plans actually flowed from the same wellspring"(1).

الترجمة: «في الظاهر ما يفصل بين هاتين الفكرتين مثل السنين الضوئية (يعني المسافة بين أمريكة وروسية).. لكن سنكتشف أن الفكرتين في الواقع تدفقتا من المنبع ذاته».

هذا المنبع، كما وضحنا هو الماسونية المستنيرة. وقد يُصدم الأمريكيون أكثر إذا عملوا أن المؤسسة الشرقية هي التي تسيطر على أمريكة منذ استقلالها إلى اليوم. وتسعى لتنفيذ مخطط لا ناقة لرؤسائهم فيه ولا جمل. فروبرتسون ومن خلال دراسته الموثقة المفصلة، لاحظ استمرارية نمط السياسة والقيادة في أمريكة التي تتبنى السياسات ذاتها، وكذلك الخطط والأهداف عالمياً بغض النظر عمن يحتل البيت الأبيض. يقول روبرتسون:

"It is relatively easy to trace the continuity of thought and purpose of our policy elites from Cecil Rhodes ...; to the Federal Reserve Board, to Colonel E. M. House.. to the English Round Table; to the J. P. Morgan bank, to the Rockefellers and the Council on Foreign Relations in New York; to the powerful Carnegie, Rockefeller, and Ford Foundations; to the United

(١) Robertson, p. ibid, P. 63.

Nations, to Henry Kissinger, to the Trilateral Commission, to Jimmy Carter, and finally to George Bush."(1)

الترجمة: «من السهولة بمكان تتبع استمرارية الفكر والمقصد لواضعي سياستنا من الصفوة بدءاً من سيسيل رودس.. إلى مجلس إدارة الاحتياطي المركزي، إلى كولونيل هاوس..؛ إلى المائدة المستديرة البريطانية؛ إلى آل روكفلر ومجلس العلاقات الخارجية في نيويورك؛ إلى مؤسسات كارنجي وروكفيلر وفورد ذات النفوذ؛ إلى الأمم المتحدة؛ إلى هنري كيسنجر، إلى اللجنة الثلاثية، إلى جيمي كارتر وأخيراً إلى جورج بوش» (يقصد بوش الأب).

هذا الفكر والغرض المتصل يمتد بتاريخه إلى القرن التاسع قبل ميلاد المسيح أو إلى القرون الوسطى كما تم توضيحه. وهو يمثل مشروع الدائرة التي كانت خفية، ودفعت قبل خروجها إلى العلن بواجهاتها المتمثلة في الماسونية المستنيرة والشيوعية، وأذرعها من موائد مستديرة، وأندية (كالليونز والروتاري)..إلخ. وانكشف أمر هذه الدائرة الخفية بعد تسريب وثائق بروتوكولات حكماء صهيون التي أصدرها المؤتمر الصهيوني العالمي الأول في بازل بسويسرة عام ١٨٩٧م.

خلاصة القول: إن أهداف التوجه المادي اللاديني الذي خطط له (المستنيرون) أو (البناؤون الأحرار)، واضحة لا غموض فيها. هذه الأهداف كما حددها وايزهوبت عام ١٧٧٦م تتلخص في إقامة نظام عالمي يتلاشى فيه التنوع الديني والثقافي والفكري، ويتلاشى فيه كل ما يتصل بهذا التنوع من شرائع، وقوانين، وأعراف، وتقاليد، ونظم. ويتبع ذلك إلغاء الدين، والدولة، والحكومة، والحدود القومية والوطنية،

---

(١) Robertson, p. ibid, p8.

والملكية الفردية، والأسرة، وتصبح الشعوب في حالة اللادين واللاهوية والانتماء هذه رعية لحكومة عالمية واحدة.

ويهمنا من بين أهداف هذا المخطط الهدف الخاص بإلغاء الأسرة، وهذا ما يتم تفصيله في الجزء الآتي:

الشيوعية ونظرية إلغاء الأسرة:

شكل استهداف الأسرة والسعي إلى إلغائها هدفاً أساسياً من الأهداف التي حددها وايزهوبت عام ١٧٧٦م لخلق نظام عالمي مادي لاديني، فالهدف الخامس، كما جاء أعلاه يقول:

> "Abolition of the family, and the institution of marriage and the establishment of communal education for children."

أي: «إلغاء الأسرة ونظام الزواج وتأسيس نظام مجمعات تعليمية للأطفال».

والأسرة في الغرب - كما جاء في الفصل الأول - جزء لا يتجزأ من المؤسسة الدينية المسيحية بمختلف كنائسها، ولها قداستها التي خلدتها مقولتهم الشعبية "marriages are made in heaven" (الزيجات تعقد في السماء). كما أن تعاليم البروتستانت كانت بمنزلة صمام الأمان للأسرة إزاء التطورات الاقتصادية والصناعية المتسارعة في أوربة منذ نهاية القرن السابع عشر.

وعليه فإن أي محاولة لتغيير مفهوم ونظام الأسرة لن تنجح ما لم يتم اختراق هذه الحصون العقائدية التي كانت جزءاً لا يتجزأ من المكون الروحي والوجداني والسلوكي للغرب المسيحي.

ويبدو أن العصبة الشيوعية، (الواجهة التي أسسها المستنيرون - كما تم توضيحه - هي الجهة التي أنيط بها هذا الاختراق. فالملاحظ أن الدعوة لإلغاء الأسرة ونظام الزواج، واستحداث نظام بديلٍ ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكر الشيوعي. وهنالك مصدران أساسيان للنظرية الشيوعية حول الأسرة. أولهما (المانفستو الشيوعي) الذي صدر عن المؤتمر الشيوعي العالمي في لندن في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٧م. وعدّه الشيوعيون خروجاً بأفكارهم وأهدافهم من السر إلى العلن. يقول المانفستو في مقدمته : إنه وبعد أن اتحدت قوى أوربة القديمة لمواجهة الشيوعية، وبعد أن أصبحت تهمة الانتماء للشيوعية توجه لكل معارضة وحركة تحرير :

> "It is high time that communists should openly, in the face of the whole world, publish their views, their aims, their tendencies, and meet this nursery tale of the spectere of communism with a manifesto of the party itself."(1)

> **الترجمة** : «آنَ الأوان للشيوعيِّين أن ينشروا علناً، وفي وجه العالم كله، آراءهم وأهدافهم وميولهم. وأن يواجهوا أقصوصة الشبح الشيوعي بمانفستو الحزب الحقيقي».

والمصدر الثاني هو مؤلفات من عرفوا بفلاسفة الشيوعية، ولاسيما الذين أسهموا في وضع النظرية الشيوعية حول الأسرة.

أ- المانفستو

لم يقدم المانفستو أساساً فكرياً أو فلسفياً للمفهوم الشيوعي للأسرة، بل كان منهجه في ذلك الدعوة مباشرة لإلغاء الأسرة عبر نقد الأسرة البرجوازية. جاء في المانفستو :

---

(١) Communist Manifesto, P. 44, included in Assential Writings of Karl Marz, by D. Cute Collier Books, N.Y. 1967.

"Abolition of the family! Even the most radical flare up at this infamous proposal of the communists. On what foundation is the present family, the bourgeois family, based? On capital, on private gain."[1]

الترجمة: «إلغاء الأسرة! إن أكثر الناس راديكالية سيشتاط غضباً من هذا المقترح الشيوعي. ما هي الأسس التي تقوم عليها الأسرة الآن، أي الأسرة البرجوازية؟ إنها تقوم على أساس المال والمكاسب الشخصية».

ويصف المانفستو البرجوازيين بالنفاق فيما يتصل بالمبادئ والقيم المتعلقة بالأسرة والأطفال والتعليم. فبينما يطبقون هذه المبادئ البروتستانتية على أسرهم، يقومون بهدم أسر البروليتاريا، وذلك بتسخير أفرادها لمصالحهم ويقول المانفستو:

"The bourgeois clap-trap about the family and education about the hallowed co-relation of parent and child, becomes all the more disgusting, the more, by the action of modern industry, all family ties among the proletarians are torn asunder, and their children transformed into simple articles of commerce and instruments of labour."[2]

الترجمة: «إن ادعاءات البرجوازيين عن الأسرة والتعليم، وعن قدسية العلاقة بين الوالدين والأطفال تصبح مثيرة للاشمئزاز حينما نشاهد العلاقات الأسرية الممزقة بين أُسر البروليتاريا، وتحويل أطفالهم إلى قطع تجارية وأدوات إنتاج بسبب الصناعات الحديثة».

---

(١) The communist Manifesto, ibid, P. 228.

(٢) Communist Manifesto, ibid, P. 228.

ويسخر المانفستو من البرجوازيين لأنهم يتهمون الشيوعيين بأنهم يدعون لإشاعة النساء والإباحية مذكراً بأن إشاعة النساء هو الوضع الطبيعي للإنسانية. ويقول المانفستو: إن البرجوازيين يمارسون هذا السلوك عبر استباحة زوجات بعضهم بعضاً، ونساء البروليتاريا عبر البغاء وذلك كله سراً، نفاقاً منهم. ويقول:

> "What the communists might possibly be reproached with is that they desire to introduce, in substitution for a hypocritically concealed, an openly legalized community of women."(1)

> **الترجمة**: «ما يمكن أن يُتهم به الشيوعيون هو أنهم يريدون جعل نظام إشاعة النساء علنياً وقانونياً بدلاً من ممارسته في الخفاء نفاقاً».

ويبشر المانفستو بزوال نظام الأسرة البرجوازية، وتزول معه الخيانة الخفية والبغاء وذلك بعد زوال أسبابه التي أدت إلى ظهوره أي الرأسمالية:

> "The bourgeois family will vanish as a matter of course ... with the vanishing of capital."(2)

> **الترجمة**: «إن الأسرة البرجوازية ستزول بالطبع حينما يزول رأس المال»

ب- الفلاسفة الشيوعيون

مؤلفات هؤلاء الفلاسفة تشكل المصدر الثاني والأساسي للتعريف بالإطار الفلسفي الذي استندت إليه الشيوعية في دعوتها لإلغاء الأسرة.

---

(١) Communist Manifesto, ibid, P. 229.

(٢) Communist Manifesto, ibid, P. 228.

فقد قام هؤلاء الفلاسفة - وربما بتوجيه كما ألمح ماركس - بتطوير ما جاء في المانفستو حول الأسرة إلى نظرية متكاملة.

إن أهم المرتكزات التي انطلق منها فلاسفة إلغاء الأسرة، في تشابه واتفاق يبدو كأنه مقصود، هي:

أولاً: تكامل النظرية مع اتجاه إنكار وجود الله والغيبيات، تأسيساً على ما وضعه نيتشه وهيجيل.

ثانياً: تكامل النظرية مع الاتجاه القائل بالنشوء والارتقاء، استناداً إلى ما وضعه دارون (نظرية التطور Evolution theory).

ثالثاً: تكامل النظرية مع الاتجاه القائل بالارتباط بين العامل المادي الاقتصادي وظهور النظم الاجتماعية والتشريعات المتعلقة بها، أي تأسيساً على فكرة المادية الجدلية (Dialectical Materialism) التي تردُّ الشيوعية بداياتها إلى فلاسفة القرن السادس عشر أمثال فرانسيس بيكون (١٥٦٨-١٦٢٥م) ورينيه ديكارت (١٥٦٩-١٦٥٠م).

رابعاً: تكامل النظرية مع المفهوم الشيوعي بأن الوضع الطبيعي للإنسانية هو الشيوعية أي المشاركة في كل ما هو متاح دون احتكار أو قوانين.

في ضوء هذه المرتكزات نستعرض نماذج لبعض الفلاسفة الشيوعيين الذين حاولوا وضع نظرية شيوعية خاصة بإلغاء الأسرة.

لويس هنري مورقان (١٨١٨-١٨٨١م):

عالم أجناس أمريكي، شكلت آراؤه حول مفهوم الأسرة أساساً لبلورة المفهوم الشيوعي للأسرة. فمورقان، واستناداً لآراء دارون، يقول: إن الإنسان أصله حيوان. وإنه في طور انتقاله لإنسان لم تكن له

أسرة خاصة به، أي إن الزواج لم يكن معروفاً. ويفترض مورقان أن الإنسان في هذه المرحلة البدائية عاش فيما سماه بالإباحية (Promiscuity). وحاول مورقان الاستدلال لآرائه بدراسة بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكة وبعض سكان جزر المحيط الهادي. وبالرغم من أن فلاسفة الشيوعيين تبنوا آراء مورقان إلا أن علماء الأجناس في القرن العشرين أثبتوا علمياً خطأ افتراضات مورقان وافتقارها إلى الأدلة المنطقية والعلمية:

> "Some commentators stress the complete lack of evidence from twentieth century studies to support Morgan's case. Research had found that tribal societies can be based on monogamous relationships and forms of nuclear family in which biological parents can be identified with their children."(1)

> **الترجمة**: «يؤكد بعض الناقدين عدم وجود دليل إطلاقاً من أبحاث القرن العشرين يدعم آراء مورقان. لقد أثبتت البحوث أن المجتمعات القبلية قامت على نظام الزواج، وبعض أشكال الأسرة الصغيرة (النووية) التي ينتسب فيها الأبناء لآبائهم».

كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م)

يعدُّ ماركس أشهر مؤلفي الفكر الشيوعي، إلى درجة أن الشيوعية تنسب إليه أحياناً وتسمى بالماركسية. اتخذ ماركس من آراء مورقان مدخلاً لوضع نظرية إلغاء الأسرة. واتفق ماركس مع مورقان في استخدام

(١) Jorgensen, N, Investigating Families and Households, Harper Collins pub, 1995, P. 47.

المرتكزات المشار إليها (إنكار وجود الله، الداروينية.. إلخ) إطاراً عاماً يتم تناول مفهوم الأسرة من خلاله. إلا أنه يختلف عن مورقان في تفصيله لهذه المرتكزات وإكسابها بعداً فلسفياً، حاول من خلاله تقديم نظرية إلغاء الأسرة.

في هذا الصدد تناول ماركس المرتكزات الأربعة المشار إليها من خلال محورين:

■ المحور الأول

وفيه يحاول ماركس - على خطا نيتشه وهيجل - الاستدلال على عدم وجود الله كما يعتقد، وبطلان الغيبيات. ويفعل ذلك ليس عبر تقديم البراهين المنطقية والعقلية، ولكن عبر افتراضات تحتاج في ذاتها لبراهين تسندها وتثبت صحتها. ففي هذا الصدد يذهب ماركس إلى القول، دون شاهد ولا دليل، بأن لا موجود حقاً مطلقاً إلا الإنسان. ويقول: إن الإنسان يكون في أرقى حالاته حينما يدرك أنه هو الموجود الأسمى، دون تحديد متطلبات هذا الرقي ومعاييره.

وحينما يكون إدراك الإنسان ووعيه زائفاً (false consciousness) يصبح في حالة اغتراب (alienation) عن ذاته الحقيقية. وهنا ينتاب الإنسان - كما يقول ماركس - الضعف حيال قوى الطبيعة وتطورات وسائل الإنتاج وعلاقاته، ويحاول الإنسان التغلب على هذه المواقف باستخدام وعيه الزائف في تخيل وجود قوة أسمى منه يسميها الإله؛ ويبدأ في وضع نظم وقوانين تتفق وهذا التصور يسميها (عقيدة):

"Religion is indeed man's self - awareness so long as he has not found himself or has lost himself again.. it is the fantastic realization of the human being in as much as the human being posses no true reality. The struggle

against religion is therefore, indirectly a struggle against that world whose spiritual aroma is religion."[1]

الترجمة: «الدين، بالطبع تعبير عن وعي الإنسان وشعوره حينما لا يجد ذاته أو يفقدها مرة أخرى.. (الدين) هو الوجود الوهمي، (يتخيله الإنسان) كلما افتقد وجوده الحقيقي. وعليه فإن الحرب على الدين هي، وبطريق غير مباشر، حرب على مثل هذا الوجود (الوهمي) الذي تقوم نكهته الروحية على الدين».

ويشتط ماركس أكثر في موقفه من الدين فيصفه بأنه مجرد مهدئ يستخدمه الإنسان المغترب عن ذاته، بسبب عجزه ويأسه وبؤس أوضاعه، يقول ماركس:

"Religion is the sigh of the oppressed creature, the sentiment of a heartless world, and the soul of soulless conditions. It is the opium of the people."[2]

الترجمة: «الدين آهة المخلوق المضطهد، عاطفة عالم لا قلب له، روح أوضاع لا روح فيها، الدين أفيون الشعوب».

■ **المحور الثاني:**

في هذا المحور يحاول ماركس تحديد كيفية القضاء على حالة اغتراب الإنسان عن ذاته الحقيقية وما ترتب عليها من توهم إله ودين. يقدم ماركس الشيوعية والاشتراكية المؤسسة عليها على أنها خلاص الإنسانية من هذا الوهم، فكيف فسر ذلك؟.

---

(١) Marx, K, Early Writings, quoted in Essential Writings of Karl Marx, Caute, D, Collier Books, N. Y, 1967, P. 87.

(٢) Marx, K, Early Writings, ibid, P. 87.

يقول ماركس: إن ما يسمى بتاريخ العالم كله ما هو إلا حالة حمل الإنسان في رحم هذا التاريخ عبر الكدح والعمل. وإن هذا التاريخ ليس إلا تحقيق وجود الطبيعة للإنسان. ويقول: إن هذا الفهم يتوافر للاشتراكي فقط، وعليه فهو وحده الذي يملك الدليل القاطع على أنه ولد في هذا العالم عبر مراحل محاولته ليكون. وعليه، يقول ماركس:

"Since the real existence of man and nature has become practical, sensuous and perceptible - since man becomes for man as the being of nature, and nature for man as the being man - the question about an alien being above nature and man - a question which implies the admission of the inessentiality of nature and man has become impossible in practice."(1)

الترجمة: «وعليه؛ بما أن الوجود المطلق للإنسان والطبيعة قد أصبح عملياً ومحسوساً ومستوعباً - وبما أن الإنسان أصبح بالنسبة إلى الإنسان موجوداً بالطبيعة، والطبيعة إلى الإنسان موجودة بالإنسان - فإن السؤال عن مخلوق غريب أسمى من الطبيعة والإنسان - كسؤال يحمل اعترافاً ضمنياً بعدم أصالة الإنسان والطبيعة - يصبح سؤالاً مستحيلاً في الواقع العملي».

ويقول ماركس حينما يصل الإنسان إلى قناعة أن لا إله، فإن مصطلح الكفر (atheism) ينبغي أن يلغى من القاموس، إذ لا كفر بشيء غير موجود أصلاً؛ كما أن الاشتراكية ليست بحاجة للتفكير في نفي وجود إله، لأنها تنطلق من مبدأ أن جوهر الوجود (The essence of being) هو الإنسان والطبيعة. ولهذا فالاشتراكية كما يقول ماركس أصبحت الوعي الإيجابي للإنسان.

(١) Mara, K, E, R, op, cit, P. 224.

أما الشيوعية فهي:

"The positive transcendence of private property. It is the genuine resolution of the conflict between man and nature and between man and man."(1)

الترجمة: «الشيوعية هي: التجاوز الإيجابي للملكية الخاصة، وهي الحل الأصيل لإنهاء الصراع بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والإنسان».

وعليه، كما يرى ماركس، يكون الاشتراكي الشيوعي متحرراً من أوهام الوعي الزائف ونزعة الاحتكار ومن ثم متحرراً من القوانين والتشريعات الغيبية التي يؤسس عليها أنظمته الاجتماعية مثل الأسرة، والسياسية مثل الدولة.. إلخ.

في هذا الإطار النظري الرامي لإلغاء الدين والملكية الخاصة تناول ماركس المفهوم الشيوعي للأسرة. يعد ماركس الأسرة نموذجاً للأنظمة التي يصنعها الإنسان لنفسه في حالة اغترابه وفقدانه للوعي بوجوده الحقيقي. كما أنها من النماذج الفردية التي صنع لها الإنسان مقابلاً غيبياً يكسبها مشروعية وجودها. ويرى ماركس أن خلاص الإنسان من هذا الوضع يكون بتدمير كل الأنظمة ولاسيما تلك التي لها مقابل غيبي مثل الأسرة؛ يقول ماركس:

"Therefore, after e.g. the earthly family is discovered to be the secret of the heavenly family, one must proceed to destroy the former both in theory and practice."

الترجمة: «إذن، بعد أن اكتشفنا، مثلاً، أن (نظام) الأسرة الدنيوية هو سر وجود (نظام) أسرة سماوية، فلابد من

(١) Marx, K, E, W, ibid, P. 228.

العمل على تدمير تلك (أي الدنيوية) نظرياً (أي مفهومها السماوي) وعملياً (أي صورتها الدنيوية)».

وتدمير المفهوم النظري السماوي يعني إلغاء المبادئ والتشريعات والحقوق والواجبات التي هي جزء من الدين، وتدمير الشكل العملي يعني إلغاء الزواج الذي يعني أن الأسرة تتكون من زوج وزوجة ينسب إليهما الأبناء، شكل لا مجال فيه لعلاقات غير مشروعة ولا انفصال فيه إطلاقاً وفق التشريع المسيحي.

ولم يشأ ماركس أن يدعو فقط لإلغاء الأسرة، بل أدلى دلوه فيما يخص كيفية إلغائها وذلك على النحو الآتي:

فيما يخص الأسرة الرأسمالية فأمر هدمها لم يكن صعباً على ماركس، فقد حكم عليها ماركس في إطار حكمه العام على أصلها أي (الدين) بأنه وهم من صنع الإنسان، فمفهوم الأسرة الديني وهم؛ لأن مصدرها الذي انبثقت عنه وهم، هكذا دون عناء تقديم شاهد أو دليل يسند هذا الادعاء.

أما الأسرة الدنيوية فقد شرع ماركس في هدمها على ضوء مرتكزات الفكر المادي الشيوعي التي تمت مناقشتها، وذلك باعتماد أسلوب النقد غير البناء والتحقير المنهجي المجانب لمتطلبات العملية الموضوعية، ونوجز ما قدمه على النحو الآتي:

١- بدأ ماركس بادعاء أن الوضع الطبيعي للإنسانية في بداية تطورها من مرحلة الحيوان إلى الإنسان هو الشيوعية البدائية (Primitive Commuism). وهي مرحلة لا تعرف الملكية الخاصة أو الاحتكار أو الأسرة (الزواج). والنسل في هذه المرحلة أموي الهوية (Matriarchal) فهوية الأب ونسبة الأبناء إليه لم تكن معروفة.

٢- بمنظور المادية الجدلية يصف ماركس الأسرة بأنها حالة شاذة (abnormal)، ناتجة عن تطور وسائل وموارد الإنتاج، يقول:

"Religion. family, state, law, morality, science, art are only particular modes of production and fall under its general law."(1)

الترجمة: «الدين، الأسرة، الدولة، القانون، الأخلاق، العلم، الفن، ما هي إلا أشكال إنتاج معينة ومحكومة بقوانين الإنتاج المعني».

٣- يصف ماركس الأسرة بأنها نظام يبتدعه الإنسان بعد اتساع موارده باستئناس الحيوان والزراعة، وهي أول مظاهر الاحتكار الذي يمثل خروج الإنسانية من الشيوعية والاشتراكية البدائية، أي من وضعها الطبيعي.

٤- يصف ماركس الأسرة بأنها نظام ولد وهو يحمل في طياته بذرة الاسترقاق، فإلغاء إشاعة النساء وتحديد المرأة أو مجموعة نساء بزوج واحد جعل منهن وأطفالهن أرقاء للزوج، وانتقلت الهوية من الأم لتصبح أبوية (Patriarchal)، وهذا في نظر ماركس تجريد للمرأة من سلطتها، أما عن بذرة الاسترقاق الكامنة في نظام الأسرة فيقول ماركس:

"The slavery latent in the family only develops gradually with the increase of population, the growth of wants, and wuth extension of extenral relations of war or trade."(2)

---

(١) Marx, K, German Ideology (1846) quoted ibid, P. 58.

(٢) Marx, K., German Ideology, (1846) quoted ibid., P. 99.

الـتـرجـمـة: «إن نظام الرق الكامن في نظام الأسرة (كأول مظهر للاسترقاق) يتطور فقط تدريجياً بزيادة السكان، ونمو الاحتياجات، وبامتداد العلاقات الخارجية عبر الحرب أو التجارة».

٥- استناداً إلى ما جاء في المانفستو، من أن الوضع الطبيعي للإنسانية هو اعتبار النساء ملكية عامة أو ما يسمونه (Community of Women)، عدَّ ماركس الزواج نموذجاً ومظهراً من مظاهر الملكية الخاصة التي حصنها الخيال الإنساني بنموذج غيبي.

فردريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥م)

التقى إنجلز بماركس عام ١٨٤٤م وأصبح صديقاً وفياً له ولفكره، ساعد إنجلز ماركس في بعض مؤلفاته مثل (رأس المال) بل أكمل الجزأين الثاني والثالث من الكتاب نفسه، وتم تكليفه مع ماركس بإعداد المانفستو للنشر، كما قام بنشر أعمال ماركس الفكرية بعد وفاته.

وبالرغم من اعتماده على آراء مورقان وماركس إلا أن فردريك إنجلز يعدُّ أول من بلور الرؤية الشيوعية حول الأسرة كنظرية متكاملة، فهو المفكر الشيوعي الوحيد الذي اختص الأسرة بدراسة خاصة في كتابه (The origin of the family, private property and the state) ونشره بعد عام من وفاة ماركس، أي عام ١٨٨٤م.

اتسمت آراء إنجلز بالتزام المرتكزات والمحاور ذاتها التي استند إليها مورقان وماركس، وتبنى الموقف ذاته من الأسرة والزواج بحسبانهما رمزاً للملكية الخاصة ومنبعاً لنزعة الاسترقاق.

وتتمثل إضافة إنجلز للنظرية الشيوعية في استحداثه لمبدأ الصراع بين الرجل والمرأة مدخلاً لإلغاء الأسرة. فإنجلز يرى أن المرأة البدائية كانت تعمل أكثر من الرجل، وتتمتع بتقدير ومكانة لم تتوافر للمرأة في مجتمعه الأوربي في ظل الرأسمالية، يقول إنجلز:

"The lady of civilization, surrounded by false homage and estranged from all real work, has infinitely lower social position than the hard-working woman of barbarism who was regarded among her people as a real lady.."(1)

الترجمة: «المرأة في الحضارة (يقصد التي عاصرها) محاطة بتوقير زائف، ومبعدة عن كل عمل حقيقي، ولها مكانة اجتماعية أكثر تدنياً من المرأة البربرية الكادحة التي تعامل كسيدة حقيقية بين أهلها».

ويرد إنجلز هذا الوضع إلى اعتقاده بأن المرأة البدائية أو البربرية لا تخضع لسلطة ما يعرف بالزوج. ويستدل إنجلز على ذلك بما توصل إليه سلفه مورقان فيقول:

"Morgan, in agreement with most of his colleagues, arrives at a primitive stage when unrestricted sexual freedom prevailed within the tribe; every woman belonging equally to every man and every man to every woman."(2)

الترجمة: «توصل مورقان، كمعاصريه، إلى أن مرحلة بدائية اتسمت فيها حياة القبيلة بحرية جنسية غير مقيدة، فأي امرأة لأي رجل وأي رجل لأي امرأة».

---

(١) Engels, F, The Origin of the Family, Pivate Property and the State, Online Version, P. 3 of 12.

(٢) Engels, F, ibid, P. 3 of 9.

وقد ظهر نظام الزواج كما يعتقد إنجلز مع تطور موارد ووسائل الإنتاج التي أدت إلى ظهور الاحتكار، أدت الحاجة إلى الأيدي العاملة إلى ظهور احتكار النساء واستقلال كل رجل بأسرته تحت اسم الزواج. وأصبحت السلطة بيد الرجل، وأصبحت هوية الأبناء منسوبة إليه ومن ثم ظهر النظام الأبوي (Patriarchal).

ويرى إنجلز هذا النظام بداية النهاية لسلطة المرأة وإخضاعها لسلطة الرجل إذ يقول أخذاً عن مورقان:

"The overthrow of mother-right was the world historical defeat of the female sex. The man took command in the home also. The woman was degraded and reduced to servitude. She became the slave of his lust and a mere instrument for the production of children ... The establishment of the exclusive supremacy of the man shows its effects first in the patriarchal family.. The organization of a number of persons, bond and fee into a family, under patermal power, for the purpose of holding lands, and for the care of flocks and herds."(1)

الترجمة: «إن إلغاء حق الأم يمثل هزيمة العالم التاريخية لجنس الأنثى. فقد أمسك الرجل بزمام القيادة في المنزل أيضاً. وتم إذلال المرأة وتحويلها إلى خادمة. إذ أصبحت مستعبدة لميول الرجل، ومجرد أداة إنتاج للأطفال.. إن نشوء نظام السيادة المطلقة للرجل ظهرت آثارها أولاً في ظهور الأسرة الأبوية.. وفي تنظيم عدد من الأفراد، أحراراً وأرقاء، في شكل أسرة تحت السلطة الأبوية وذلك بهدف امتلاك الأرض، ورعاية القطعان».

---

(١) Morgan, H, Ancient Society: Researches in the Lines of Human Progress from Savagery through Barbarism to Civilization Quoted in Engels, ibid, P. 9 of 12.

ونلاحظ هنا أن إنجلز قد قام بتفصيل ما أجمله ماركس فقط حول استعباد الرجل للأسرة حين قال:

"This latent slavery in the family ... is the first property but even at this early stage it corresponds perfectly to the definition of modern economists who call it the power of disposing of the labour-power of others."(1)

الترجمة: «هذا الاسترقاق الكامن في نظام الأسرة.. هو أول مظاهر الملكية الفردية، ولكن، حتى هذا الطور المبكر يتطابق تماماً مع تعريف علماء الاقتصاد الجدد الذين أسموه بالقدرة على الاستفادة من قدرات الآخرين العملية».

وفي سعيه لتكريس مبدأ الصراع بين الرجل والمرأة يبدو إنجلز أكثر تطرفاً من ماركس في موقفه من الزواج. فهو يرى أن ظهور الزواج لأول مرة في تاريخ البشرية لم يكن المقصود منه التوفيق والشراكة بين طرفين، بل العكس من ذلك تماماً، يقول إنجلز:

"Quite the contrary. Monogamous marriage comes on the scene as the subjugation of the one sex by the other. It announces a struggle between the sexes unknown throughout the whole previous prehistoric period."(2)

الترجمة: «بل بالعكس، فحصر الزواج بامرأة واحدة حدث من أجل إخضاع جنس للآخر، إنه إعلان صراع بين الجنسين لم يعرف خلال كل مراحل ما قبل التاريخ».

ويقول إنجلز: «في الرسالة التي ألفناها أنا وماركس عام ١٨٤٦م يقصد

(١) Marx, K, The German Ideology (1846), quoted in Caute, D, op. cit, P. 122.

(٢) Engels, F, The Origin of the family, op. cit, P. 3 of 16

رسالة (الإيديولوجية الألمانية)، قلنا: إن أول شكل لتقسيم الأدوار كان بين الرجل والمرأة من أجل أن ينسب الأبناء لآبائهم الشرعيين». ويقول:

"And today I can add: The first class opposition that appears in history coincides with the development of the antagonism between man and woman in monogamous marriage, and the first class oppression coincides with that of the female sex by the male."(1)

الترجمة: «واليوم يمكن أن أضيف أن أول صراع طبقي ظهر في التاريخ هو الصراع بين الرجل والمرأة حينما تم حصر زواج المرأة برجل واحد (monogamous marriage)؛ وأن أول اضطهاد طبقي بدأ باضطهاد الذكر للأنثى».

ويعتقد إنجلز أن نزعة حب السلطة والامتلاك أدت إلى إلغاء نظام إشاعة الجنس، وبدأ ظهور احتكار المرأة مع ظهور القبلية، ثم الإقطاع، ثم فرض نظام الزوجة الواحدة للرجل وتحريم الطلاق في مرحلة الوهم الديني المسيحي، وفي ظل هذا الوضع أصبح الرجل سيداً والمرأة خادمة، أي إن الرجل يمثل البرجوازي بينما تمثل المرأة البروليتاري كما يعتقد إنجلز.

وإذا كان إنجلز مقتنعاً بأن الزواج استرقاق واضطهاد للمرأة، وبأنه يقوم على الصراع، فكيف يتسنى له إقناع مجتمعه المسيحي بقبول آرائه حول مؤسسة محاطة بهالة من القداسة؟ كيف يقنع مجتمعه بأن نظامه الأسري مخالف للطبيعة البشرية التي جبلت على الحرية الجنسية المطلقة وفق المفهوم الشيوعي؟

اتخذ إنجلز مما جاء في المانفستو من قذف لزواج البرجوازيين مدخلاً لزعزعة ما أقرته عقيدتهم، وصانته بالتشريعات والقيم وأصل له

(١) Engels, F, op. cit, P. 3 of 16

البروتستانت بالمثال العملي. فالمانفستو وصف البرجوازيين ضمناً بالنفاق، فبينما يقدسون الأسرة ويرتبطون بزوجة واحدة فإنهم يمارسون سراً إشاعة النساء على مستويات عدة. يقول المانفستو:

"Our bourgeois, not content with having the wives and daughters of their proletarians at their disposal, not to speak of common prostitutes, take the greatest pleasure in seducing each other's wives."(1)

الترجمة: «البرجوازيون، الذين لم يكتفوا بوجود زوجات وبنات عمالهم تحت تصرفهم، فضلاً عن ذكر من يمارسون الرذيلة عموماً، يجدون سعادة كبرى في إغواء زوجات بعضهم بعضاً».

واستناداً إلى هذا الاتهام حاول إنجلز أن يبرهن أن الزواج مخالف للطبيعة الإنسانية. يقول: بما أن الخيانة الزوجية والبغاء يعدّان وفق القانون المسيحي من المحرمات، فإن ارتكابهما يؤكد صحة ما ذهبت إليه الشيوعية من أن الدين وتشريعاته وهم من صنع الإنسان.. وإلا فكيف يخالف الإنسان تشريعات قوة أسمى غيبية إن كانت موجودة حقاً؟ فالإنسان في نظر إنجلز يصنع قوانينه الغيبية في حالة اغترابه ثم يخالفها حينما يعود لطبيعته الحقيقية.

وعليه، كما يعتقد إنجلز، فإن الخيانة الزوجية والبغاء سلوكيات تعبر عن الوضع الطبيعي للإنسانية وهو الحرية الجنسية. فالإنسانية كما تدعي الشيوعية لم تعرف في نقائها الأول (natural communism) حب التملك أو الغيرة أو الزواج أو القوانين والتشريعات الوهمية التي عكر بها الإنسان ذلك النقاء الطبيعي!

---

(١) Communist Manifesto, p78-79, in Caute, Eessential Writings of Karl Marx, op. cit, p P.29.

ويرى إنجلز أن المجتمع الرأسمالي، والبرجوازيين خاصة، وبسبب قيود التشريع الوهمي، سعى لممارسة سلوك طبيعي (إشاعة الجنس) عبر سبل يحسبها ملتوية وسرية، هذه السبل هي الخيانة الزوجية والبغاء. والبرجوازي بهذا السلوك لا يدري أنه يخرج من وضع غير طبيعي وهو الزواج - حيث يحبس ظلماً المرأة من ممارسة الحق ذاته - إلى ممارسة أمور طبيعية وهو يحسب أنه يرتكب إثماً محرماً. والشيوعية كما أشار المانفستو (النص (أ) أعلاه) تسعى لتحرير الإنسان من الشعور بالإثم وذلك بتقنين ما هو طبيعي (إشاعة النساء)، وإلغاء ما هو وهمي من صنع الإنسان (الزواج).

وفي سعيه لتكريس مبدأ الصراع بين الرجل والمرأة، يثير إنجلز قضية ظلم المرأة فيما يخص حقها في ممارسة السلوك الطبيعي للإنسانية أي (الحرية الجنسية). ويحدد إنجلز ثلاثة عوامل تؤدي إلى هذا الظلم.

العامل الأول: هو الزواج الذي يفرض خضوع المرأة الكامل لزوجها؛ فهي الخادمة والأم لورثة أملاكه. ويعزز هذا الخضوع امتلاك الزوج حق الإنفاق عليها. كما أن تشريعات الزواج تحصر علاقتها أبدياً بالزوج فقط، مما يؤدي إلى رقابة المجتمع على سلوكها وحركتها. أما الرجل فلا رقابة عليه، يقول إنجلز: إن دراسته لجميع أشكال الزواج أثبتت أن تطور هذه الأشكال عبر التاريخ:

"is connected with the peculiarity that women, but not men, are increasingly deprived of the sexual freedom of group marriage. In fact, for men, group marriage actually still exists even to this day. What for the woman is a crime entailing grave legal and social consequences is considered honourable in a man or, at the worse, a slight moral blemish which he cheerfully bears."(1)

---

(١) Engels, F, op. cit, P. 10 of 16.

الترجمة: «ارتبطت (أطوار شكل الزواج) بوضع غريب للمرأة، وهو أن النساء، وليس الرجال، كثيراً ما يحرمن من الحرية الجنسية المتاحة عبر زواج المجموعات. وفي الواقع إن هذا النوع من الزواج ما زال موجوداً إلى اليوم (يقصد عبر العلاقات غير الشرعية). إن ما يعدّ جريمة في حق المرأة تستحق عليها العقاب القانوني والاجتماعي، يعدُّ في حق الرجل مشرفاً أو، في أسوأ الحالات، خدشة أخلاقية بسيطة يحملها الرجل بسرور».

أما العامل الثاني: فيتعلق بوضع المرأة غير المتزوجة، فهي على الرغم من عدم خضوعها لزوج إلا أنها أسيرة التشريعات الدينية الوهمية من ناحية، وأسيرة الخوف من تبعات سلوكها المتمثلة في حمل أطفال غير شرعيين. وعليه تلغي هذه المرأة حقها الطبيعي في الحرية الجنسية خوفاً من أحكام السلطة الدينية الصارمة ونبذ مجتمعها لها.

أما العامل الثالث: فيتعلق بوضع المرأة الفقيرة. فهي تستغل الحرية الجنسية كسباً للرزق بجسدها. ومن ثم، كما يرى إنجلز، تكون هذه المرأة قد حولت هذا السلوك من كونه إنسانياً طبيعياً إلى وسيلة إنتاج، أي سلعة خاضعة لقوانين الإنتاج.

وعليه؛ فالمرأة عموماً في نظر إنجلز، تظل محرومة من حق طبيعي مقيدة إما بالزواج أو التشريعات والتقاليد، أو بضغوط الحاجة المادية. أما الرجل فوحده يعيش الوضع الطبيعي - وإن كان في سرية ونفاق - دون خوف مما يترتب على سلوكه دينياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو قانونياً أو نفسياً.

من هذا الطرح يتضح أن القضية الجوهرية بالنسبة إلى إنجلز هي حرية المرأة الجنسية. وقد جعل إنجلز من المرأة ضحية بائسة لنظام الأسرة

والزواج حيث أصبحت علاقتها بزوجها، وحملها وتربيتها للأطفال، وقيامها على رعاية أسرتها، عوائق دون تحقيق هذه الحرية، فما هي مقترحاته لإزالة هذه العوائق؟

يرى إنجلز أن الحل الجذري لاحتكار واسترقاق المرأة يكمن في القضاء على النظام الرأسمالي واستبدال النظام الشيوعي به عبر ثورة شيوعية في جميع دول أوربة. وهذا ما سماه (المانفستو) بحكومة البروليتاريا، وماركس (بدكتاتورية البروليتاريا).

ويعتقد إنجلز أن تطبيق البرنامج الشيوعي (المانفستو) سيضمن تنفيذ سياسات تشكل مطالب أساسية تمهد للتحرير الكامل للمرأة، وحدد إنجلز هذه السياسات في الآتي:

أولاً: ستلغي الشيوعية مقومات النظام الرأسمالي وهي الاحتكار والملكية الفردية، فالشيوعية ستحول، عبر التأميم والمصادرة، موارد ووسائل الإنتاج إلى ملك عام تشرف عليه حكومة البروليتاريا. وسيترتب على ذلك إلغاء جميع امتيازات الطبقة البرجوازية لتتساوى مع البروليتاريا.

ثانياً: ستلغي الشيوعية كل مظاهر الاسترقاق الناجمة عن الاحتكار سواء استرقاق الأفراد كالمرأة، أو المجموعات كالعاملين. وسيعتمد هؤلاء في معاشهم على النظام الاشتراكي الذي ترعاه الدولة.

ثالثاً: ستلغي الشيوعية الدين وما يتصل به من تشريعات وأنظمة وهمية ولاسيما الأسرة والزواج القائم على أساس الزوجة الواحدة في علاقة لا تنتهي إلا بالموت. وعليه يصبح الزواج علاقة يسمح في إطارها، ليس للرجال فقط كما يفعل البرجوازيون، ولكن للطرفين بإقامة علاقة أخرى في العلن. وهدف الشيوعيين من ذلك كما جاء في المانفستو:

"is to introduce, in substitution for a hypocritically concealed an openly legalized community* of women."(1)

الترجمة: «إدخال نظام يقنن علناً المشاركة في امتلاك النساء بدلاً عن ممارسة ذلك سراً نفاقاً (للمجتمع)».

رابعاً: بإلغاء الشيوعية للاحتكار ونظام الأسرة المنبثق عنه تنتهي سلطة الرجل والنظام الأبوي؛ كما يسقط عن الرجل واجب الإنفاق على الزوجة. ويرى الشيوعيون أن في إلغاء الإنفاق عاملاً جوهرياً في عملية تحرير المرأة.

هذه السياسات الأربع وما يترتب عليها تمثل، في اعتقاد إنجلز، الخطوة الأولى لانتزاع المرأة من هيمنة الزوج ووضعها على أعتاب المساواة الاجتماعية (Social equality). ولن يتحقق هذا النوع من المساواة إلا بالمساواة الكاملة بين الزوج والزوجة في الحقوق. يقول إنجلز:

"The necessity of creating real social equality between then (husband and wife) ... will only been seen ... when both posses legally complete equality of rights."(2)

الترجمة: «إن ضرورة خلق مساواة اجتماعية حقيقية بين الزوجين، ستتضح (للعين) فقط عندما ينال كلاهما المساواة الكاملة قانونياً في الحقوق».

ويرى إنجلز أن تحرير المرأة من الأسرة والنظام الأبوي في هذه المرحلة يكون تحريراً نظرياً فقط. أما تحريرها الحقيقي فيظل تحقيقه

---

* من معاني community في القاموس "Joint Ownership".

(١) Communist Manifesto, Quoted in Caute, D, Essential Writings of Karl Marx, op. cit. P. 229.

(٢) Engels, f, The Origin of the Family, op, cit, P. 10 of 16.

مرهوناً بشرط واحد، وهو تحريرها من التبعية الاقتصادية بدفعها للعمل. يقول إنجلز:

"Then it will be plain that the first condition for the liberation of the wife is to bring the whole female sex back into public industry, and that this in turn demands the abolition of the monogamous family as the economic unit of society."(1)

الترجمة: «ومن ثم (أي بعد تحقيق المساواة الاجتماعية والمساواة في الحقوق) سيكون واضحاً أن الشرط الأول لتحرير الزوجة هو إعادة كل الإناث إلى الصناعة العامة، وأن هذا بدوره يتطلب إلغاء اعتماد الأسرة ذات الزوجة الواحدة كوحدة اقتصادية في المجتمع».

يتضح من هذا النص أن الهدف الأساسي من تحرير المرأة ومساواتها بالرجل هو تفكيك نظام الأسرة بمفهومها المسيحي. فتحرير المرأة من التبعية الاقتصادية للرجل يتحقق بإجبار كل الإناث على العمل. وحتى تُجبر المرأة على الخروج يُحكم على الأسرة ذات الزوجة الواحدة بالإعدام اقتصادياً. ويشكل هذا ضغطاً لكسر قداسة العلاقة الزوجية والنظام الأسري وفتحه قسراً على نظام الشراكة العامة في النساء عبر الحرية الجنسية للطرفين. وهذا لعمري اختزال شيوعي لإنسانية المرأة، ومكوناتها الوجدانية والنفسية، وتطلعاتها الحياتية، في جزء من كل وهو الجنس.

ويبقى السؤال عن مصير تدبير شؤون الأسرة ومسؤولية رعاية النشء بعد انتزاع الأم، باسم التحرير، من عملها الخاص في بيتها إلى العمل

(١) Engels, F, ibid, P.10 of 16.

العام في المصانع، ومن خصوصية العلاقة الزوجية إلى فوضى الملكية العامة للنساء؟

ويجيب إنجلز عن هذا السؤال بأن الدولة، في ظل سلطة البروليتاريا، ستتولى عن المرأة كل مسؤولياتها الأسرية على النحو التالي:

> "Private housekeeping is transformed into a social industry. The care and education of the children becomes a public affair, society looks after all children alike, whether legitimate or not."(1)

> **الترجمة:** «إدارة شؤون المنزل ستتحول من مسؤولية خاصة إلى صناعة عامة. وتربية الأطفال ستصبح مهمة عامة فالمجتمع سيتولى رعاية جميع الأطفال شرعيين وغير شرعيين».

وبانتقال مسؤولية أعباء المنزل ورعاية الأطفال وتربيتهم من كنف الوالدين إلى مؤسسات الدولة، تكون دائرة عزل المرأة - تحريرها كما يتوهم الشيوعيون - قد اكتملت. فهل القصد من تحرير المرأة من احتكار الرجل لها لولادة ورثته وخدمة بيته هو تفريغها للعمل كسباً لعيشها وتنمية لقدراتها وخبراتها؟ إن إنجلز - الذي صاغ خطة هذا الانقلاب الشامل على نظام الأسرة الرباني - وحده قادر على الإجابة عن هذا السؤال. يقول إنجلز عن نتائج هذا التحرير الكامل للمرأة:

> "(It) removes all the anxiety about the "consequences" which today is the most essential social, moral as well as economic factor that prevents a girl from giving herself completely to the man she loves."(2)

---

(١) Engels, F, ibid, P. 11 of 16.

(٢) Engels, F, ibid, P. 11 of 16.

الترجمة: «إنه - أي التحرير الكامل للمرأة - يزيل كل القلق والخوف من النتائج، هذا القلق هو اليوم أهم عامل اجتماعي وأخلاقي واقتصادي يمنع البنت من أن تمنح نفسها للرجل الذي تحب».

وكأنما يريد إنجلز أن يقول: إن اعتماد البنت اقتصادياً على والدها، والتزامها بالقيم والأخلاق المركوزة في العقيدة، واحترامها لتقاليد وأعراف مجتمعها تشكل مصدراً لقلقها من نتائج علاقات هي غير مشروعة من منظور هذه الأطر الثلاثة بينما المسيحيون والمسلمون يرون هذه الأطر مصدر أمن وعزة للبنت. فاعتمادها اقتصادياً على والدها حق مشروع كفله نظام الأسرة الرباني، والتزامها بأمور دينها تنمي لديها الوازع الديني صمام الأمان لكل مؤمن، واحترامها لتقاليد وأعراف مجتمعها - الحميدة منها بالطبع - يعني استقرار المجتمع وسلامته. وبنت بهذه المكونات تعلم جيداً أن علاقتها بمن تحب تتم عبر هذه الأطر، فتكون ثمرتها أسرة تقوم على المودة والسكينة والرحمة.

أما إنجلز فيريدها بنتاً لامبالية بكل هذا. متحررة من الخوف؛ فالدولة الشيوعية ستحمل عنها كل هم وعبء، وحينما تندفع غير مبالية في هذه العلاقة تكون هنالك نتائج فرعية لسلوكها هذا. يقول إنجلز:

"will not that (removal of anxiety), suffice to bring about the gradual growth of unconstrained sexual intercourse and with it a more tolerant public opinion in regard to a maiden's honor and a woman's shame?"(1)

الترجمة: «ألا يكفي هذا (أي زوال الخوف والقلق) لإحداث زيادة مضطردة في الممارسات الجنسية المتحررة من

(١) Engels, F, ibid, P. 11 of 16.

كل وازع، ومعها (زيادة مضطردة) في ظهور رأي عام متسامح (أي لا يبالي) بشرف البنت وعار المرأة؟».

يتضح من هذه النصوص أن المستهدف الأساسي هو نظام الأسرة والزواج القائم على عقيدة وتقاليد المجتمع الأوربي، وأن تستبدل به إباحية مطلقة. وحتى لا تبدو هذه الإباحية بوجهها ومضمونها القبيح يحاول إنجلز أن يكسبها بعداً فلسفياً وتفسيراً منطقياً وذلك بردها إلى المادية الجدلية والدارونية. فقوانين هاتين النظريتين تقول: إن كل طور يولد وهو يحمل في طياته بذرة المرحلة التي تليه، وعليه افترض إنجلز أن مرحلة حصر الزواج بامرأة واحدة حملت في أحشائها بذرة مرحلة الحرية الجنسية المطلقة. يقول إنجلز مؤكداً حتمية زوال هذا الزواج:

"Here a new element comes into play, an element, which at the time when monogamy was developing, existed at most in germ: individual sex-love."[1]

الترجمة: «هنا يدخل عامل جديد ليؤدي دوره، فحينما كان الزواج بامرأة واحدة يتخذ شكله، كان هذا العامل الجديد كامناً في شكل بذرة. هذا العامل هو: حب الجنس الشخصي».

ويفسر إنجلز هذا العامل الجديد بقوله: إن نظام زواج المرأة الواحدة لا يأخذ في الاعتبار رغبات الطرفين فهو زواج منظم. فقبل ظهور الرأسمالية كانت الأسرة تختار الزوجة ولا يملك الزوج رأياً في ذلك. ولم يتغير الوضع في مرحلة الرأسمالية؛ فبالرغم من الحديث عن حرية الفرد ومسؤوليته عن أفعاله إلا أن عقد الزواج، بعد الاختيار الفردي، تشرف عليه مؤسسة (الكنيسة) فتفرض أبديته وتحرم الطلاق. ويقول إنجلز: إن

(١) Ibid, P. 11 of 16.

هذا الإجراء لا يراعي ميول ومشاعر الطرفين بل لم يراع حب الجنس الشخصي لأي منهما.

يقول إنجلز:

"But the intense emotion of individual sex-love varies very much in duration from one individual to another, especially among men. And if affection definitely comes to an end, or is supplanted by a new love separation is a benefit for both partners as well as for society."(1)

الترجمة: «لكن العاطفة القوية لحب الجنس الشخصي يختلف مداها من شخص إلى آخر ولاسيما بين الرجال. فإذا انتهت هذه العاطفة، أو استبدل بها حبٌّ جديد فإن الانفصال فيه مصلحة الطرفين والمجتمع أيضاً».

إن ما يرمي له إنجلز هنا ليس إباحة الطلاق الذي حرمته الكنيسة كما يبدو من ظاهر النص؛ وإنما يرمي إلى القول بعدم أهمية الزواج أصلاً مادام حب الجنس الشخصي وتقلباته تحتم الانتقال من شخص لآخر. وبما أن حب الجنس الشخصي يستوي فيه الطرفان فإنه يمثل الوسيلة المثلى لتحقيق المساواة الكاملة بين الجنسين. ولا يتم ذلك إلا بإلغاء الزواج واعتماد حب الجنس الشخصي أساساً لإقامة العلاقات بين الجنسين. يقول إنجلز:

«إن العلاقات بين الجنسين ستصبح أمراً خاصاً بشكل مطلق، سيكون ذلك من شأن الأفراد أصحاب العلاقة فقط، ولا يحتاج المجتمع إلى التدخل فيها، وهذا ممكن بفضل القضاء على أساسي الزواج المرتبطين

(١) Engels, F, ibid, p 11 of 16.

بالملكية الخاصة وهما ارتباط الزوجة بالزوج والأطفال بالآباء»[١].

هذا النص تأكيد على أن المستهدف هو الزواج وما يترتب عليه من قيام أسرة ترتبط فيها المرأة والأطفال بالرجل زوجاً وأباً. ولم يقدم إنجلز للإنسانية أي رؤية حول طبيعة وشكل المجتمع الذي يسعى إلى تأسيسه على هذه الأسس ويقول: إن ثمار تطبيق هذه النظرية وما يترتب عليها لا يمكن التنبؤ به إلا بعد الجيل الأول الذي سيطبقها. وقد تولى مهمة إخراج هذا الجيل المرتقب فلادمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤م) أول رئيس للدولة الشيوعية، والذي قال عن الأسرة:

«إن الأسرة وضع من أوضاع المجتمع لا يلائم مصلحة الدولة، فالأسرة تدعم النزعة الفردية والرغبة في التملك»[٢].

خلاصة القول: إن إنجلز استطاع صياغة سياسات المانفستو وآراء مورقان وماركس في نظرية اكتملت فيها كل متطلبات هدم المجتمع الإنساني؛ من إنكار لوجود الخالق، وإلغاء للملكية الخاصة، وتفكيك لمؤسسة الأسرة بإلغاء نظام الزواج.

وهذه النظرية من النظريات المادية اللادينية لم تأت من فراغ، ولم تكن ترفاً فكرياً أو تمريناً أكاديمياً. فقد صيغت كمثيلاتها، كما قال ماركس[٣]، لتؤصل للتوجه اللاديني المادي الذي بدأ في فرنسة في بداية القرن الثامن عشر.

فاستهداف الأسرة بدأ بالتطبيق العملي، مع انطلاقة الثورة الصناعية

---

(١) د. عميرة عبد الرحمن، المذاهب المعاصرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٧٠.

(٢) د. عميرة عبد الرحمن، المذاهب المعاصرة، مصدر سابق، ص١٧١.

(٣) انظر النص ص١٧٣، من هذا البحث.

واتجاه البروتستانت لحفظ التوازن بين سرعة التطورات الصناعية وجشع مالكيها وبين المحافظة على قيم المجتمع المسيحي في مجال الأسرة خاصة[١].

لم يكن غريباً أن محاولات الماديين لتفكيك الأسرة بدأت بالهجمة الشرسة على قيم البروتستانت واتهامها بأنها مصدر ظهور الهجمة، وجعلت من نفسها حامية للطبقة العاملة. وبما أن القضية تتعلق بقيم ونظام أخلاقي فقد تركزت استراتيجية الماديين في القضاء على هذه القيم والأخلاق في منابتها، أي في الأسرة حيث يستقيها النشء ويشب عليها.

وكان المدخل الأساسي لتحقيق ذلك العمل على انتزاع المرأة من أسرتها ودفعها للعمل لكسب عيشها بتضييق الخناق عليها اقتصادياً. وعليه لم يكن غريباً أن صدر في فرنسة عام ١٦٤٠م قانونان استهدفا المرأة بصفة خاصة. أحدهما قانون حرمان المرأة من الإرث على أن تؤول ممتلكاتها حين وفاتها لزوجها. والآخر قانون منعت بموجبه الصناعات المنزلية كالملابس ومنتجات الألبان والتي كانت تحقق للأسرة الاكتفاء الذاتي من هذه الاحتياجات بالإضافة لعائدها المادي. وكان الهدف من هذه القوانين الضغط على النساء للخروج إلى العمل في المصانع، ولاسيما أن أجر الزوج لم يكن متكافئاً مع ما يقوم به من عمل ليغطي حاجات أسرته.

ومن أجل تحقيق استجابة اجتماعية لخروج المرأة للعمل بدأ الماديون بالانحراف بقيم البروتستانت التي تدعو للمسؤولية الفردية القائمة على الضمير اليقظ والاستقامة الأخلاقية والاستقرار الأسري. فتحولت أفكار

---

(١) الواقع تاريخياً أن غالب أثرياء أوربة من ملوك الصناعات، والرأسماليين من اليهود، وليس البروتستانت.

فلاسفة البروتستانت، أمثال جون لوك (١٦٣٦-١٧٠٤م) التي تدعو لاحترام الحرية الفردية في الدين والفكر والسياسة، إلى دعوة لحرية مطلقة على يد الماديين. وظهرت في القرن الثامن عشر شعارات الحرية والمساواة التي تم استغلالها استغلالاً متطرفاً في مجال السعي إلى تحرير المرأة وتفكيك الأسرة. كما ظهرت شعارات تحرير المرأة ومساواتها بالرجل. وكانت بداية تنظيم هذا الاتجاه في شكل تنظيمات نسوية عند قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، من هذه التنظيمات وأشهرها (نادي المواطنات الثوريات).

وإذا كان ما جاء في بروتوكولات صهيون صحيحاً، أي قولهم: (تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها الكبرى. إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا»[١]، فإن المرء لا يستغرب فرحة ماركس وهو يصف باريس وقد خلت ممن وصفهم بالمحافظين، ورجال الدين، ومقدسي الأسرة والملكية الخاصة:

"In their stead, the real women of Paris showed again at the surface - heroic, noble, and devoted, like the women of antiquity."[2]

الترجمة: «وبدلاً عنهم - أي رجال الدين والملكية الخاصة والأسرة - ظهرت نساء باريس الحقيقيات إلى السطح، وكلهن بطولة، ونبل، وولاء مثل نساء الأزمان الغابرة».

من الواضح أن العبارة تستبطن وضع المرأة لا في مساواة مع الرجل

---

(١) محمود ثابت الشاذلي: الماسونية عقدة المولد وعار النهاية، مرجع سابق، ص٢٤٢.

(٢) Caute, D, Essential Writings of K. Marx, op, cit, P. 214.

كما تقول الشعارات، ولكن في مواجهة تسعى إلى إقصاء الرجل الذي يحمل في وجدانه ومكوناته الروحية والنفسية أهم مقومات التكوين الإنساني أي الدين والأسرة والكدح لامتلاك ما ينفقه عليها.

فهل كانت الثورة الفرنسية التي رفعت شعار الحرية والمساواة والإخاء بداية لتمكين التوجه المادي اللاديني في أوربة؟ يقول المودودي تأكيداً لذلك:

«فجاءت الثورة الفرنسية، تبطل كثيراً من النظريات الخلقية القديمة، وتهدم القواعد المدنية والدينية العتيقة.. وما إن فرغ رجال الثورة من إبطال المبادئ الخاطئة للتعاليم الخلقية المسيحية، حتى أنحوا بمعول انتقادهم على التصورات الأساسية لنظام الأخلاق الإنسانية، يجرحونها ويشككون فيها ويتساءلون: ما هذا العفاف؟ وما هذا الظلم والتضييق على الشباب بقيود التقوى؟ وأي نازلة تنزل بالأرض إن أحب المرء حبيبة من دون زواج؟ ثم إذا تزوج المرء فهل يفارقه قلبه، حتى يحرم عليه الحب فيما بعد..؟»[١].

ويقدم المودودي تفصيلاً دقيقاً لمظاهر انتزاع المرأة من أسرتها في القرن الثامن عشر باسم الحرية والمساواة، والزج بها في كل ما من شأنه أن يهدم الأخلاق والقيم التي عرفها مسيحيو أوربة. فإلى جانب استهلاكها في العمل بأجر يقل كثيراً عن أجر الرجل، تم استغلالها في الترويج للسلع، وفيما ابتكر من أنواع الملاهي والتبرج والاختلاط الإباحي المبتذل.

وتأتي نظرية إلغاء الأسرة في منتصف القرن التاسع عشر لتكسب هذا النمط الحياتي الجديد سنداً فلسفياً بديلاً لما تم هدمه من قيم الدين

---

(١) أبو الأعلى المودودي، الحجاب، مصدر سابق، ص٥٢-٥٣.

والتقاليد الحميدة. وبذلك تكون نظريات إقامة النظام العالمي الجديد آنذاك، من إنكار لوجود الله ووحي السماء، وهدم كل نظام قام على أساس الإيمان بالله والغيب بما في ذلك نظام الأسرة التي تشكل لبنة أساسية في النظام الاجتماعي، قد اكتملت دعماً للتطبيق العملي السابق لها.

إيميل دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٦م)

إن آثار الثورة الصناعية في أوربة الغربية في شكل ووظيفة الأسرة ووضعها المادي يمكن التصدي لها ولنتائجها السالبة بتكامل دور الدولة والمجتمع والأسرة. كما يتم ذلك أيضاً عبر إقامة الأنظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على ذات الأصول الدينية والقيم والتقاليد الحميدة مما يضمن استقرار المجتمع وسلامة الأسرة.

وقد اجتهد البروتستانت عبر تأصيل دور الأسرة في حفظ التوازن بين مؤثرات النهضة الصناعية والتوجهات اللادينية المادية وبين القيم والنظام الأخلاقي الذي طوره كال؟ن بعد حركة الإصلاح الديني.

وكان من قدر الغرب أن يستأسد في التوجه المادي اللاديني وتكون له الغلبة. وتعود أسباب ذلك إلى الغياب التاريخي لأي فلسفة أو فكر كنسي كاثوليكي أو أرثوذكسي يتعلق بنظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي. كما أن اجتهادات البروتستانت (تحت مؤثرات الفكر الإسلامي كما تم توضيحه)، والتي أطلقت حرية العقل والفكر في إطار نظامهم الأخلاقي، وكان لها دور في إحداث الثورة العلمية والصناعية، لم تتح لها الفرصة لوضع أطر روحية فكرية تكون أساساً لقيام نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي سليم، فقد أخذ التوجه المادي زمام المبادرة وحاصر هذه الاجتهادات بمهاجمة البروتستانت ونظامهم الأسري وتعاليمهم الأخلاقية

تحت اسم (الطبقة البرجوازية). وفي محاولة لا ينقصها الدهاء استدل هؤلاء الماديون على فلسفة فصل الدين عن الدولة من ذات المصادر الروحية لجميع المسيحيين بما نسب إلى المسيح، إن صح، قوله: «اتركوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر» وذلك دون محاولة لفهم المرامي الذكية لهذه المقولة مقروءة في إطارها الزماني والمكاني.

وما كاد دعاة المادية يفرغون من دفع الحياة في دول أوربة الغربية نحو الدنيوية اللادينية بإقامة المؤسسات ووضع النظريات حتى فوجئوا ببوادر انهيار المجتمعات تحت وطأة سرعة التطور الصناعي وآثار انتشار مفاهيم الفكر المادي التي طالت الدين، والأسرة، والأخلاق، والإنسان، وعليه بدؤوا في البحث عن وسائل وقيم جديدة لمعالجة ما أسموه بالانهيار الاجتماعي.

فظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسة خاصة، مجموعة من العلماء اختصوا بهذه المهمة، ومن رواد هذا المجال أوغست كومت (١٧٧٥-١٨٥٧م)، وهربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣م).. إلخ، أما أكثر هؤلاء أثراً فكان اليهودي الفرنسي إيميل دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٦م) الذي طور أفكار سابقيه بصورة متكاملة وهو يُعَدُّ بحق مؤسس علم الاجتماع في أوربة. وهؤلاء جميعاً بمن فيهم دوركهايم من العلمانيين الذين تأثروا بنيتشه وهيجل وماركس.

وتعود أهمية دوركهايم فيما يخص تغيير مفهوم الأسرة إلى ما قدمه من تحليل ومعالجات للانهيار الاجتماعي في أوربة الغربية وفرنسة خاصة، اعترف دوركهايم بالآثار السلبية للفكر المادي والثورة الصناعية التي حدثت حسب قوله في فترة وجيزة وبسرعة وحجم غير مسبوقين في التاريخ، وعن هذه الآثار يقول:

"Profound changes have occurred in the structure of our societies in a very short time ... Our faith has been disturbed; tradition has lost its sway; individual judgment has become free of collective judgment ..."(1)

الترجمة: «متغيرات عميقة في مكونات مجتمعاتنا حدثت في فترة وجيزة جداً.. فعقيدتنا اهتزت، وتقاليدنا فقدت سطوتها، وأصبح القرار الفردي متحرراً من رأي الجماعة».

ويلاحظ دوركهايم انتشار ظواهر غير مألوفة، مثل ظاهرة الانتحار التي انتشرت في القرن الثامن عشر، وأصبحت في القرن التاسع عشر على حد قوله مشكلة اجتماعية خطيرة، في فرنسة وبلجيكة وألمانية وإيطالية. ووضع دوركهايم دراسة عن ظاهرة الانتحار متأثراً بانتحار أعز أصدقائه عالم الاجتماع فيكتور هومي.

وثمة ظاهرة أخرى عدها دوركهايم من سمات تحلل المجتمع، وهي ظاهرة الطلاق، وانخفاض نسبة المواليد في فرنسة التي أثارت، كما أشار دوركهايم، اهتمام الفلاسفة وعلماء الإحصاء والاقتصاد والكنائس، وعلل دوركهايم انتشار هذه الظواهر بالمتغيرات التي حدثت في المجتمع. وفيما يخص طريقة معالجتها ومعالجة التفكك الاجتماعي عامة يقول دوركهايم :

"The remedy lay neither in outdated traditionalist beliefs and institutions, nor in speculative and utopian social schemes; the only way to solve the difficulties of these critical times, was the scientific way ... It is necessary to find a remedy to the dissolution of social bonds

---

(١) Lukes, S, Emile Durkheim. His life and Work, A Historical and Critical Study, Penguin Books, England, 1973. P. 165.

within a social context shaped by liberal and humane values."[1]

الترجمة: «إن العلاج لا يكمن في معتقدات وأنظمة بالية، ولا في خطط فكرية مثالية. إن الحل الوحيد لمشاكل هذه الأزمان الحرجة، هو الطريقة العلمية.. من الضروري إيجاد علاج لتحلل الروابط الاجتماعية في سياق اجتماعي يُشكل بقيم إنسانية ليبرالية».

وبالرغم من اعترافه بدور الدين والأنظمة التقليدية المركوزة فيه في تماسك المجتمعات سابقاً بسبب وحدة الإيمان والشعائر والقيم، إلا أن دوركهايم يرفض الدين وما يتصل به بوصفه أساساً لمعالجة التحلل الاجتماعي. فموقفه من الدين نيتشوياً، هيجيلياً، داروينياً، شيوعياً، فالدين في نظره مرحلة من مراحل تطور الخيال الإنساني البدائي في تعامله مع الطبيعة وعناصرها، وعجزه عن فهمها.

ومع تطور العلوم الطبيعية كما يرى دوركهايم أصبحت توهمات الغيب والرموز والطواطم خاضعة لسلطان العقل ومقاييس العلم الطبيعي. وبروح داروينية يقول دوركهايم بحتمية زوال طور الدين، وظهور الدين البديل لمجتمع بديل. فالعقل الجماعي الغيبي الذي أنتج الدين في فجر الإنسانية، يتطور مع التطور المادي الصناعي فيصبح دنيوياً (Secular)، إنسانوياً (human-oriented)، عقلانياً (rationalist)، وفردياً (Individualist). وكلما ابتعد الوعي الجماعي عن الدين والغيبيات اتجه نحو عقيدة الفردانية (Individualism)، يقول دوركهايم:

"As all the other beliefs and practices, take on an in-

---

(١) Luke, S, ibid, P. 199.

creasingly less religious character, the individual becomes the object of a sort of religion."(1)

الترجمة: «كلما ابتعدت المعتقدات والأفعال عن الصفة الدينية، أصبح الفرد في ذاته موضوعاً لنوع من الدين».

ويقول عن عقيدة الفردانية:

"The human person ... is considered sacred.. It has something of that transcendental majesty which the churches of all times have given to their Gods... It is a religion of which man, at the same time, is both believer and God."(2)

الترجمة: «الإنسان سيعدُّ مقدساً.. له شيء من ذاك التقديس السامي الذي أكسبته كنائس جميع الأزمنة لآلهتها.. إنه دين يصبح فيه الإنسان في الوقت ذاته المؤمن والإله معاً».

وعليه لن يكون هنالك حاجة لإله أو تشريعات ربانية لتوحيد المجتمع وحفظ تماسكه. فعقيدة الفرد كما يقول دوركهايم تصبح:

"The sole link which binds us one to another, the only system of beliefs which can ensure the moral unity of the country - 'a new religion which has for its first dogma the autonomy of reason and for its first rite freedom of thought, and which 'has all that is required' to speak to its believers in a tone that is no less imperative than the religion it replaces."(3)

الترجمة: (وتصبح عقيدة الفرد) هي الرابطة الوحيدة التي تربط بعضنا بعضاً، (وستكون) النظام العقائدي الوحيد

---

(١) Lukes, S, ibid, P. 156.

(٢) Lukes, S, ibid, P. 340-431.

(٣) Lukes, S, ibid. P. 166-167.

الذي يضمن الوحدة الأخلاقية للبلاد. (وستكون) ديناً جديداً ركن عقيدته الأول تحكيم العقل، وطقسه الأول حرية الفكر، ويملك كل ما يحتاجه لمخاطبة المؤمنين به بنبرة لا تقل إلزاماً عن الدين الذي ستحل محله».

فالفردانية بهذا الطرح تتخذ من العقل إلهاً ومن الحرية المطلقة للفكر شعائرَ، وعليه يصبح الفرد إلهاً ومشرعاً وعبداً مؤمناً مطيعاً.

ويبقى السؤال: هل يمكن أن نتصور مجتمعاً يتراص فيه الناس بحيث لا يجمع بينهم سوى العقلانية وحرية التفكير؟ هل يستوي الجميع في قبول ما ينتجه العقل المجرد والفكر الحر من قيم وأنظمة وتشريعات ونظام أخلاقي؟ ماذا عن طبيعة الإنسان، وإرادته، ووجدانه ومشاعره ورغباته؟

يجيب دوركهايم عن كل هذا بالرفض التام لتدخل طبيعة الفرد ومكوناته الروحية والنفسية في أنظمة المجتع وتنظيم علاقاته. فمكونات الإنسان الروحية والنفسية يراها دوركهايم أمراً خاصاً بالفرد، وموجودة فيه منذ مولده وجميعها كما يقول (Pre-social) أي سابقة لانخراط الفرد في المجتمع، كما أن المشاعر والرغبات والانفعالات تعدّ أيضاً حالات خاصة. وليس من اختصاص علم الاجتماع وتنظيم المجتمع مثلاً أن يحلل لماذا انتحر هذا الفرد أو ذلك، لأن ما يتعلق بالنفس من اختصاص علم النفس؛ وذلك لأن مكونات الإنسان في نظر دوركهايم ما هي إلا انعكاسات ذهنية فردية (Individual mental states or dispositions). وهنا يكون السؤال لدوركهايم: هل سيتعامل علم النفس مع المريض دون أخذ مجتمعه وبيئته التي نشأ فيها في الاعتبار؟

وإذا كان هذا مفهوم دوركهايم للفرد فما موقفه من الأسرة وعلاقة هذا الفرد بها؟

الجواب: من منظور داروني يرى دوركهايم أن التحولات التي طرأت على شكل الأسرة ووظيفتها التربوية ومكانتها الدينية تطور حتمي، ولابد من تطوير وضع بديل يتفق ومتطلبات المرحلة الجديدة.

ونلاحظ أن مفهوم دوركهايم للأسرة ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهومه للفرد. فالفرد كما هو واضح عند دوركهايم ينبغي أن يكون علمانياً عقلانياً حراً ملتزماً بالقانون والأنظمة الإنسانوية التي ستحل محل أنظمة وتشريعات الدين الذي اكتسبه في طفولته، من أسرته.

هذا المخلوق المستحدث يحتاج لأسرة بديلة تتولى صياغته وفق متطلبات المجتمع الجديد، هنا يركز دوركهايم على النظام التعليمي والمعلمين والعمل بديلاً للأسرة، ويشكل ما كتبه دوركهايم حول هذه العناصر الثلاثة نظرية متكاملة لبناء مجتمع مادي، علماني، عقلاني، حر بلا حدود، وله نظمه وقوانينه الوضعية. ونورد بإيجاز آراءه حول هذه العناصر كأسر بديلة مهمتها إعداد فرد بمواصفات هذا المجتمع وعلاقة هذا بمفهومه للأسرة.

إذا كان إنشاء المجتمع العلماني مسؤولية الدولة كما يرى دوركهايم، فإن مسؤولية إعداد الفرد العلماني وإدماجه في هذا المجتمع تقع أيضاً على عاتق الدولة وذلك عبر فرض نظام تعليمي علماني (Secular Education)، ويتم ذلك عبر إلغاء التعليم الديني، والمفاهيم الدينية الغيبية في جميع العلوم، ومن ثم وضع بدائل لذلك، يقول دوركهايم في عبارة صارمة:

"It was no good merely stripping away the religious elements in traditional beliefs and practices; morality and religion had been too inextricably bound together in history ... for the separation to be so easily consummated. The need was to discover the rational substitutes

for those religious notions ... It was not enough to cut out, we must replace."(1)

الترجمة: «ليس من المستحسن أن نزيل فقط العناصر الدينية في المعتقدات والممارسات التقليدية؛ فالأخلاق والدين تاريخياً مرتبطان معاً بصورة لا يسهل معها فصلهما.. فالمطلوب هنا اكتشاف البدائل العقلية لهذه الأفكار الدينية، لا يكفي فقط أن نقطع؛ يجب أن نستبدل».

وقد كان لدوركهايم دور كبير في عملية القطع والاستبدال هذه. فمنذ العام ١٨٨٠م دفعت سلطات التعليم في فرنسة بمجموعة من الفلاسفة الماديين أمثال ماريون واسبيناز وبيسون، وعلى رأسهم دوركهايم، لوضع مناهج علمانية في شتى العلوم للمدارس والجامعات، كما أسس دوركهايم جمعيات من أساتذة وطلاب الجامعات والمعلمين في مختلف المدن الفرنسية منابر لمناقشة العلوم المستحدثة. وتم تعيين فرديناند بيسون مديراً للتعليم الابتدائي حيث قام بالإشراف على تطبيق المناهج الجديدة في المدارس الابتدائية في الفترة من العام ١٨٧٩ إلى العام ١٨٩٦م. وتمت ترقيته رئيساً لكلية التربية في جامعة السوربون ليخلفه دوركهايم عام ١٩٠٢م.

يعد دوركهايم المعلمين الأداة الأساسية في إعداد الفرد العلماني في جميع مراحل التعليم فيقول:

"The schoolmaster was the secular successor to the priest, deriving his authority from that wider morality which he represented in the school; ... Just as the priest is the interpreter of God. So he is the interpreter of the great moral ideas of his time and country."(2)

---

(١) Lukes, S, Ibid, P. 111-112.

(٢) Lukes, S, ibid, P. 116.

الترجمة: «إن مدير المدرسة هو البديل العالماني للكاهن، يستمد سلطته من النظام الأخلاقي العريض الذي يمثله في المدرسة.. فمثلما الكاهن هو المفسر للإله فهو المفسر للأفكار الأخلاقية العظيمة في زمانه وبلده».

ويؤكد دوركهايم على ضرورة التركيز، في نشر العالمانية، على مرحلة التعليم الابتدائي حيث يقول:

"We have here a unique and irreplaceable opportunity to take hold of the child ... This is virgin territory in which we can sow seeds that, once taken root, will grow by themselves."(1)

الترجمة: «الدينا هنا فرصة نادرة لا بديل لها لنسيطر على الطفل.. إنه أرض عذراء يمكننا وضع البذور فيها، وبمجرد أن تثبت جذورها ستنمو بنفسها».

والسيطرة على الأطفال وزرع العالمانية في عقولهم تتطلب مزارعاً ماهراً، وعليه يتطلب ذلك، كما اقترح دوركهايم، تعليم المعلمين أنفسهم، يقول:

"The schoolmasters must be shown what new ideal they should pursue and encourage their pupils to pursue, for that is the great desideratum of our moral situation."(2)

الترجمة: «يجب أن نوضح للمعلمين ما المثال الجديد الذي ينبغي أن يتطلعوا لبلوغه، وأن عليهم تشجيع تلاميذهم

---

(١) Lukes. S, ibid, P. 355.

(٢) Lukes, S, Ibid. P. 355.

لبلوغه أيضاً، لأن هذا هو المطلب الأساسي لوضعنا الأخلاقي».

فالمطلوب هو أن ينتقل المعلمون بالأطفال من المعتقدات والمفاهيم والقيم التي نشؤوا عليها في حضن أسرهم، إلى المفاهيم العلمانية الجديدة. ويرى دوركهايم أن أنجع السبل لتحقيق ذلك هو استخدام وسيلة العقاب الذي يشكل الإدانة، أو التحفيز الذي يشكل القبول لموقف التلاميذ من المفاهيم الجديدة. والعقاب رسالة قوية - كما يقول - للتلاميذ للاستسلام للمعلمين. وهذا النهج يتناقض تماماً مع دعوة دوركهايم لحرية التفكير ومع بعض آرائه حول الديمقراطية وسيلةً للتعبير عن الرأي.

وواضح هنا أن حرية الفكر مكفولة فقط للفكر العلماني المفروض بواسطة الدولة ونظامها التعليمي، وما على الناس إلا الخضوع له ولو بالعصا، كما يتضح أيضاً أن لا فرق بين ديكتاتورية البروليتاريا الراعية للتوجه اللاديني الشيوعي، وديمقراطية تداول السلطة التي دعا لها دوركهايم على أن تمارس السلطة المنتخبة ديكتاتورية فرض العلمانية وحماية مؤسساتها بما فيها التعليم ومناهجه. وعليه فالنظام الاشتراكي الشيوعي الذي سيطر على أوربة الشرقية (الثورة البلشفية ١٩١٧م)، والنظام العلماني الليبرالي الديمقراطي شكلاً الذي سيطر على أوربة الغربية منذ خواتيم القرن التاسع عشر إلى اليوم، ما هما إلا وجهان لعملة واحدة، ونسوق هنا شهادة الكاتب الماركسي بول نيزان معلقاً على إنجاز دوركهايم حيث قال:

"What he (Durkheim) produced amounts to a distinctive form of liberal and reformist socialism famed in secularist terms."(1)

---

(١) Qouted in Lukes, S. ibid. P. 356.

الترجمة: «ما أنتجه (دوركهايم) يمثل شكلاً متميزاً معدلاً لاشتراكية ليبرالية مؤطرة في مصطلحات علمانية».

وهكذا يكون التعليم والمعلمون بديلاً للأسرة؛ يعيدون صياغة الأطفال وفق مفاهيم العلمانية اللادينية في الغرب كما يفعل الشيوعيون في الشرق الأوربي.

أما فيما يختص بالعمل بديلاً للأسرة فإن دوركهايم يعدّه مرحلة تلي مرحلة التعليم، وتمثل انتقال الفرد إلى حضن المجتمع. وعليه فلابد أن يكون مكان العمل وسيلة أخرى لإدماج الفرد في النظام العلماني. وهنا ينبغي تغيير مفهوم العمل من وسيلة كسب من أجل الأسرة والبيت إلى الكسب من أجل الفرد لذاته.

ويستدرك دوركهايم أن الإنسان بطبعه ميال لوجود غاية لأفعاله، وأنه يحس بقيمة عمله حينما يخدم هدفاً خارج حدود ذاته، وعليه يقول:

"When the (individual) takes himself as his end he falls into a state of moral misery which leads him to suicide. Thus there was a need for a functional alternative to the family, something other than personal and domestic interest, ... deriving from some other group outside the family ... Marriage was too impermanent to provide such an object of attachment since it was dissolved by death in each generation. The only group which could perform this function was the occupational or professional group ... "In the hearts of men, professional duty must take over the place formerly occupied by domestic duty."[1]

الترجمة: «عندما يجعل الفرد من نفسه غاية فإنه

---

(١) Lukes, S, ibid, P. 185.

يصاب بتعاسة روحية تدفعه للانتحار. وعليه فهنالك حاجة لبديل عملي للأسرة، بديل غير المصلحة الأسرية الذاتية، بديل متخذ من مجموعة خارج إطار الأسرة.. الزواج لا يصلح بديلاً لأنه لا يدوم وينتهي بالموت في كل جيل.. إن المجموعة الوحيدة التي يمكن أن تؤدي هذه الوظيفة هي مجموعة العمل أو الوظيفة.. إن الواجب الوظيفي ينبغي أن يحتل في قلوب الرجال المكان الذي كان يحتله الواجب الأسري».

إن مفهوم الأسرة والبيت بوصفه غاية يعمل من أجلها الفرد في نظر دوركهايم مفهوم ديني قديم، أما مفهوم المجتمع العلماني العقلاني فيقول عنه:

"It does not attach our activity to ends which do not concern us directly; it does not make us into servants of imaginary powers of a nature other than our own ..."(1)

الترجمة: (إن المجتمع العلماني) «لا يربط أنشطتنا بغايات لا تعنينا مباشرة، ولا يجعلنا عبيداً لقوى خيالية ذات طبيعة مختلفة عن طبيعتنا».

فبفضل المفاهيم العلمانية، ودور التعليم، وبيئة العمل، واتساع المجتمع بفضل الثورة الصناعية، أصبح من اليسير تجريد الإنسان من المفاهيم التي تجعل أسرته وبيته ورضاء الله أسمى غاياته، سيصبح الفرد العبد والمعبود ابن تعليمه وبيئة عمله، وينبغي أن تتلاشى عناصر النسب البالية التي ترد الإنسان إلى أسرته وقبيلته، ففي المجتمع العلماني كما يقول دوركهايم:

---

(١) Lukes, S. P. 157.

"Individuals are here grouped no longer according to their lineage, but according to the nature of the social activity to which they devote themselves. Their natural and necessary environment is no longer the place of birth, but the place where they work."(1)

الترجمة: (في المجتمع العلماني) «لا يتم تنظيم الأفراد وفقاً لنسبهم الأسري، ولكن وفق طبيعة العمل الذي يمارسونه في المجتمع ويكون ولاؤهم له. فبيئتهم الطبيعية والضرورية لم تعد مكان ميلادهم ولكن مكان عملهم».

وبزوال الروابط المركوزة في الدين والتقاليد، وباستبدالِ نظام التعليم وبيئة العمل بدور الأسرة، تنتشر العلمانية الإنسانوية (Secular humanism) وتكسب صفة العالمية (Universal)، متحررة من قيود المحلية الدينية والثقافية التي ستصبح أموراً شخصية بحتة لا مجال لتدخلها في تشكيل المجتمع وأنظمته بما في ذلك نظام الأسرة.

وبنظرة داروينية يطالب دوركهايم الأسرة أن تخضع كغيرها من الأنظمة لقوانين التطور والنشوء، وأن تترك المجال لبدائلها المحتومة. إلا أنه، وباختلاف جذري مع الشيوعية، لم يطالب بإلغاء الأسرة وإشاعة الجنس. بل إن دراسته لظاهرة انتشار الطلاق والانتحار في دول أوربة الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر دفعته للاعتراف بأهمية الأسرة في التصدي لهذه الظواهر.

وهنا يظهر كثير من التناقضات في فكر دوركهايم، فتطرفه العلماني يمنعه من رد أسباب هذه الظواهر إلى عوامل زعزعة العقيدة ومفهوم الأسرة والضغوط الاقتصادية، كما يدفعه مفهومه للإنسان؛ بأنه شيء مادي مجرد من الوجدانيات والشعور والرغبات، إلى رفض التحليل

(١) Lukes, S, Ibid, P. 154.

النفسي لهذه الظواهر، وذلك لأن هذا التحليل النفسي سيردها، شاء دوركهايم أم لم يشأ، إلى العوامل المشار إليها وما يرتبط بها من علاقات اجتماعية وإلى دورها في التكوين والتأثير النفسي على الفرد.

ولتفادي هذه (الردة) يسمح دوركهايم بدور للأسرة سماه (بالصغير) و(البدائي) يمكن أن تقوم به لتفادي هذه الظواهر، ويتلخص هذا في دعم الأسرة المعنوي والروحي لأفرادها الذين أصبحوا ملكاً للدولة العلمانية وأنظمتها وما يترتب على ذلك من ضغوط التحول الراديكالي الذي يفرضه هذا النظام، يقول دوركهايم عن هذا الدور:

"It has, (the family), the task of affording them (Its members) help in the efforts they make ... of stimulating them and guiding them, of restraining them and comforting them. It has the task of exercising over the whole of our life a moral influence which is of the utmost importance. That is its true function."(1)

الترجمة: «على الأسرة واجب تقديم المساعدة لأفرادها فيما يقومون به من جهد.. وعليها تحفيزهم وإرشادهم وكبحهم والتخفيف عنهم.. ويجب عليها إحداث تأثير أخلاقي وروحي على كل أوجه حياتنا، وهو أمر جد مهم، وهذه هي وظيفتها الحقيقية».

إلا أن دوركهايم الذي جرد المجتمع كله من الدين وأنظمته وقيمه، وأسقط عن الإنسان مكونات النفس من وجدان، وشعور، ورغبات، لم يوضح كيف ستؤدي الأسرة هذا الدور الصغير البدائي، ومن أي المنابع ستستمد مكونات الدعم الروحي والمعنوي، والأخلاقي لأفرادها؛ ذات الأفراد الذين سلختهم علمانية دوركهايم من جذورهم وأسرهم وصاغتهم

---

(١) Lukes, S, ibid, P. 533.

على هواها في المدارس ومواقع العمل؟ يقول جون إزوليت أحد معاصري دوركهايم:

"The obligation of teaching the sociology of Durkheim in the 200 ?coles normales of France is the gravest national peril our country has known for a long time."(1)

الترجمة: «إن فرض تدريس علم الاجتماع الذي وضعه دوركهايم في مدارس فرنسة المئتين هو أخطر كارثة قومية، لم تعرف بلادنا (مثلها) منذ زمن بعيد».

توفي دوركهايم عام ١٩١٦م في وقت بدأت فيه أذرع التوجه المادي اللاديني الإنسانوي تحكم قبضتها على أوربة الغربية وأمريكة، وبعد وفاته بعام احتوت الشيوعية أوربة الشرقية عبر الثورة البلشفية عام ١٩١٧م.

كانت بداية القرن العشرين مرحلة انطلاق بمشروع العلمانية الإنسانوية نحو آفاق جديدة، خاصة على المستوى العلمي التقاني والصناعي، فبينما التطور العلمي ينتقل من إنجاز إلى آخر كان الإنسان الغربي تائهاً في دوامة إرباك العقيدة والقيم وقلب المفاهيم. وكلما تصاعدت وتيرة النهوض المادي تسارعت خطا الانحدار بإنسانية الإنسان، وكرامته، ومقاصد وجوده في الكون. ويبدو أن الشيوعية استعاضت عن فشلها في إقامة ديكتاتورية البروليتاريا في فرنسة وإنجلترة وألمانية باستهداف البنية الاجتماعية لهذه المجتمعات، فتصاعدت مظاهر الإباحية، واستحداث الوسائل والإغراءات واستهداف المرأة بوصفها أداةً أساسية في تنفيذ هذه الاستراتيجية.

وإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد مرحلة ظهور فلاسفة المادية

---

(١) Lukes, S, ibid, P. 364.

اللادينية فإن العقود الأولى من القرن العشرين دفعت بموجة من فلاسفة الإباحية وأدبائها وممثليها، وتبنى هؤلاء الدعوة للانفلات الأخلاقي باسم الحرية مستهدفين الزواج بحسبانه قيداً لها.

وقد أدت عوامل التحليل الأخلاقي مع ما أفرزته الحروب العالمية التي خاضتها أوربة إلى آثار غير مسبوقة على الأسرة، فالآثار فيها لم تقف عند حدود تغيير الشكل والوظيفة والمعاناة الاقتصادية، فقد بدأت غالبية الأسر تنهار تدريجياً تحت مطرقة التحولات الفكرية والمادية والسلوكية، تقول بيرجر:

"There was the problem of individual (husbands, children and wives) who failed to adjust to the roles demanded of them ..."(1)

الترجمة: «هنالك مشكلة الأفراد (أزواج، وزوجات وأطفال) الذين فشلوا في التأقلم مع الأدوار المطلوبة منهم..)».

ومعلوم أن عدم القدرة على التأقلم مع التحولات الجارفة لها آثار نفسية في الأفراد، وترتب على ذلك كما تقول بيرجر:

"high divorce rates, low birth rates, low remarriage rates, psychological disengagements from familial relationships and a concomitant shift of personal satisfactions to work and career."(2)

الترجمة: «ارتفاع نسبة الطلاق، وانخفاض نسبة المواليد، وانخفاض نسبة الزواج مرة أخرى (بعد الطلاق)،

---

(١) Burger, B, and P, The War Over the Family, Penguin Books, England, 1985. P. 25.

(٢) Burger, B &P, ibid, P. 157.

الاعتزال نفسياً عن العلاقات الأسرية ويتبع ذلك التحول للاكتفاء الشخصي من العمل والوظيفة».

هذه هي المفاهيم الخاصة بالأسرة ووظيفتها التي استحدثها التوجه المادي اللاديني بشقيه، الشيوعي الذي دعا لإلغائها كلية، والعلماني الإنسانوي الذي أبقى عليها معزولة تماماً بعقيدتها، وقيمها، وتقاليدها، لا نظاماً ربانياً بل خياراً من خيارات يمكن تجاوزه. وهكذا أُفرغَ مفهوم الأسرة من أسسه وتشريعاته ومضامينه ومقاصده، وأقصيت الأسرة عن دورها الخطير في صنع الأجيال وتشكيل أنظمة المجتمع.

ويبدو أن المسيحية كنائسَ وأتباعاً، واجتهادات البروتستانت، وجهدهم للمزج بين قيم الدين وتطور العلم ومجالات العمل، قد عجزت عن مقاومة هذا التيار الجارف، وتخليص الأسرة والمجتمع من أدوائه. وأصبح الخيار الوحيد أمام هذه المجتمعات هو المجاهدة للحفاظ على دينهم وقيمهم ونظامهم الأخلاقي وتقاليدهم في حدود أسرهم ودور عبادتهم ما أمكن ذلك.

الفصل الرابع

تغيير مفهوم الأسرة في الغرب

اتجاهات معاصرة

المبحث الأول
الحركة الأنثوية
Feminism Movement

تمثل الحركة الأنثوية اليوم تحدياً خطيراً للأسرة والمجتمع، ليس في الغرب وحده، بل في العالم أجمع. فالحركة الأنثوية تسعى إلى تحقيق هدف أساسي هو تحرير المرأة ومساواتها مساواة مطلقة مع الرجل لدرجة تتلاشى فيها مقاصد التدبير والحكمة الإلهية من وجود الزوجين الذكر والأنثى. وتسعى الأنثوية لأنثنة مجالات العلم كافة، بل أنثنة المسيحية، لاستغلالها، وفق منظور أنثوي، لتحقيق هدفها الأساسي.

والحركة الأنثوية ذراع من أذرع التوجه اللاديني المادي الإنسانوي العلماني بشقيه الشيوعي والليبرالي الداعي لتحرير المرأة وللإباحية بديلاً عن نظام الأسرة كما تم توضيحه في الفصل الثالث. إلا أنها أكثر تطرفاً بهذا الاتجاه، ومن ثم تسميتها في الغرب بالأنثوية الراديكالية (Radical Feminism)، تمييزاً لها من الحركات النسوية التي تطالب بحقوق المرأة فقط (Women Rights Movement).

وقد بدأت الأنثوية منذ القرن الثامن عشر الميلادي في شكل نزعات متفرقة، إلا أنها وفي منتصف القرن العشرين تطورت إلى حركة منظمة سياسياً وفكرياً، فإلى جانب الدعم السياسي من الأنظمة العلمانية في

الغرب استطاعت الأنثوية اختراق الجامعات في أمريكة خاصة، كما استقطبت عدداً مقدراً من علماء الاجتماع والعلوم النفسية والإعلام. وظهرت في هذه المجالات مؤلفات وبحوث شكلت أدباً أنثوياً يمكن من خلاله للباحثين تحليل مكونات الأنثوية الفكرية والنفسية والسلوكية والباثولوجية (المرضية) في بعض الحالات.

وفي هذا المبحث نتناول تعريف الأنثوية، وتاريخ نشأتها ومقوماتها الفكرية، ومن ثم مفهومها للأسرة وما يتبعها من أنظمة.

تعريف الأنثوية

بالرغم من أهدافها المحددة وشعاراتها الواضحة إلا أن أسلوب الحركة الأنثوية عملياً وفكرياً جعل من الصعب على الباحثين الغربيين تعريفها تعريفاً محدداً. ويعود السبب إلى أن الحركة الأنثوية وبدهاءٍ - ربما يكون متعمداً - غلفت أهدافها وشعاراتها في الإطار العام المألوف الخاص بحقوق المرأة. وتداخلت - ربما عن قصد - بأطروحاتها مع أطروحات الحركات المطالبة بحقوق المرأة فقط دون المطالبة بالمساواة المطلقة. بل قد تسمى الأنثويات أحياناً الحركات الحقوقية (بالأنثوية) ربما خلطاً للمفاهيم وستراً لعورة الأنثوية.

وقد اعترف عديد من الأنثويات بإشكاليات التعريف هذه، بل رآها بعضهم مهدداً لوحدة الحركة ووضع نظرية خاصة بها. تقول الكاتبة الأنثوية بيل هوكس:

> "A central problem within feminist discourse has been our inability to either arrive at a consensus of opinion what feminism is or accept definitions that could serve as points of unification. Without agreed upon defi-

nitions we lack a sound foundation on which to construct theory or engage in overall meaningful praxis."(1)

الترجمة: «ثمة مشكلة مركزية في الخطاب الأنثوي وهي عدم قدرتنا على الوصول إلى إجماع حول معنى الأنثوية، أو قبول تعريفات تمثل نقاط اتفاق (بيننا)، ودون تعريفات متفق عليها نكون قد افتقدنا الأساس الصلب الذي يمكننا من وضع نظرية أو حتى الانشغال في مشروع عمل كامل ومفيد».

وحول الإشكالية ذاتها تنقل هوكس عن كارمن فاسكيز قولها:

"We can't even agree what a feminist is, never mind what she would believe in ..."(2)

الترجمة: «لم نعد قادرين على تعريف من هي (الأنثوية) فضلاً عما تعتقد».

وعليه نلاحظ كثرة تعريفات الأنثوية في الأدب الأنثوي. نأخذ منها على سبيل المثال تعريف ناتاشا ولتر:

"Feminism has recently been associated more with a movement to change women's attitudes and society's culture than with these material inequalities.."(3)

الترجمة: «الأنثوية نسبت حديثاً إلى حركة تسعى إلى تغيير قناعات المرأة وثقافة المجتمع (أكثر من تغيير) عدم المساواة المادي».

(تشير الكاتبة هنا إلى تحقيق المساواة في مجال الحقوق).

---

(١) Hooks, B, Feminism: A Movement to end Sexist Oppression, in Feminist Theory From Margin to Centre, South End Press, Boston 1984, (In Feminisms.S. Kemp, and J, Squires, ed, oxford Univ Press, 1997, P. 22.)

(٢) Hooks, B, ibid, P. 22.

(٣) Walter, N, The New Feminism, Virago Press, 1999, P. 3.

والأنثوية في تعريف باربرا بيرج هي حركة لتحرير المرأة تحريراً كاملاً بحيث يصبح وجودها قائماً بذاته، غير مرتبط بما حولها، فهي تقول عن الأنثوية:

"It is the freedom to decide her own destiny; freedom from sex-determined role; freedom from society's oppressive restrictions, freedom to express her thoughts fully and to convert them freely into action. Feminism demands the acceptance of women's right to individual conscience and judgment. It postulates that women's essential worth stems from her common humanity and does not depend on the other relationships of her life."(1)

الترجمة: «الأنثوية هي الحرية (للمرأة) لتقرر مصيرها؛ الحرية من تحديد وظيفتها جنسياً؛ الحرية من قيود المجتمع القمعية؛ الحرية لتعبر عن آرائها وتترجمها إلى عمل، الأنثوية تطالب بحق المرأة في المسؤولية والقرار الشخصي، وتفترض أن قيمة المرأة تنبع من الإنسانية المشتركة، ولا تعتمد على أي علاقات أخرى في حياتها».

وفي تعريف آخر:

"Feminism is about challenging the division of labour in the world that puts men in charge of the public spheres - work, sports, wars, government - while women slave away unpaid in the home, carrying the whole burden of family life."(2)

الترجمة: «الأنثوية هي التحدي لتقسيم الأدوار في

---

(١) Hooks. B. Kemp, S, and Squires, J, ed, Feminisms: op.cit, P. 24.

(٢) Watkins, S, (and others) Introducing Feminism, Icon Books, London, 1999, P. 3.

العالم والتي تضع مسؤولية المجالات العامة على الرجال - العمل، الألعاب الرياضية، الحروب، الحكم - بينما النساء يعملن كالرقيق بلا مقابل في البيوت، يتحملن عبء الحياة العائلية بكامله».

أما سارة قامبل فتعرف الحركة الأنثوية بأنها حركة تفترض «أن المرأة لا تعامل على قدم المساواة - لا لأي سبب سوى لكونها امرأة - في المجتمع الذي ينظم شؤونه ويحدد أولوياته حسب رؤية الرجل واهتماماته. وفي ظل هذا النموذج الأبوي تصبح المرأة هي كل ما لا يميز الرجل، أو كل ما لا يرضاه لنفسه؛ فالرجل يتسم بالقوة والمرأة بالضعف والرجل بالعقلانية والمرأة بالعاطفة، والرجل بالفعل والمرأة بالسلبي.. إلخ[١] .

ولا تعود إشكالية التعريف هذه إلى الخلط بين الحركة النسوية الحقوقية العادية والأنثوية التي تعدت الحقوق إلى الإباحية والشذوذ فحسب؛ وإنما تعود في تقديري إلى عدم الاتفاق بين الأنثويات على ماهية الأيديولوجية الإباحية. فالأنثويات كما سنوضح يتفقن على إلغاء نظام الزواج والأسرة إلا أنهن يختلفن حول طبيعة الأيديولوجية الإباحية التي تبنتها الحركة.

فبينما يرى تيار أن الإباحية ينبغي أن تقوم على العلاقة بين الرجل والمرأة دون الاعتماد على زواج أو أسرة، يشتط تيار آخر فينداح بهذه العلاقة نحو دائرة الشذوذ بأنواعه مبرراً ذلك بأن التحرر الكامل للمرأة لا يتم إلا بالاستغناء التام عن الرجل. وفي كلتا الحالتين الوضع شاذ وغريب. وعليه فاختلاف التيارين هو السبب الأساسي في الحيلولة دون تعريف أو حتى وضع نظرية أنثوية موحدة، ولكن نقول: إن اختلاف

---

(١) Gamble, S. ed. Feminism and Postfeminism، ترجمة أحمد الشامي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ٢٠٠٢م، ص١٣.

التيارين هو اختلاف على الأسلوب والوسيلة التي تحقق الإباحية لكل منهما، وليس اختلافاً على المحتوى والمضمون الرامي لتدمير الأسرة عبر تدمير المرأة، وهنا مكمن الخطر.

جذور الفكر الأنثوي

إن إشكالية منهج الباحثين الغربيين في تحديد تاريخ وهوية الحركة الأنثوية التي ظهرت من منتصف القرن العشرين تكمن في الربط بين الحركات النسوية المطالبة بحقوق المرأة الغربية (Women Rights Movement) وبين الحركة الأنثوية (Feminist Movement) التي تسمي نفسها أحياناً بحركة تحرير المرأة (Women Liberation Movement). فمعظم الدراسات ترى الحركة الأنثوية امتداداً لحركات حقوق المرأة، فالأنثويات كما ذكرنا يحرصن على رد أصولهن إلى هذه الحركات، وتبني رائدات الحركات النسوية بوصفهن مؤسسات لحركتهن.

تقول سارة قامبل: «إن أول ما تسعى إليه أي جماعة تحاول تحقيق الاعتراف العام بها هو محاولة خلق إحساس بتاريخها، بل ومحاولة امتلاك هذا التاريخ وتحديده..»[١]. ولعل الإحساس بالحاجة للانتماء إلى تاريخ يكسبها الشرعية والاعتراف بها هو ما دفع الحركة الأنثوية إلى احتواء عطاء المرأة الغربية فردياً كان أم جماعياً كإرث وجذور لها.

■ بواكير الأنثوية (١٥٥٠-١٧٠٠م)

وتشمل العطاء النسوي في عصر النهضة في أوربة الذي اتسم بالإسهامات الفردية، إذ لم يعرف عصر النهضة أي تنظيمات أو حركات نسوية. وقد تركز إسهام المرأة في هذه المرحلة حول تصحيح المفاهيم

---

(١) Gamble, S, ed, Feminism and Postfeminism مرجع سابق، ص٢٤.

والأوضاع الخاصة بالمرأة والتي انعكست في الإرث الفلسفي والديني والسياسي الأوربي على مر العصور.

ويعكس كثير من الدراسات الغربية صورة غريبة بل مثيرة للإشفاق عن وضع المرأة في أوربة، فقد وصفها فريق بحالة استرقاق المرأة، وفريق آخر بحالة كراهية المرأة. ففي دراسة تفصيلية بعنوان (النساء في الفكر السياسي الغربي) تشير الباحثة سوزان أوكين إلى أن استرقاق المرأة بل كراهيتها علة متجذرة في العقلية الأوربية منذ مرحلة الحضارة الإغريقية. فأفلاطون مثلاً هو الذي أرسى دعائم هذا الموقف من المرأة كما تقول، إذ تقوم فلسفته على الفصل التام بين وجود الرجل والمرأة، بحسبان أن الرجل هو الأصل الذي كان موجوداً في الكون، والمرأة طارئ كالوباء نزلت عليه فنزلت معها التعاسة والشقاء.

والمرأة في نظر أفلاطون وكذلك سقراط وأرسطو شر لابد منه. وهي أدنى من الرجل منزلة، وعليه؛ ينبغي أن تخضع خضوعاً تاماً لسيدها أو زوجها. كما أن أرسطو «أقام معايير للامتياز البدني والذهني والأخلاقي عند المرأة طبقاً للوظيفة التي تستطيع أن تقوم بها للرجل. فإذا أرادت أن تكون من خيرة النساء فلابد أن تكون لها صفات كثيرة مثل الهدوء والسكينة والتواضع.. إلخ، وهي فضائل مكروهة إذا وجدت عند الرجل، وينتهي أرسطو إلى أن المرأة حتى وإن كانت أفضل النساء فهي ناقصة»[(١)].

وتشير سوزان أوكين إلى أن هذا هو الأساس الذي أقام عليه فلاسفة التحرير المحافظون آراءهم عن المرأة، ولاسيما جان جاك

---

(١) سوزان أوكين موللر، النساء في الفكر السياسي الغربي، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، الناشر المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص١١٣.

روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م) والذي يمثل فِكْرهُ «نظرة التراث الغربي كله إلى النساء والمتمثل في السيطرة المطلقة للأزواج على زوجاتهم وانحصار النساء في المنزل عقب الزواج، والرغبة في فصل الجنسين، وانعزالهم حتى داخل المنزل»[١].

ويضاف إلى الإرث الإغريقي ما جاء في كتابي العهد القديم والجديد عن المرأة كينبوع لجميع آلام الإنسان وكسبب للخطيئة الأزلية. هذا إلى جانب ما أورده علماء اللاهوت ورجال الدين من تفسيرات وحواشٍ على هذه المفاهيم وذلك في إطار ما عرف في العصور الوسطى (بالجدل حول المرأة) والاختلاف على طبيعتها وكنهها.

ويبدو أن فلاسفة عصر النهضة قد تأثروا بهذا الإرث الإغريقي والديني؛ فبالرغم من دعوة بعضهم للارتقاء بالمرأة على المفاهيم الموروثة. وعليه كانت الدعوة لتعليمها مشروطة بألا تتعدى ما يفيدها لنفسها وتربية أبنائها. فهذا جوان لويس فيف أحد دعاة تعليم المرأة في عصر النهضة يقول عام ١٥٤٠م في كتابه (تعليم المرأة المسيحية):

«لا يليق بالمرأة أن تدير مدرسة، ولا أن تعيش وسط الرجال، ولا أن تتحدث بالخارج، وألا تنفض عنها حياءها وصدقها.. فإذا كانت امرأة صالحة فالأفضل أن تبقى في البيت، وإذا كانت بين الناس فالأفضل أن تمسك لسانها.. وألا يراها إلا القليلون وألا يسمعها أحد مطلقاً.. فآدم هو أول الخلق أما حواء فخلقت بعده، ولم يكن آدم هو الذي وقع في الخطيئة وإنما المرأة هي التي خالفت الوصية الإلهية. ومن ثم فالمرأة كائن هش.. وهو ما ظهر على حواء أم البشر عندما أزلها الشيطان بحجة واهية..

---

(١) سوزان أوكين موللر، النساء في الفكر السياسي الغربي، مصدر سابق، ص١٢٣.

لذلك يجب ألا تكون المرأة معلمة، لأنها لو آمنت برأي خاطئ واعتقدت في أي شيء لنشرته بين السامعين»[١].

وقد ظهرت في هذه المرحلة مجموعة من الأديبات اللائي اتجهن لتحليل ونقد هذه المفاهيم الخاطئة عن المرأة، ومن بين هؤلاء من انتقدت ما جاء في كتاب العهد القديم، ولاسيما سفر التكوين حول دونية المرأة واتهامها بإسقاط البشرية من النعيم الأزلي بسبب ضعفها أمام إغراءات إبليس. وقد ظهرت مجموعة من الكتب في الفترة من العام ١٦١٧ إلى العام ١٦٨٦م لكاتبات أمثال ريتشيل سبيت، وإميليا لانيار، ومارجريت فوكس وسارة ايجرتون، وكانت الفكرة الأساسية لهذه المؤلفات تدور حول المسؤولية المشتركة لآدم وحول الخطيئة الأزلية، وأن الرب أراد للمرأة أن تكون عوناً للرجل لا عبئاً عليه.

وقد تركزت مطالب نساء عصر النهضة في تصحيح المفاهيم، وإتاحة فرص التعليم للمرأة تعزيزاً لمسؤوليتها التربوية ولكونها أول معلمة في حياة النشء. وتذهب بعض الكاتبات إلى القول بأن خلق حواء من جنب آدم دليل على أنها مساوية له. فهي لم تخلق من رأسه فتكون حاكمة له أو من قدمه لتكون خادمة. وفي إشارة إلى أهمية التعاون بين الرجل والمرأة في المسؤولية الأسرية تقول ريتشل سبيت:

«الغاية الأخرى التي خلقت المرأة من أجلها هي أن تكون رفيقة الرجل ومعينته. فإذا كان لزاماً عليها أن تكون معينة له فحسب، فهذا يعني أن الأزواج الذين يلقون بكامل شؤون البيت ورعايته على عاتق زوجاتهم ملومون. إن النساء كرفيقات في تحمل الأعباء عليهن أن يحملن شيئاً من الهموم والآلام والمصائب. ولكن عندما يحمل النير الواحد ثوران،

---

(١) فيف جوان لويس، (تعليم المرأة المسيحية) من مقال (بواكير الأنثوية) لستيفاني رايت في Gamble, S, ed, (Feminism Postfeminism) مرجع سابق ص٢٥.

فالأكبر فيهما هو الذي يحمل الثقل الأعظم، فكذلك على الزوج - وهو الكائن الأقوى - أن يحمل العبء الأكبر عن زوجته».

ولم يؤثر عن أدب نساء عصر النهضة من شعر أو نثر أي نزعة عدوانية تجاه الرجل، أو مطالبته بالمساواة المطلقة، أو التمرد على المسؤولية الأسرية. وانحصرت مطالبهن في الاعتراف بإنسانية المرأة وكرامتها مع ترسيخ قيم أسرية جديدة تعلي من شأن التعاون والتكامل بين الزوجين. وأدب كهذا لا يمكن وصفه (بالأنثوي Feminist) وفق تعريف الأنثوية المشار إليه، إنما يمكن وصفه بأنه بواكير حركة نسوية (Women Movement) إصلاحية.

■ الموجة الأنثوية الأولى (١٧٩٣-١٩٢٠م)

لم يتغير الموقف الغربي من المرأة بالرغم من التطور الفكري الذي شهده عصر التنوير (القرن الثامن عشر الميلادي). ففلاسفة ومفكرو عصر التنوير الذين عرفوا بالدعوة للحرية وحقوق الإنسان لم ينل وضع المرأة حيزاً في فكرهم التحريري. بل تأثر موقفهم من المرأة بمؤثرات المراحل السابقة ولاسيما موقف المسيحية من المرأة.

ويعد جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) أشهرُ فلاسفة التحرير، نموذجاً يمثل نظرة التراث الغربي كله للنساء، والتي تقوم على سيطرة الرجل ووصايته المطلقة على المرأة وممتلكاتها وأموالها وأطفالها، ويجسد روسو هذا الوضع في قوله:

> "Men and women are made for each other, but their mutual dependence is not equal. We could survive without them better than they could without us. They are dependent on our feelings, on the price we put on their merits, ... Thus women's entire education should be planned in relation to them, to win their love and re-

spect, to raise them as children and console them, make their lives sweet and pleasant."(1)

الترجمة: «لقد خُلق الرجال والنساء بعضهم لبعض، إلا أن هذا الاعتماد المتبادل ليس متساوياً، فنحن (الرجال) نستطيع أن نحيا من دونهن أكثر مما يستطعن هن الحياة من دوننا. إنهن يعتمدن على مشاعرنا وعلى الثمن الذي نقدمه مقابل مزاياهن.. وعليه يجب أن يكون التخطيط لتعليم المرأة كله مرتبطاً بعلاقتهن بهم (الرجال) لكسب حبهم واحترامهم، ولتربيتهم أطفالاً ورعايتهم كباراً بتوجيههم والتخفيف عنهم ولجعل حياتهم حلوة وسعيدة».

وعليه لم يكن غريباً في إطار هذا المفهوم أن يهمل عصر التنوير إصلاح وضع المرأة القانوني والاقتصادي بل والإنساني. ولم يكن غريباً أن تظهر بعض النساء اللاتي تصدين لإصلاح هذا الوضع والمطالبة بحقوق المرأة.

وبالرغم من ادعاء الأنثويات في القرن العشرين بأن هذه المرحلة جزء من تاريخهن، إلا أن غالبية عطاء المرأة فيها لم يخرج عن كونه حركة نسوية حقوقية إصلاحية. ويعود السبب في ادعاء الأنثويات هذا إلى ظهور نزعة أنثوية متمردة على الرجل يمكن وصفها بأنها تمثل بحق جذور الحركة الأنثوية بمفهومها الذي تم توضيحه. وسنتناول أولاً وبإيجاز بعض ملامح الحركة النسوية الحقوقية ومن ثم اتجاه النزعة الأنثوية بالتفصيل.

أما عن الحركة النسوية الحقوقية في هذه المرحلة فقد كانت هي السائدة إذ تقول فاليري ساندرز:

---

(١) Watkins and others, Introducing Feminism, Icon Books U. K. 1992, P. 11.

«نستطيع أن نصف الفترة الممتدة من وفاة ميري ولستونكرافت (١٧٩٣م) حتى حملة حضانة الأطفال التي قادتها كارولين نورتون (١٨٣٩م) بأنها فترة رجعية، ولكنها لم تخل مع ذلك من العمل النسوي (الأنثوي). وجدير بالذكر أن أشهر نص نسوي (أنثوي) في هذه الفترة هو كتاب (استئناف نصف الجنس البشري) أي النساء، ضد ادعاءات النصف الآخر، أي الرجال، لوليام تومسون (١٨٥٢م)»[١].

وتصفها أيضاً بأنها فترة سيطرت فيها الكاتبات اللائي اخترن أسلوب النصح والإرشاد لالتزام ما أسمته بالسلوك المفروض، مثل سارة ميلز التي أصدرت ثلاثة كتب هي (نساء إنجلترة ١٨٣٩م)، (أمهات إنجلترة ١٨٤٢م) و(بنات إنجلترة ١٨٤٣م)، ومنهن ماري إليس التي اشتهرت - كما تقول ساندرز - بوصفها للمرأة بأنها (مخلوق نسبي) بمعنى أنها غير ذات أهمية لكونها كائناً منعزلاً، ولكن صلاتها بأبويها وزوجها وأولادها هي التي تعطيها دوراً في المجتمع[٢].

كما تنتقد ساندرز ذات التوجه الأنثوي التزام هؤلاء النسوة بتقاليد وقيم مجتمعاتهن الخاصة بالمرأة والأسرة. وربما يكون لهذا الالتزام أثره الإيجابي في منهجهن في التصدي لإصلاح الوضع الاجتماعي والقانوني للمرأة بعيداً عن روح العداء والانتقام من الرجل. فقد أكدت الكاتبات على تكامل دور الرجل والمرأة في الأسرة، وعلى أهمية تعليم المرأة. كما أن قيم البروتستانت، وباعتراف ساندرز، قد ابتكرت العمل الخيري الاجتماعي وتعليم الأطفال وجعلته من اختصاص نساء الطبقة الوسطى للارتقاء بالأسرة في الطبقة العاملة.

---

(١) Sanders, V, in Gamble. S, ed, Feminism and Postfeminism, P.42

(٢) Ibid. P 42.

أما في مجال القوانين فقد تصدت بعض كاتبات وناشطات هذه المرحلة لما يعرف بتبعية الزوجة المطلقة والأطفال للزوج والتي تحرم المرأة من الملكية الخاصة والوصاية على الأطفال. واشتهرت في هذا المجال كارولين نورتون التي ألفت كتيباً عام ١٨٣٩م مطالبة فيه بتغيير قانون حضانة الأطفال ووجهته لمجلس اللوردات البريطاني. ونتج عن ذلك قانون حضانة الأطفال الذي منح المُطَلَّقَةَ لأسباب غير الزنا حق حضانة الأطفال دون سن السابعة. كما كان لجهود كارولين ولاسيما كتابها (القوانين الإنجليزية الخاصة بالمرأة في القرن التاسع عشر) (١٨٥٤م)، الفضل في دفع إصلاح قانون حق المتزوجة في الملكية الخاصة. فقد كان القانون الإنجليزي يعدّ ما تمتلكه الزوجة ملكاً للزوج. وتم تغيير هذا القانون عام ١٨٧٠م حيث سمح للنساء بامتلاك مواردهن وتوريثها.

وساهمت كارولين وباربرا سميث وأخريات في دفع إصلاح قانون الطلاق ذي الإثباتات المعقدة التي تنتهي بإصدار القرار من البرلمان، هذا إلى جانب تكلفته المادية. فصدر عام ١٨٥٧م قانون الأسباب الزوجية تمت بمقتضاه إحالة قضايا الطلاق إلى المحاكم وإدراج مسببات أخرى إلى جانب الخيانة الزوجية.

ومن أبرز إنجازات الحركة النسوية الحقوقية في إنجلترة اتساع نطاق التعليم للمرأة، ولاسيما التعليم المهني في مجال التدريس والتمريض والعمل الخيري وتربية الأطفال. وتلي ذلك بدايات التعليم الأكاديمي عبر إنشاء مدارس وكليات خاصة بالبنات.

وفي أمريكة ارتبطت الحركة النسوية الحقوقية في بداياتها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بحركة مناهضة الرق والتي شاركت فيها نساء من أصل إفريقي ومن أشهر هؤلاء سارة دوغلاس (١٨٠٦ - ١٨٨٢م)، ولوكريشيا موت (١٧٩٣-١٨٥٠م) وسوجورنر تروث (١٧٩٨ - ١٨٨٣م):

"It was from the courage and the tenacity of these Afro-American women and from the platforms of the Anti-Slavery Society that the white pioneers of the American women's right movement drew their original inspiration and political education."(1)

الترجمة: «من شجاعة وصلابة هؤلاء النسوة الإفريقيات الأمريكيات، ومن منابر جمعية مناهضة الرق استمدت الرائدات البيض لحركة حقوق المرأة الأمريكية الإلهام الأصيل والمعرفة السياسية».

ومن أبرز مؤسسات حركة حقوق المرأة الأمريكية إليزابيث ستانتون (١٨١٥-١٩٢٠م)، ولوكريشيا موت، وسوزان أنتوني (١٨٢٠-١٩٠٦م). دعت هؤلاء لانعقاد أول مؤتمر تأسيسي للحركة عام ١٨٤٨م. وتركزت مطالب المشاركات حول إصلاح قوانين الطلاق وحق الامتلاك والتصرف في الموارد وحق التصويت، كما اشتهرت هذه الحركة بحملتها المسماة (Temperance Campaign) (١٨٧٠-١٨٨٠م) أي المطالبة بمنع الخمور لكونها السبب الأساسي في المشاكل الأسرية.

بالرغم من هذه الإنجازات للحركة النسوية الحقوقية في بريطانية وأمريكة فإن أنثويات منتصف القرن العشرين الميلادي يحكمن على نساء هذه المرحلة (١٧٩٣-١٩٢٠م) بالرجعية والانغلاق في قيود التشريعات والسلوك المطلوب من المرأة مع التركيز على وظيفتها الأساسية في الأسرة. فساندرز بالرغم من تثمينها الخجول لهذه الإنجازات فهي تصف رائدات حركة حقوق المرأة بأنهن «شديدات الحرص على أن ينأين عن طريق الحياة غير التقليدية، والسلوك غير التقليدي.. وكان التزامهن بأصول

(١) Watkins, S. A, and others, Introducing Feminism, Icon Book, U. K, 1992, P. 36.

الحشمة والوقار يجعل ولاءهن للشكل الأوسع نطاقاً للنزعة النسوية (الأنثوية) مهزوزاً أو فاتراً..»[١].

إذن وبالمنطق نفسه يمكن التأكيد على أن هذه الحركة النسوية الحقوقية ليست (أنثوية) بل (نسوية)، والذي حال دون كونها (أنثوية) وفق مفهوم ساندرز هو الالتزام بالتقاليد والسلوك التقليدي والتزام الحشمة والوقار!!.

وعليه لم يكن غريباً أن اختارت الأنثويات من هذه المرحلة التاريخية (١٧٩٣-١٩٢٠م) رموزاً من الجنسين تؤرخ بها لبداية ظهورها، وترد إليها أصول فكرها الذي يقوم على مجانبة الحياة والسلوك التقليديَّيْن ومفارقة أصول الحشمة والوقار وفق مقاييس ساندرز.

من بين جميع الناشطات اختارت الحركة الأنثوية ميري ولستونكرافت (١٧٥٩-١٧٩٧م) رائدة للأنثوية، ومن بين جميع المؤلَّفات المختصة بإصلاح وضع المرأة اختارت الأنثوية كتاب (A Vindication of the Rights of Women) الذي قامت ماري ولستونكرافت بتأليفه عام ١٧٩٢م على نسق كتاب صديقها توم بين بعنوان (The rights of Man) (١٧٩١م).

ومن أهم مقولات ماري ولستونكرافت التي شملت أصولاً نظرية لأنثوية منتصف القرن العشرين ما يلي:

عن المسؤولية الأسرية تقول:

"The chief obstacle that had prevented women from taking action to achieve equality (is) domestic tyranny ... (the wives) confined in cages, like the feathered race. It is true that they are provided with food and raiment, for

(١) Sanders, v, in Feminism and Postfeminism, op, cit, P. 39.

which they neither toil nor spin; but health, liberty and virtue are given in exchange."[1]

الترجمة: «إن العائق الأساسي بين المرأة والعمل على نيل المساواة (مع الرجل) هو الاضطهاد المنزلي.. فالزوجات حبيسات أقفاص، كالطيور، صحيح أن الغذاء والكساء يقدم لهن دون مجهود منهن. لكن الثمن الذي يدفعنه مقابل ذلك صحتهن وحريتهن وكرامتهن».

وعن اعتماد المرأة على زوجها في الإنفاق تقول ميري:

"And a woman's financial dependence on a man in marriage was (legal prostitution)."[2]

الترجمة: «إن اعتماد المرأة اقتصادياً على الرجل بسبب الزواج هو تقنين لتجارة الجسد».

وعن الأنوثة (Femininity) تقول:

"Femininity was a construct - women are born equal but taught to be subordinate, weak and feather-headed. She is brought up to be the toy of a man.."[3]

الترجمة: «الأنوثة مصطنعة، فقد ولدت النساء متساويات (مع الرجل) ولكن تتم تنشئتهن ليكن خاضعات، ضعيفات وخفيفات الرأس، فالمرأة تربى لتكون ألعوبة بيد الرجل..».

وتعد ميري ولستونكرافت أول امرأة غربية تدعو لأفكار أنثوية متطرفة بل لثورة في السلوك، كما تقول ساندرز. وترى ميري في التعليم المختلط

---

(١) Watkins, S, A, and others, Introducing Feminism, op. cit, P. 16.

(٢) Ibid, P. 16.

(٣) Watkins, S, A, and others, Introducing Feminism, op, cit, P. 16.

منذ مرحلة الطفولة وسيلة ضرورية لتغيير المفاهيم وتحقيق المساواة بين الجنسين.

وهنالك ملاحظات هامة لابد من أخذها في الاعتبار لمعرفة مصادر هذه الأفكار المتطرفة التي تبنتها ميري:

أولاً: وكما أشارت سارة قامبل «عاشت ميري طفولة تعسة ومضطربة»[١] وكان والدها مزارعاً وصف بأنه:

"noisy, shiftless, prone to fits of drunken violence."[2]

«أي مزعج، ضعيف القدرات، تنتابه موجات العنف بسبب تعاطي الكحول». وقد وجدت ميري نفسها في وضع يتطلب منها العمل لإعاشة نفسها فعملت «وصيفة لسيدات الطبقة الراقية، ثم افتتحت مدرسة وفشلت ثم عملت مربية»[٣].

ثانياً: نلاحظ أن ميري عاشت في الفترة نفسها التي توحدت فيها حركة المستنيرين لتصبح الماسونية المستنيرة على يد وايزهوبت عام ١٧٨٢م. وكان لها فروعها في بريطانية والمسماة بالموائد المستديرة.

ثالثاً: نلاحظ التطابق الكامل مع برنامج وايزهوبت الخاص بإنشاء نظام عالمي جديد، ولاسيما فيما يخص إلغاء الأسرة وتعليم الأطفال خارج نطاقها. فهل كانت لميري أي علاقة بهذه الحركة التي تسعى إلى إنشاء نظام لا دين فيه ولا أسرة ولا حكومة.. إلخ؟[٤].

هنالك من الشواهد ما يشير إلى احتمال هذه العلاقة، فميري التي

---

(١) Gamble, S, Feminism and Postfeminism, op. cit, P. 12.

(٢) Watkins, S, A, and others, ibid, P. 12.

(٣) Gamble, S, Feminism and Postfminism, ibid, P. 517.

(٤) Gamble, S, Ibid, P. 517.

كانت تعمل مربية «كانت تلتقي بعدد من المفكرين الراديكاليين»[(١)] ومن هؤلاء وليام بليك الذي قام بوضع رسومات لكتابها (قصص حقيقية من الحياة)، ووليام وردثورت، وتوماس بين الفيلسوف والسياسي الأمريكي (البريطاني الأصل) والذي عاد إلى بريطانية ليصبح صديقاً لميري. وهو مؤلف كتاب (حقوق الرجل) ١٧٩١م، والذي دفع ميري لتأليف كتابها المشار إليه. ومنهم أيضاً وليام جودوين الفيلسوف الشهير بدعوته لإلغاء الحكومات أياً كان نوعها، وكانت تربطه علاقة خاصة بميري، عبر هؤلاء تعرفت ميري على الناشر جوزيف جونسون، وعن هذه العلاقة تقول واتكنز:

"Mary became a central member of Johnson's circle in 1788 meeting regularly with other radical writers in his printing house.[(2)]

الترجمة: «أصبحت ميري عضواً محورياً في مجموعة جونسون عام ١٧٨٨م، يجتمعون بانتظام مع الكتاب المتطرفين الآخرين في مطبعته».

وشاهد آخر هو أن ميري المربية المتواضعة تسافر عام ١٧٩٣م إلى فرنسة "To see the revolution for herself" أي لتقف بنفسها على الثورة، وقد أشرنا من قبل أن (المستنيرين) و(العصبة الشيوعية) كانوا وراء هذه الثورة، الشيء الذي أشارت إليه أيضاً بروتوكولات صهيون.

لقد جسدت ميري في حياتها الخاصة النزعة التحررية المطلقة التي دعت لها في كتابها، ربما تطبيقاً لما كان يدعو له من وصفوا بالراديكاليين من زملائها ودائرتها الخاصة. فقد التقت في فرنسة ببحار أمريكي ورزقت

---

(١) Watkins, S. A. and other, Introducing Feminism, op, cit, P. 14.

(٢) Watkins, S, A, and others, Introducing Feminism, op. cit, P. 14.

منه بطفلة. وحينما لم يتزوجها عادت يائسة إلى لندن وحاولت الانتحار بالقفز في نهر التيمز، ولكن تم إنقاذها، واختلفت المصادر حول علاقتها بعد ذلك بوليام جودوين هل تزوجها أم لا، إلا أنها رزقت منه بطفلة أيضاً.

ولعب جودوين دوراً كبيراً في فضح مسيرة صديقته أو زوجته ميري، فقد ألف كتاباً عنها بعد وفاتها عام ١٧٩٧م كشف فيه عن انحرافها وسلوكها الإباحي، وقد أدى هذا إلى إيقاف طبع كتابها في إنجلترة لفترة طويلة في القرن التاسع عشر، ولكنه الآن يحتل مكاناً بارزاً في تطور النسوية (الأنثوية الحديثة)[١].

هذه هي المرأة التي اختارتها أنثويةُ منتصف القرن العشرين رائدة لمبادئها ومفاهيمها وجعلت من كتابها إنجيلاً تهتدي به.

ولم تستطع ميري تأسيس حركة أنثوية منظمة، واقتصر التيار في القرن التاسع عشر على ظهور بعض الرائدات اللائي ارتبط نشاطهن بالشيوعية التي ظهرت تحت اسم الاشتراكية في أوربة الغربية.

ومن أشهر هؤلاء الفرنسية فلور تريستان (١٨٠٣-١٨٤٤م) رائدة الدعوة لتكوين اتحاد للعمال. وقد تبنى ماركس بعض آرائها في المانفستو الشيوعي[٢]. وطالبت أيضاً بتكوين مجمعات خدمية للعمال لتعمل فيها النساء وتكون نواة لتحرير المرأة.

أما في ألمانية فقد اشتهرت للي براون (١٨٦٦-١٩١٦م) عضو قطاع المرأة بالحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ورئيسة تحرير مجلة المرأة المسماة (المساواة). وقد طالبت بتطبيق نظام السكن الجماعي

---

(١) Gamble, S, Feminism and Postfeminism, op, cit, p518.

(٢) للتفصيل انظر: Watkins, S, A, and others, Introducing Feminism, op, cit.

(Communes) الذي دعا له المانفستو. كما طالبت بالحرية الجنسية، وإباحة الإجهاض وتوفير موانع الحمل. وفي روسية اشتهرت إلكسندرا كولونتاي التي عينها لينين بعد نجاح الثورة البلشفية عام ١٩١٧م مفوضة للشؤون الاجتماعية. وعملت من خلال منصبها على تطبيق مفاهيم الشيوعية الخاصة بالمرأة والأسرة.

أما من الرجال فَتَعُدُّ الأنثويةُ البرلماني والمفكر الاقتصادي البريطاني جورج ستيوارت مِلْ* (١٨٠٦-١٨٧٣م) رائداً يؤرخ به لبداية تاريخها. والمعروف عن مِلْ، ولاسيما في مقاله عن الحكم (١٨٢٠م)، مناهضته لمساواة المرأة بالرجل ورفضه لمنحها حق التصويت. ويعود السبب في التحول الراديكالي في موقف مل من المرأة إلى زواجه من هارييت تايلور مل التي تعدّ من رائدات الأنثوية فكراً وسلوكاً. فقد كانت هارييت المتزوجة من جون تايلور على علاقة غير مشروعة - بمقاييس المجتمع الفكتوري المحافظ - بستيوارت مل، الذي تزوجته بعد وفاة زوجها. اقتصر نشاط هارييت على الكتابة الصحفية، دون توقيع اسمها، مطالبة بمساواة المرأة ومنحها حق التوصيت. وكانت تصف وضع المرأة بأنه خضوع وتبعية للرجل، كما كانت تصف المسؤولية الأسرية بأنها كهانة. إلا أن آراءها لم تجد اهتماماً إلا بعد وفاتها عام ١٨٦٩م حين قام زوجها مل بإصدار مقالة أثارت الانتباه بعنوان (إخضاع النساء The Subjection of Women). ومع أن المقال يعدّ توثيقاً لآراء هارييت إلا أن مل وجد له مكاناً في محاولات الحركة الأنثوية للبحث عن تاريخ؛ فقد أصبحت آراؤه أصولاً للأنثوية. وسنستعرض، بإيجاز، هذه الآراء لأهميتها في فهم الأهداف والمفاهيم والسلوكيات التي تدعو لها الحركة الأنثوية المعاصرة.

---

* معاصر لماركس ودوركهايم.

استخدم مل أربعة مداخل أساسية حاول من خلالها تحليل وضع المرأة وذلك على النحو التالي:

١- الأبوية Paternalism:

يعرفها مل بأنها الصيغة البدائية للسلطة والقوة بما فيها سلطة الرجل على المرأة. ويعدُّ سلطة الرجل على المرأة (Paternalism) نواة النظام الاجتماعي الأبوي (Patriarchal) المتمثل في السلطة القبلية والإقطاعية والدينية والملكية. يقول مل عن وضع المرأة في النظام الأبوي:

"..Women are wholly under the rule of men, having no share at all in public concerns, and each in private being under the legal obligation of obedience to the man with whom she has associated her destiny."(1)

الترجمة: «إن النساء تحت تحكم الرجل تماماً، لا يملكن نصيباً من الشأن العام، وكل (منهن) على حدة محكومة قانوناً بوجوب الطاعة للرجل الذي ربطت مصيرها به».

هذا الوضع كما يقول مل لم يكن نتيجة دراسة وتجارب لأي بدائل؛ فهو إما اختيار عشوائي أو عادة أو فكرة اجتماعية بدائية (Primeval social fact)، وهنا يعكس مل رأي ميري ولستونكرافت وزوجته هارييت اللتين وصفتا سلطة الرجل على المرأة بأنها (Social Construct) أي صنيعة اجتماعية. يقول مل:

"the adoption of this system of inequality never was the result of deliberation, or social forethought, or any notion of what conduced to the good order of society.

(١) Mill, J, S, Subjection of Women, http://eserver.org/feminism/history/Subjection of Women.txt. P. 1 of 60.

"It arose simply from the fact that from the very earliest twilight of human society, every woman owing to the value attached to her by men, combined with her inferiority in muscular strength, was found in a state of bondage to some man."(1)*

الترجمة: «إن تبني هذا الوضع من عدم المساواة (بين الجنسين) لم يكن أبداً نتاج التدبر أو التفكير الاجتماعي أو اعتبار المصلحة الإنسانية أو النظام الأفضل للمجتمع.
إنه نابع وببساطة من حقيقة أنه ومنذ بزوغ فجر المجتمع الإنساني، وجدت كل امرأة نفسها في حالة عبودية لرجل ما، وذلك وفقاً للقيمة التي يضعها لها الرجال مقرونة مع ضعف قوتها الجسدية».

وعندما تطورت المجتمعات تم استحداث القوانين والتشريعات التي كرست هذا الوضع وأكسبته شيئاً من القداسة على حد تعبير مل. كما يرى أن القوانين لم يضعها مفكرون بعد دراسة لجدوى هذا الوضع، وإنما ارتبطت هذه القوانين بإشكالية أخرى وهي أنها تعد إخضاع المرأة للرجل أمراً حتمياً. وذلك لكونه إما من تدابير الطبيعة ومقاصدها (Intention of Nature)، أو أمراً إلهياً (Ordinance of God)، وعليه لا يجوز مخالفته. ويصبح الأمر مرتبطاً بوجدان الناس مما يجعل تغييره مخالفة تستحق العقاب. وهكذا فإن إخضاع المرأة للرجل الذي كان مجرد عادة اجتماعية، أصبح بفضل القانون حقاً للرجل ممارسةً وواجباً على المرأة طاعة، يقول مل:

"Laws and systems of polity... convert what was a mere physical fact into a legal right, give it the sanction

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 3 of60.

* قارن النص بالمفهوم الإسلامي للأسرة (الفصل الأول).

of society, and aim at the substitution of public means of asserting and protecting these rights instead of the ... lawless conflict of physical strength. Those who had already been compelled to obedience became in this manner legally bound to it. Slavery, from being a mere affair of force between the master and the slave, became regularized..."(1)

الترجمة: «إن قوانين وأنظمة المؤسسات السياسية تغير ما كان مجرد فكرة مجسدة إلى حق قانوني، تمنحه موافقة المجتمع وتسعى للاستعاضة بوسائل عامة إلى فرض وحماية هذه الحقوق بدلاً من تركها لصراع القوة غير القانوني.
(وعليه) فإن الذين فرضت عليهم من قبل الطاعة (بالقوة) أصبحوا بذلك ملزمين قانوناً بالطاعة. (وهكذا) انتقلت العبودية من مجرد كونها وضعاً يقوم على قوة السيد على العبد إلى حالة منظمة (بالقانون)».

وهكذا، كما يرى مل، فإن القوانين كرست النظام الأبوي الذي يخضع المرأة للرجل، وهو كما يعتقد تكريس للعبودية.

٢- العبودية Slavery:

كان مل من المناهضين لتجارة الرقيق وجمع سكان إفريقية وجزر الهند الغربية ونقلهم إلى أوربة وأمريكة. وفي محاولته لبلورة آراء زوجته هارييت أسقط مل صفة الاسترقاق على وضع المرأة الغربية. فهو يرى أن العقلية البيضاء هي نتاج القهر والاسترقاق الإقطاعي والكنسي والملكي. وعليه فإن نزعة الاستعباد هي جزء من تكوينها الاجتماعي والنفسي، وتتمثل في ميل كل قوي لاستعباد من هو أضعف منه. يقول مل:

"In early times the great majority of the male sex

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 3 of 60

were slaves, as well as well as the whole of the female... by degrees... the slavery of the male sex.. has been at length abolished, and that of the female sex has been gradually changed into a milder form of dependence..."(1)

الترجمة: «في قديم الأزمان كان الغالبية العظمى من الذكور وكل الإناث أرقاء. وبالتدريج تم إلغاء استرقاق الذكور إلى حد كبير، أما استرقاق الإناث فقد تحول تدريجياً إلى حالة أخف وهي التبعية..».

وعن هذه التبعية يقول مل:

"But this dependence, as it exists at present, is not an original institution - taking a fresh start from considerations of justice and social expediency - it is the primitive state of slavery lasting on ... It has not lost the taint of its brutal origin... It has lasted till now, when so many other things which came down from the same odious source have been done away with."(2)

الترجمة: «لكن هذه التبعية، كما هي موجودة اليوم، ليست نظاماً أصلياً، انبثق من اعتبارات العدل والتوافق مع حاجات المجتمع، بل هي ذات حالة الاسترقاق البدائية مستمرة.. لم تفقد أثر أصلها القاسي.. إنها استمرت إلى اليوم بينما تم تجاوز أشياء كثيرة أخرى انحدرت من ذات الأصل البغيض».

وينتقد مل المفكرين الذين يدّعون أن استغلال الضعفاء القائم على مبدأ القوة قد انتهى تماماً مع تطور الأنظمة الاجتماعية والقانونية والأخلاقية قائلاً:

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 1 of 60

(٢) Ibid, P. 3 of 60.

"Such shifting of the physical force not having taken place in the case of women, ... made it certain from the first that this branch of system of right founded on might, though softened in its most atrocious features at an earlier period ... would be the very last to disappear."[1]

الترجمة: «إن عدم حدوث التحول في (مبدأ) القوة الجسدية في حالة المرأة جعل من المؤكد ومنذ البداية أن هذا الفرع من نظام (الحق القائم على القوة) - رغم تخفيفه في أغلب مظاهره القاسية في مرحلة سابقة - سيكون آخر ما ينتهي».

والسبب في ذلك يعود، كما يعتقد مل، إلى أن هذه القوة التي جعلت الرجل سيداً للمرأة مستمدة من عاملين غير قابلين للتغيير. العامل الأول هو ضعف المرأة الجسماني ووظيفتها البيولوجية. أما العامل الثاني فهو العقلية الاستعبادية التي أصبحت جزءاً من مكونات الرجل الغربي الذي كان مستعبداً عبر العصور. فالمجتمع الغربي كما يرى مل هو حالة سلطوية مركبة. وتتمثل في سلطة الكنيسة على النبلاء والملوك، وسلطة النبلاء والملوك على الرعية، وسلطة الأغنياء على الطبقة العاملة وسلطة السادة على الأرقاء المجلوبين من وراء البحار. وهي في جميع مظاهرها حالة استعباد.

أما السلطة الوحيدة التي تساوى فيها هؤلاء المستعبدون جميعاً مع سادتهم فهي سلطتهم على المرأة في جميع حالاتها بما فيها الزواج، يقول مل:

"The clodhopper exercises ... his share of the power equally with the highest nobleman."[2]

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 4 of 60

(٢) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 6 of 60

الـتـرجـمـة: «يستوي الفلاح البسيط تماماً في ممارسة القوة هذه مع أعلى النبلاء مكانة».

وبالرغم من أن الطبقات المستعبدة من الشعوب والأرقاء وجدت سبيلها للتحرر عبر مجهود الدعاة والمفكرين ومناهضي تجارة الرق، وعبر التمرد والثورة، إلا أن استعباد الرجل للمرأة وجد له من الحماية المفاهيمية والقانونية ما جعل من الصعب على النساء التمرد على سلطة الرجال، يقول مل:

"The processors of the power have facilities in this case greater than in any other to prevent any uprising eye, and almost ... in the hands of one of the very closer intimacy with him than with any of her fellow subjects; with no means of combining against him, no power even overmastering him, and, on the other hand, with the strongest motives for seeking his favour and avoiding to give him offence."(1)

الـتـرجـمـة: «إن مالكي السلطة يمتلكون في هذه الحالة (حالة استعباد المرأة)، معينات أكبر مما هو متاح في الحالات الأخرى، لمنع أي تمرد على سلطتهم. فكل واحدة من رعاياهم تعيش تحت عين، بل قبضة واحد من السادة، تربطها به صلة أقرب من صلتها بأي واحدة من زميلاتها في الرعية؛ بل وسيلة للتحالف ضده، ولا قوة للتحكم فيه، ومن ناحية أخرى هنالك كثير من الحوافز القوية التي تدفع المرأة إلى العمل على إرضائه ومجانبة الإساءة إليه».

يقول مل: من المعروف للجميع أن قادة التمرد والثورات التحريرية

(١) ibid, P. 6 of 60.

يمكن إفشال ثوراتهم إما بارتشائهم أو إرهابهم، أما في حالة المرأة فالوضع يختلف تماماً. يقول مل:

"In struggles for political emancipation, everybody knows how often its champions are bought off by bribes, or daunted by terrors. In the case of women, each individual of the subject-class is in a chronic state of bribery and intimidation combined."(1)

الترجمة: «في حال حركات التحرير السياسي يعلم الجميع أن قياداتها يمكن، في أغلب الأحيان، كسر شوكتهم بالرشوة أو الإرهاب. أما في حالة المرأة فكل واحدة من الطبقة التابعة (تعيش) في حالة ارتشاء مزمنة واستفزاز معاً».

هذه هي العوامل التي أدت، في نظر مل، إلى استعباد المرأة والعوامل التي تحول دون تمردها من أجل حريتها.

٣- مفهوم الطبيعة البشرية

يعد المفهوم الغربي للطبيعة البشرية عاملاً أساسياً في إخضاع المرأة وتبعيتها المطلقة للرجل. هذه التبعية المطلقة تعدّ أمراً طبيعياً (natural) أملته طبيعة المرأة. ويرجع مل هذا الفهم إلى ما رسخ في العقلية الغربية منذ أرسطو بأن هنالك طبيعتين للبشرية، إحداهما (حرة) والأخرى (مستعبدة)، ويقدم مل أنموذجاً لهذا المفهوم من مختلف مراحل الحضارة الغربية فيقول:

"... Aristotle held the opinion that there are different natures among mankind, free nature, (the Greek) and slave natures (the barbarians).

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 6 of 60

The feudal nobility's (domination) over men of law condition (appeared to the nobility as) supremely natural.

The southern United States of America ... call the white man to witness that the dominion of the white man over the black is natural, the black race is by nature incapable of freedom and marked out for slavery.

The theorists of absolute monarchy have always affirmed it to the only natural form of government."[1]

الترجمة: «أرسطو كان يعتقد أن هنالك طبيعتين للبشر، طبيعة حرة (الإغريق) وطبيعة مستعبدة (الغجر).
نبلاء الإقطاع كانوا يعتقدون أن استعبادهم للطبقات الدنيا أمر طبيعي ذو قداسة.
الولايات الجنوبية في أمريكة كانت تشهد السماء والأرض على أن هيمنة الرجل الأبيض على الأسود أمر طبيعي، وأن الجنس الأسود بطبيعته لا يحتمل الحرية، بل تم تخصيصه للاستعباد. ومنظرو الملكية المطلقة كانوا يؤكدون دائماً على أنها نظام الحكم الطبيعي الوحيد».

وعلى النسق ذاته كان الاعتقاد في إخضاع المرأة، أمراً طبيعياً ارتبط بطبيعة المرأة الضعيفة وإن اختلف أسلوب إخضاعها عن أسلوب إخضاع النماذج الأخرى من الطبقات الضعيفة. ففي حال الطبقات الفقيرة فالعلاقة بين قلة مستبدة وأغلبية مقهورة لا تربطها صلة مباشرة مع السادة. وعليه يتم ضمان طاعتها عبر إرهابها فقط إما بقوة السادة أو بالمحاذير الدينية.

أما في حال المرأة كما يقول مل فالعلاقة بينها وبين السيد أكثر قرباً؛ فهي إما امرأة ورجل أو رجل تتبع له مجموعة نساء. وهنا لا يحتاج السيد

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 17 of 60

لوسيلة الإرهاب لضمان الطاعة وذلك لقلة المجموعة التي يحكمها، ولطبيعة العلاقة نفسها. يقول مل:

"Men do not want solely the obedience of women, they want their sentiment. All men ... desire to have in the woman ... connected with them, not a forced slave but a willing one."(1)

الترجمة: «لا يريد الرجال الطاعة فقط من المرأة، وإنما يريدون عاطفتهن. فكل الرجال لا يرغبون في المرأة التابعة لهم أن تقبل الاستعباد مكرهة، ولكن بسبب رغبتها في أن تستعبد».

وبما أنه لا يوجد إنسان يرغب في أن يكون مستعبداً لأحد، فإن الرجال، كما يقول مل، لجؤوا لكل الوسائل التي تجعل المرأة راغبة في الاستعباد وعده أمراً طبيعياً:

"The masters of women wanted more than simple obedience, and they turned the whole force of education to affect their purpose. All women are brought up from the very earliest years in the belief that their ideal of character is the very opposite to that of man; not self will, and self-control, but submission, and yielding to the control of other ... to make complete abnegation of themselves, and they are allowed to have - those to the men with whom they are connected, or to the children who constitute an additional and indefeasible tie between them and a man."(2)

الترجمة: «سادة النساء يريدون أكثر من مجرد الطاعة،

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 9 of 60

(٢) Ibid, P. 9 of 60.

وعليه سخروا كل قدرات التربية لتحقيق غرضهم. لقد تمت تربية النساء منذ سن مبكرة على الاعتقاد بأن النموذج المثالي لشخصيتهن هو عكس نموذج الرجل؛ ليس الإرادة الشخصية والتحكم في الذات، ولكن الاستسلام والرضوخ لسلطة طرف آخر (الرجل)، وأن (يتحلين) بنكران الذات، وألا تكون لهن حياة إلا بعواطفهن.. العواطف المسموح بها، وهي عواطفهن نحو الرجل الذي ارتبطن به أو الأطفال الذين يشكلون رابطة إضافية لا فكاك منها بينهن وبين الرجل».

واستناداً إلى هذا الاعتقاد بطبيعة تبعية المرأة للرجل، مضافاً إليه اعتماد الزوجة الكلي على الزوج بحيث يصبح أي حق من حقوقها أو رغبة من رغباتها أو طموح رهن إرادته وإذنه، يقول مل:

"It would be a miracle if the object of being attractive to man had not become the polar star of feminine education and formation of character"(1).

الترجمة: «ستكون معجزة إن لم يكن النجم القطبي (يقصد المحور الأساسي) في تربية الإناث وتكوين شخصيتهن هو أن تكون المرأة جذابة للرجل».

ويعتقد مل أن الاستناد لمفهوم الطبيعة البشرية جعل من استعباد المرأة ظاهرة عالمية يكون الخروج عليها أمراً غير طبيعي، وفي ذات الوقت يرى أن المفهوم نفسه مفهوم مصطنع غير قابل للإثبات إذ يقول:

"Standing on the ground of common sense and the constitution of the human mind, I deny that anyone

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 9 of 60

knows, or can know, the nature of the two sexes as long as they have only been seen in their present relation to one another. If men had ever been found in society (where) women were not under the control of men, something might have been positively known about the mental and moral differences which may be inherent in the nature of each."(1)

الترجمة: «استناداً إلى الوعي العام والعقل البشري أنفي تماماً أن يعرف أحد أو يكون قد عرف طبيعة الجنسين، ما دام الجنسان لم يعرفا إلا في علاقتهما الحالية بعضهما ببعض. فإذا حدث أن وجدنا الرجال في مجتمع بلا نساء، أو إذا كان هنالك مجتمع لا تخضع فيه النساء للرجال ربما تقول: إنه بالإمكان معرفة شيء بالتأكيد عن الاختلافات العقلية والأخلاقية الكامنة في طبيعة كل منهما».

إن معرفة الطبيعة البشرية في نظر مل لا تتم إلا بالتعامل مع كل جنس منفصلاً عن الآخر. وهذه المهمة لا يقوم بها إلا علم النفس بعد تطويره؛ فعلم النفس وحده، كما يقول، يستطيع تحليل المؤثرات المحيطة في شخصية الإنسان. إلا أن مل يستبعد تطور علم النفس، ويؤكد أن هذا العلم إن استطاع أن يحلل الاختلافات العقلية والأخلاقية بين الجنسين فإنه سيثبت أن اختلاف طبيعة المرأة عن الرجل مجرد وهم.

٤- الزواج:

يربط مل بين الزواج ومفهوم الطبيعة البشرية عند الغربيين. فهو يرى أن تبعية المرأة المطلقة للرجل في ظل مؤسسة الزواج مردها إلى الاعتقاد بطبيعة ضعف تكوين المرأة البنيوي ووظيفتها البيولوجية. وبما أنها

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 13-14 of 60

الأضعف فقد سرى عليها تلقائياً مفهوم سلطة القوي على الضعيف الذي يسيطر على العقلية الغربية. ومن ثم حُرمت المرأة من استكشاف أي قدرات ومواهب أخرى. كما أن التشريعات والقوانين الخاصة بالزواج كرست تسلط الرجل وطاعة المرأة. وقد جاءت آراء مل حول الزواج متطرفة بمقاييس المجتمع البريطاني الفيكتوري. ونوجز هذه الآراء على النحو التالي:

١- يرى مل أن المفهوم السائد لدى الرجال هو أن الوظيفة الطبيعية (Natural Vocation) للمرأة هي أن تكون زوجة وأماً. وأن أي اتجاه للسماح للنساء بممارسة أعمال أخرى هو تعارض مع الطبيعة.

٢- يرى مل أن المجتمع يضع أهمية قصوى للزواج وتكاثر النسل، ومن ثم يوهم المرأة بأن وظيفتها الأساسية هي الزواج والتكاثر حتى يحول بينها وبين أي تطلعات أخرى.

٣- يرى مل أن الزواج هو المصير الذي حدده المجتمع الغربي للمرأة، وعليه عمل على تحقيقه بالقوة، ثم بالبيع ثم بعد أن جاءت المسيحية بالتشريع. وبالرغم من أن المسيحية أعطت المرأة فرصة لتبدي رأيها بكلمة (نعم) عند مراسم الزواج إلا أنه لا يوجد أي دليل على أن هذا الزواج لم يكن مفروضاً. ولم يكن أمام المرأة من سبيل للخروج من هذا المصير المحتوم، كما قال، إلا بالهروب إلى الدير لتصبح راهبة.

٤- الزواج، كما يعتقد مل، يعني تتويج الرجل سيداً على المرأة، فالقانون الإنجليزي القديم ينص على ذلك صراحة فيسمى الزوج (Lord of the wife) سيد الزوجة.

٥- تدعي الحضارة الغربية والمسيحية، كما يقول مل، بأنها منحت المرأة حقوقها. إلا أن القانون والتشريع يجردانها من كل

الحقوق، فهي محرومة من الملكية الخاصة والتصرف بحرية في إرثها. وينص القانون على أن الزوج والزوجة شخص واحد (one person in law). وهذا يعني أن أملاكها حق للزوج دون أن تكون أملاكه حقاً لها. كما تحرم من الإرث والوصاية على أطفالها. وتجرد من كل شيء عند الطلاق.

ويقدم مل صورة كئيبة لوضع الزوجة في ظل القانون والتشريع البريطاني فيقول:

"... The wife's position under the common law of England is worse than that of slaves in the laws of many countries."(1)

الترجمة: «إن وضع الزوجة في القانون الإنجليزي العام أسوأ من وضع الأرقاء في قوانين دول كثيرة».

ويقول مل: إن هذا الوضع نتج عن تحديد علاقة المرأة برجل واحد. وعليه تحول الزواج إلى استعباد، وتم إلغاء جميع أشكال الاسترقاق الأخرى:

"Marriage is the only actual bondage known to our law. There remained no legal slaves, except the mistress of every house."(2)

الترجمة: «الزواج هو الاسترقاق الفعلي الوحيد المعروف لقانوننا. لم يعد هنالك أرقاء شرعيون سوى ربة كل بيت».

وتعود كل مشاكل الإنسانية، كما يقول مل، إلى الزواج؛ فهو مؤسسة

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 19 of 60

(٢) Ibid, P. 48 of 60.

اجتمعت فيها كل العوامل التي أدت إلى إخضاع المرأة، وهي الأبوية والعبودية إلى جانب مفهوم الطبيعة البشرية. يقول مل:

"All the selfish propensities, the self-worship, the unjust self-preference, the unjust self-preference, which exist among mankind, have their source and root in, and derive their principal nourishment from, the present constitution of the relation between men and women"[1].

الترجمة: «كل الميول الأنانية، وعبادة الذات وتفضيل الذات غير العادل الموجود بين البشر، (نجد) منبعها وجذورها ومصدر تغذيتها الأساسي من النظام القانوني الحالي لعلاقة الرجال والنساء».

أما الحلول التي يقترحها مل لتصحيح هذا الوضع المزري للمرأة فتتلخص في مساواتها المطلقة بالرجل ومنحها حرية مطلقة. ولن يتحقق ذلك كما يقول إلا بتغيير المفهوم الذي استغله الرجل لإخضاع المرأة، وهو أن وظيفتها الطبيعية هي الزوجية والأمومة. ويتطلب ذلك كما يقول تغيير مفهوم الزواج القائم على تحديد علاقة المرأة برجل واحد بحكم الدين والقانون.

ويذهب مل إلى القول بأن تعاليم المسيحية الخاصة بخضوع المرأة لزوجها[٢] وتبعيتها له حتى في شؤون دينها[٣] جاءت هكذا لأن مهمة القديس بولس هي التبشير فقط، يقول:

"It was not St. Paul's business nor was it consistent

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, p48 of 60

(٢) رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس، ٥: (٢٢-٢٤)، كتاب العهد الجديد.

(٣) رسالة القديس بولس إلى أهل كورنثس، ١٤ (٣٤-٣٥)، المرجع نفسه.

with his object, the propagation of Christianity, to incite anyone to rebellion against existing laws."[1]

الترجمة: «ليس من مهمة القديس بولس، ولا يتفق حتى مع هدفه وهو الدعوة للمسيحية، أن يحرض أحداً على التمرد على القوانين السائدة».

(نلاحظ هنا أثر التوجه العلماني الرامي لفصل الدين عن الدولة في القرن التاسع عشر حيث عاش مل).

ويقول مل أيضاً: إن المسيحية التي تنادي بالمساواة بين البشر قامت بوضع نظام للزواج يتناقض تماماً مع هذا المبدأ؛ فنظامها يجعل الرجل سيداً ومفضلاً على المرأة، ويؤدي هذا المفهوم الديني إلى إصابة الرجل بالغرور والتمادي في إخضاع المرأة وتسخيرها لذاته التي اغتر بها، يقول مل:

"There is nothing which men so easily learn as this self-worship. ... and nothing controls it but that practical feeling of the equality of human beings, which is the theory of Christianity, but which Christianity will never practically teach while it sanctions institutions grounded on an arbitrary preference of one human being over another."[2]

الترجمة: «لا يوجد شيء يتعلمه الرجل بسهولة مثل تعلمه لعبادة ذاته.. ولا يوجد شيء يتحكم (في حب الذات) سوى الشعور العملي بالمساواة الإنسانية. (والمساواة الإنسانية) هي نظرية المسيحية التي لن تقوم المسيحية بتعليمها للناس عملياً أبداً، مادامت تجيز أنظمة تقوم على التفضيل

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 28 of 60

(٢) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, P. 26 of 60

المتعمد لإنسان على الآخر (يقصد الرجل على المرأة)».

وبالرغم من هذه الآراء المتطرفة حول عوامل إخضاع المرأة ونظام الزواج، فإن مل لم يدع إلى إلغاء الأسرة. فقد انتقد مل الأسرة في زمانه، مشيراً إلى أنها تدفع في المجتمع بسادة من الرجال وتابعات مستعبدات من النساء، فالأسرة على حد قوله:

> "The family is a school of despotism, in which the virtues of despotism, and also its vices, are largely nourished."(1)

الترجمة: «الأسرة مدرسة الطغيان إذ لا تنمو فيها محاسنه فقط بل مساوئه أيضاً».

هذه هي جذور الحركة الأنثوية التي اتخذتها أنثوية منتصف القرن العشرين مرجعية لها من دون إشارة إلى أصولها المادية العلمانية الإنسانوية والشيوعية. وخلاصة القول حين النظر في هذا التاريخ أنه لابد من الفصل التام بين الحركات النسوية المطالبة بحقوق المرأة والعدل معها في إطار المجتمع ومكوناته من كريم المعتقدات والثقافة والتقاليد، وبين الحركة الأنثوية التي تنطلق من مبدأ الصراع مع الرجل والمجتمع ومكوناته الدينية والثقافية والأخلاقية.

ولا يجوز أن نجعل تاريخ الحركات النسوية الحقوقية جذوراً للأنثوية. فالأنثوية في تاريخ الغرب، كما هو واضح، تمثل نزعات فردية ارتبطت بقوة التوجه المادي اللاديني ولا علاقة لها بحركات حقوق المرأة أي الحركات النسوية.

وبالرغم مما ساد المجتمع الأوربي في القرن الثامن عشر من عوامل

---

(١) Mill, J, S ,The Subjection of Women, ibid, p6 of 60

التطور الصناعي، وبروز التوجهات العلمانية اللادينية التي أربكت الاعتقاد الديني والتقاليد الحميدة إلا أن الأنثوية، كما هو واضح، لم تتطور إلى حركة منظمة وذلك لسببين: الأول هو اقتصارها على شخصيات تسبب فشلهن الأسري في دفعهن نحو تبني مبدأ الصراع مع الرجل والذي تبناه التيار الشيوعي في فكره الخاص بالمرأة والأسرة. أما السبب الثاني فهو أن الأنثوية لم تجد من يؤطر لها نظرياً وفلسفياً سوى بضع محاولات أشهرها مقال جون ستيوارت مل الذي تم استعراضه في هذا البحث. وأهم من هذه الأسباب أن المجتمع الأوربي آنذاك استهجن سلوك وفكر من تعدُّهن الأنثوية المعاصرة رائدات لهن.

وإذا كان هذا التيار الأنثوي الذي ظل ضعيفاً على مدى قرن ونصف من الزمان قد برز بقوة في منتصف القرن العشرين وشكل حركة منظمة طغت على الحركة النسوية الحقوقية، فذلك يعود لأسباب وعوامل ستتضح من خلال تناول أنثوية منتصف القرن العشرين وأثرها في مفهوم الأسرة.

المبحث الثاني
الحركة الأنثوية وتغيير مفهوم الأسرة

أنثوية منتصف القرن العشرين: نشأتها وتياراتها

لم تستطع رائدات الأنثوية الأوليات تكوين حركة منظمة في أوربة، فقد وجدت مفاهيم وأهداف هذه الحركة معارضة واستهجاناً لمن نادين بها. واقتصر النشاط البارز للمرأة في القرن التاسع عشر على الحركات النسوية الحقوقية التي حققت مكاسب كثيرة في مجال حقوق المرأة كما وضحنا.

وفي بداية القرن العشرين شهدت هذه الحركات الحقوقية انحساراً مضطرداً بسبب قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م. وإذا كانت الحرب مصيبة على أوربة إلا أنها فتحت آفاقاً جديدة للمرأة لم تتمكن الحقوقيات من تحقيقها. فذهاب الرجال إلى الحرب اضطر الدول الأوربية إلى تدريب النساء على العمل في المصانع (مصانع الأسلحة خاصة). كما تم تدريبهن في مجال التمريض وغيره.. وبعد نهاية الحرب أصبح عمل المرأة أمراً مقبولاً في المجتمع، وأدى ذلك إلى فتح معاهد وكليات لتعليم البنات.

وتكرر المشهد ذاته في أمريكة حين نشوب الحرب العالمية الثانية عام (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) فبينما ذهب الرجال إلى الحرب استوعب أماكنهم الشاغرة في مجال العمل سبعة ملايين امرأة بلا تدريب وتم فتح حضانات الأطفال.

وبعد نهاية الحرب وعودة الرجال بدأت حملة لإقصاء النساء عن مواقع العمل. وشهد العقد الخامس من القرن العشرين دعوة مكثفة لعودة المرأة للمنزل بسبب ما ترتب عليه إرهاقها في مواقع العمل من آثار على أسرتها. وكان الرأي العام السائد في تلك الفترة هو أن عمل المرأة هو السبب في (ارتفاع الجريمة، وجنوح الأحداث، والإدمان وانحراف الرجال)(١)، ومن ثم في شقاء الأسرة، وعليه بدأ التركيز إعلامياً على ضرورة عودة المرأة إلى المنزل، تقول برجيت بيرجر:

"Women were to find their mission at home, as mothers, and as the intelligent emotionally sensitive companions to their husbands - and if they did not accept this mission, the psychologists were ready to treat this reluctance as a neurotic ailment."(2)

الترجمة: «إن مهمة النساء تكون في البيت كأمهات، وشريكات ذكيات وذوات إحساس عاطفي مرهف لأزواجهن. وإذا لم يقبلن بهذه المهمة فعلماء النفس مستعدون لمعالجة هذا الرفض على أنه علة نفسية».

وسيطر الاهتمام بالأسرة والتركيز على دعوة النساء للعودة إلى بيوتهن على الساحة السياسية والاجتماعية والإعلامية. وأصبح العقد السادس من القرن العشرين معروفاً لدى الأمريكيين بعقد نهضة الأسرة (Family renascence).

كانت هذه المطالبة بعودة المرأة إلى مهمتها الأساسية في الأسرة سبباً في ظهور الحركة الأنثوية في منتصف القرن العشرين. وقد كانت الأوضاع السياسية في تلك الفترة مهيأة تماماً لظهور هذه الحركة. ففي عام ١٩٥٥م

---

(١) Watkins and others, op. cit P. 97.

(٢) Bergerm Bm and P the War Over The Family, Penguin Books, 1984, P. 25.

انطلقت حركة الحقوق المدنية للسود حينما تجرأت امرأة سوداء (روزا باركس) على الركوب في حافلة مخصصة للبيض فقط في ولاية ألباما الأمريكية (مدينة مونتجومري). وأدى الاعتداء عليها من قبل البيض إلى إشعال ثورة عارمة. وفي الوقت ذاته كانت هنالك مظاهرات طلابية عامة يقودها اليساريون ضد الحرب في فيتنام.

في ظل هذه الأوضاع ظهرت مجموعات نسوية تطالب بحق المرأة في العمل، وحسبان تخصيص الوظائف للرجال تفرقة جنسية. وقد تجاوب الرئيس آنذاك جون كندي مع هذه المطالب، وقام بتكوين لجنة الفرص المتساوية في العمل للتصدي لمشاكل المرأة.

وقد أدى فشل هذه اللجنة في استصدار قانون لمنع التفرقة في التوظيف إلى ظهور أول منظمة أنثوية في العام ١٩٦٦م. ففي هذا العام أسست الكاتبة والصحفية الأنثوية بيتي فريدان (المنظمة الوطنية للمرأة National Organization of women) وانطلقت بيتي فريدان في توجهها الأنثوي متأثرة بالكاتبة الأنثوية الفرنسية سيمون دي بوفوار (١٩٠٨ - ١٩٨٦م)، ولاسيما كتابها (الجنس الثاني) الذي طرحت فيه الفكرة الراديكالية القائلة بأن الأنوثة صنعة ثقافية. وأن المرأة «لا تولد امرأة بل تصبح امرأة». وكانت بيتي فريدان، قبل تأسيسها للمنظمة، قد أصدرت كتاباً بعنوان السحر الأنثوي (١٩٦٣م) (The Feminine Mystique).

واستقطبت المنظمة الوطنية للمرأة بقيادة بيتي غالبية المجموعات النسوية اليسارية المناهضة لحرب فيتنام. وكان من عوامل نجاحها في هذا الاستقطاب استخدامها لما عرف بالتوعية (Advocacy) وتعني:

«التحرك لتحويل كل ما نشعر به كتجربة شخصية إلى تحليل باستخدام المفردات السياسية، الأمر الذي يصاحبه إدراكنا بأن كل ما هو شخصي

هو سياسي أيضاً، وأن السلطة الذكورية تمارس وتعزز من خلال مؤسسات شخصية مثل الزواج ورعاية الأطفال والممارسات الجنسية»[١].

وهنالك مصطلحات مرادفة لمصطلح (التوعية) تستخدمها الأنثويات منها رفع الوعي (Consciousness raising) ومنها مصطلح (Sensitization) وتترجمه الأنثويات العربيات إلى التحسيس. والمقصود من التوعية أن يستقر في وعي المرأة وإحساسها أن ما يقع عليها من ظلم وتفرقة في المجتمع ينبع من خلال مؤسسات الزواج ورعاية الأطفال وممارسة الجنس. وتقول سو ثورنام وهي كاتبة أنثوية: «أصبح الالتزام بالثورة النسويّة على مستوى الوعي من خلال عملية التوعية ملمحاً محدداً من ملامح جماعات تحرير المرأة»[٢].

بعد اتساع عضويتها غيرت المنظمة الوطنية للمرأة اسمها إلى حركة تحرير المرأة (Women Liberation Movement) وعرفت فيما بعد بالحركة الأنثوية. وفي عام ١٩٦٨ أعلنت الحركة عن وجودها في تظاهرة حاشدة في نيويورك تزامنت مع مسابقة ملكة جمال أمريكة بحسبان أن متطلبات الجمال هي تجسيد للأنوثة رمز استعباد المرأة. وقامت المتظاهرات بتتويج (نعجة) ملكة للجمال وقمن بإحراق كل ما له صلة بإبراز جمال المرأة واستعبادها.

كان لأنشطة وشعارات وتظاهرة حركة تحرير المرأة، أي الأنثوية الأمريكية، أثرها في انتشار ظاهرة الحركات الأنثوية في أوربة، ففي العام ذاته الذي خرجت فيه تظاهرة نيويورك (١٩٦٨م) انعقد أول مؤتمر تأسيسي

---

(١) Thurnam, S. Second Wave Feminism in Feminism and Postfeminism, Gamble, S, ed.، ترجمة أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٥٩.

(٢) المصدر نفسه ص٥٩.

لتكوين الحركة في فرنسة، وسميت أيضاً بحركة تحرير المرأة. وبينما ركزت الأنثوية الأمريكية على ما أسمته بسلطوية الرجل النابعة من الأسرة كسبب في إخضاع المرأة، ركزت أنثوية فرنسة على أن الأنوثة (Femininity) هي السبب والوسيلة. فالأنوثة كما تقول سيمون دي بفوار، إحدى مؤسسات الحركة، هي بنية اجتماعية (Social construct) تصنعها اللغة والثقافة وتتقمصها المرأة فتجعل منها وجوداً آخر غير ذاتها الحقيقية. وتتهم الأنثوية الفرنسية المرأة بأنها المسؤولة عن وضعها لقبولها بما صنعه لها المجتمع. وهنا ركزت الأنثوية الفرنسية على أهمية إيجاد هوية المرأة الحقيقية أي الأنثوية (Feminist)، وإيجاد لغة وفكر وشكل خاص بها في إطار من الحرية الجنسية والمساواة المطلقة مع الرجل دون ارتباط بالأسرة. وهكذا كما تعتقد الفرنسيات يتم القضاء على سلطة الرجل وضعف المرأة. أما وسيلة تحقيق ذلك فهي استخدام نظرية التحليل النفسي التي أرسى دعائمها سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م). وأول من طبقها على الأنثوية سيمون دي بفوار (١٩٠٨-١٩٨٦م) وجاك لاكان (١٩٠١ - ١٩٨١م) الذي تمثل آراؤه أساساً للدراسات الأنثوية المتعلقة بالوعي والهوية الأنثوية.

أما في بريطانية فقد انعقد أول مؤتمر لتأسيس الأنثوية في عام ١٩٧٠م بإشراف "النساء الناشطات في المجال السياسي اليساري الراديكالي، مما أعطى لحركة تحرير المرأة البريطانية ملمحاً ماركسياً اشتراكياً، كما كان الحال في الحركات الأوربية المناظرة لها"[١].

انعقد هذا المؤتمر في كلية راسكن بأكسفورد باسم المؤتمر الوطني لتحرير المرأة. وتضمنت قرارات هذا المؤتمر أربعة مطالب؛ هي المساواة في الأجور والتعليم والعمل، وإنشاء حضانات تعمل على مدار اليوم،

---

(١) Thurnam, S, in Feminism and Postfeminism، مرجع سابق، ص ٦٠.

والحرية في استخدام وسائل منع الحمل وإباحة الإجهاض. وتقول ثورنام: إن هذه المطالب تكشف عن محورين أساسيين تدور في فلكهما الأنثوية، وهما «التركيز على المرأة كَفِئَةٍ اجتماعية مقموعة، وعلى جسد الأنثى في احتياجه للاستقلال الذاتي الجنسي باعتباره المناط الأساسي لممارسة هذا القمع»[١].

وفي ألمانية ظهرت الأنثوية أيضاً متزامنة مع أنثوية أمريكة، وقامت حركة تحرير المرأة كما سميت على يد اليساريين وعلى أساس علم التحليل النفسي كما في فرنسة:

> "The theoretical influence of the far left and of the radical psychoanalytical thinking was very strong in the 60's women liberation movement. There was a big campaign against the abortion law. In the late 80's a big for the superiority of (womanly values' over (masculine) ones in social, political economic life"[2].

> **الترجمة**: (في ألمانية) كان أثر أقصى اليسار وأفكار علم النفس التحليلي قوياً على حركة تحرير المرأة في الستينيات. كانت هنالك حملة كبيرة ضد قانون (منع) الإجهاض. وفي أواخر الثمانينيات انفجر جدال قوي حول (مانفستو الأم) الذي يقول بسمو القيم الأنثوية على (القيم) الذكورية في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

نلاحظ أن الحركة الأنثوية في أوربة وأمريكة ارتبطت، كما تم توضيحه بما يعرف باليسار. واليسار مصطلح تنضوي تحت لوائه جميع التوجهات المادية اللادينية العلمانية الإنسانوية بشقيها الشيوعي

---

(١) Thurnam, S, in Feminism and Postfeminism, ibid, P. 60.

(٢) Watkins, S.A and others, Introducing Feminism, op. cit P. 124.

والاشتراكي - (Communist and Socialist) وهما وجهان لعملة واحدة - والعلماني الإنسانوي Secular humanist.

وعليه لم يكن غريباً أن تشكلت ثلاثة تيارات للأنثوية في ذات الأطر اليسارية التي ولدت في رحمها، وذلك على النحو التالي:

١- الأنثويات المتطرفات Radical Feminists

يعدُّ هذا التيار (الأبوية) أساس استعباد المرأة، والأبوية كما يقول هذا التيار:

> "is a whole system of male power over women. Male rulers, male military, industrial, political and religious establishments ... reinforcing - and reinforced by - the power of individual men over women and children within their families."(1)
>
> **الترجمة**: «الأبوية نظام كامل لسلطة الرجل على المرأة. حكام رجال ومؤسسات عسكرية وصناعية ودينية من الرجال.. تدعم سلطة الرجال على النساء والأطفال في الأسرة (كما يدعم النظام الأسري هذه السلطة الأبوية)».

وتتلخص استراتيجية عمل هذا التيار في خلق طبقة خاصة بالنساء عبر التوعية أي ترسيخ المفهوم القائل بأن العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على العنف والاغتصاب والاستغلال الجنسي.

٢- الأنثويات الاشتراكيات Socialist Feminists

اشتهر هذا التيار في الستينيات من القرن العشرين. ويعد هذا التيار أن مشكلة المرأة تتلخص في هيمنة الرجل (male domination) والاستغلال

---

(١) Watkins, S.A and others, Introducing Feminism, ibid P. 120.

الطبقي (class exploitation). وتقول الأنثويات الاشتراكيات:

"Our fight is against both. Real liberation is impossible as long as power and wealth in the world is monopolized by a tiny minority and economic and social life is ruled by their lust for profits."(1)

الترجمة: «إن حربنا على الاثنين معاً (هيمنة الرجل والاستغلال الطبقي). التحرر الحقيقي مستحيل ما دامت القوة والثروة في العالم تحتكرها أقلية ضئيلة. وما دامت الحياة الاقتصادية والاجتماعية تحكمها الرغبة في الربح».

وتتلخص استراتيجية عمل هذا التيار في تكوين حلف بين الأنثويات والأقليات والطبقات المضطهدة، إلى جانب المنظمات المناهضة للإمبريالية، والنقابات والأحزاب اليسارية. وأساس هذا الحلف أن مشكلة الأنثويات لا تختلف عن مشاكل هذه المجموعات وهي الهيمنة والاستغلال.

٣- الأنثويات الأحرار Liberal Feminists

وهو تيار صغير يعتقد أن مشكلة المرأة ناتجة عن التفرقة، ويرى أن الحل يكمن في التأثير في الأنظمة الحاكمة واستقطابها لصالح الأنثوية باسم حقوق الإنسان حتى تتمكن من دفع التشريعات والقوانين الداعمة لحركتهن. وتتركز استراتيجية عمل هذا التيار في:

"Lobbying governments for pro-women reforms and trying to influence the decision makers."(2)

الترجمة: «(استخدام أساليب) الضغط على الحكومات

---

(١) Watkins, S.A and others, Introducing Feminism, ibid P. 120.

(٢) Ibid P. 121.

للقيام بإصلاحات لصالح المرأة، والعمل على التأثير على متخذي القرار».

وثمة ملاحظات هامة لابد من أخذها في الاعتبار عند تناول هذه التيارات بالتحليل وهي:

أولاً: إن هذه التيارات تتفق جميعها في الدعوة لأيديولوجية (الأنثوية)، وهي تيارات تقوم على أساس أيديولوجي واحد هو التوجه المادي اللاديني العلماني الإنسانوي بشقيه الشيوعي والاشتراكي والعلماني الإنسانوي (الليبرالي). ويتفق التياران على تحرير المرأة ومساواتها المطلقة بالرجل مع الحرية الجنسية.

ثانياً: إن هذه التيارات تبنت مفاهيم الشيوعية مداخلَ لقضايا المرأة وهي الأبوية، الاستغلال الطبقي، الاحتكار والهيمنة.

ثالثاً: إن الاختلاف بين هذه التيارات هو اختلاف في وسائل تحقيق الهدف، علماً أن هذه الوسائل يحقق كل منها جزئية من الهدف الكلي. وهذا أيضاً تطبيق عملي لمفهوم شيوعي هو تقسيم الأدوار (Division of labour) ويعني أن كل تيار يركز على قضية معينة ويقوم باختيار الأسلوب المناسب لمعالجتها، وهكذا تتعاون التيارات على تحقيق الهدف الكلي بتكامل الأدوار.

فالمتطرفات مثلاً تكفلن بالأبوية ومهمتهن تكوين طبقة النساء عبر التوعية. والاشتراكيات تكفلن بمناهضة الاحتكار والرأسمالية واستعباد القلة القوية للضعفاء؛ مع التركيز على المرأة، وذلك عبر حشد الجهات التي تجمع بينها هذه القضايا. أما الليبراليات فيمثلن دور الذئب في جلد الحمل بادعاء الليبرالية واختراق أجهزة الحكم ومؤسساته لدفعها للتشريع وتقنين التوجهات الأنثوية عبر قضايا حقوق الإنسان. فالمفاهيم شيوعية وتوزيع الأدوار نهج شيوعي.

وقد واجهت تيارات الأنثوية معارضة عنيفة في العقد السابع من القرن العشرين وهي الفترة التي شهدت تصاعد التيار المسيحي المحافظ. فقد تشكلت جبهة عريضة من هذا التيار عام ١٩٧٥م. عرفت باسم الحركة المناصرة للأسرة (Pro-family movement) وتدعم هذه الحركة الكنيسة الكاثوليكية وحركة الأغلبية الأخلاقية Moral Majority. وقد وجدت هذه الحركة دعماً سياسياً كبيراً في عهد الرئيس الأمريكي رونالد ريجان، كما وجدت نظيرتها في بريطانية الدعم من رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر.

تحت ضغط هذه الحركات المضادة اضطرت الأنثوية لتوحيد تياراتها تحت سيطرة الأنثوية المتطرفة. وعملت هذه الحركات على تحقيق أهدافها عبر التحالف مع منظمات حقوق الإنسان، وصياغة مطالبها في هذا الإطار العام. كما عملت عبر التغلغل في الجامعات واستقطاب الأكاديميات من النساء، على صياغة نظرية أنثوية.

أما في مجال نشاطها العام فقد عملت الحركة الأنثوية في أمريكة وأوربة على التمدد في دول آسية وإفريقية وأمريكة الجنوبية لتأسيس أذرع لها. وتفتخر الأنثويات الغربيات بنجاحهن في تأسيس منظمات نظيرة في دول إسلامية مثل المغرب وتونس والجزائر. تقول وتكنز:

"In 1982, Nawal El Saadawi and other feminists set up a pan-Arab Women's Rights Association based in Cairo. The Feminist Network of Women living under Muslim laws compiles dossiers on women's legal rights and their abuses"(1).

الترجمة: «في العام ١٩٨٠م قامت نوال السعداوي ومجموعة من الأنثويات بتأسيس منظمة حقوق المرأة العربية ومقرها القاهرة. وقامت الشبكة الأنثوية للنساء الخاضعات

---

(١) Watkins, S.A and others, Introducing Feminism, ibid P. 125.

للقوانين الإسلامية بجمع تقارير عن الحقوق القانونية للمرأة ومظاهر انتهاكها».

وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين استطاعت الأنثوية أن تخترق مؤسسات ومنظمات دولية، ولاسيما الأمم المتحدة ولجانها من أجل تقنين وعولمة مفاهيمها.

هذا استعراض لتاريخ ظهور أنثوية منتصف القرن العشرين التي مازالت، بمفاهيمها وشعاراتها، المنظمة الأبرز حضوراً على الساحة العالمية اليوم، في الجزء التالي نستعرض مبادئ ومفاهيم الأنثوية واتجاهاتها لتغيير مفهوم نظام الأسرة في الغرب.

الأنثوية واستراتيجية التفكيك Desconstruction

من أهم ملامح أنثوية القرن العشرين العمل على تحقيق أهدافها عبر منظمات أصبح لها وجودها الفاعل في أمريكة وأوربة ثم تدريجياً في القارات الأخرى. وإلى جانب التركيز على نشر الفكر الأنثوي والسعي لتقنينه عبر التشريعات، حاولت الأنثويات، ولأول مرة في تاريخ الغرب، وضع ما يشبه الأصول الفكرية التي تستهدي بها الأنثويات في تحقيق أهدافهن.

في هذا الصدد نشير إلى أن المفهوم الشيوعي للأسرة ممثلاً في المانفستو الشيوعي وآراء ماركس وإنجلز ودوركهايم إلى جانب كتاب ميري ولستونكرافت ومقال جون ستيوارت مل شكلت المرجعية الفكرية للكاتبات الأنثويات. وتعترف الأنثويات بأن الشيوعية هي رائدة تشخيص وضع المرأة الاستعبادي، والتأكيد على أن الصراع هو أساس علاقة الرجل بالمرأة. كما أن الشيوعية هي رائدة الدعوة إلى تحرير المرأة عبر الحرية الجنسية. إلا أن الشيوعية كما تقول الأنثويات فشلت في تطبيق

برنامج تحرير المرأة لثلاثة أسباب:

1- "On the theoretical (ideological) level Marxism prevented them from being aware that they are a class, and therefore from constituting themselves as class, by leaving the relation (women/men) outside of the social order, by turning it into a natural relation.. along with the relation of mothers to children.

2- On the practical level, Lenin,, the party, all the communist parties up to now ... have always groups based on their own class problems with accusation of divisiveness.

3- For the Marxists, women belong either to the bourgeois class or to the proletariat class; i. e., to the men of these classes."(1)

الترجمة: «فشلت الشيوعية في تحرير المرأة لثلاثة أسباب هي:

١- نظرياً (أيديولوجياً) منعت الماركسية النساء من الإحساس بكونهن طبقة، ومن ثم من تنظيم أنفسهن طبقةً، وذلك بترك العلاقة (نساء/ رجال) خارج النظام الاجتماعي، وذلك بتحويل (هذه العلاقة) إلى علاقة طبيعية مع علاقة الأمهات بالأطفال.

٢- عملياً، لينين، الحزب، وكل الأحزاب الشيوعية إلى اليوم.. كان رد فعلها دائماً، لأي محاولة من النساء لتكوين مجموعات على أساس مشاكل طبقتهن، اتهامَ النساء بشق الصف.

(١) Kemp. S, and Squires, J, ed, Feminisms, op, cit, P. 255.

٣- بالنسبة إلى الماركسية، النساء يتبعن إما للطبقة البرجوازية أو طبقة العمال، أي إلى الرجال في هاتين الطبقتين».

وتعدُّ الأنثويات أن إلحاق النساء بطبقات الرجال، وحسبان العلاقة نساء/رجال علاقة طبيعية، يتناقض مع المفهوم الشيوعي القائل بأن تبعية المرأة للرجل على أساس أنها أمر طبيعي هي سر استعباد الرجل لها. ويعني هذا أن الشيوعية لم تلحق النظرية بالتطبيق. وعليه ترى الأنثويات أن رسالتهن السامية هي إزالة هذا التناقض وتحرير المرأة تحريراً كاملاً بحيث تصبح طبقة قائمة بذاتها لا تخضع للرجل ولا للمعتقدات والمفاهيم التي كرست هذا الخضوع. وتتحقق هذه الحرية الكاملة بإيجاد البدائل الأنثوية التي يمكن أن تحقق المرأة من خلالها هويتها وذاتها الأصلية المفقودة في نظر الأنثويات.

وتقوم استراتيجية الأنثويات في إيجاد البدائل لا على أطر جديدة مغايرة، بل على افتراض أنثوية الأطر السائدة، وافتراض أن للمرأة هوية أصلية مرتبطة بهذه الأطر قبل أن تخضع لسلطة أبوية. وهنا تعتقد الأنثويات أن مهمتهن الأساسية هي استعادة أنثوية الأطر وإزالة المفاهيم القمعية التي غطت بها الأبوية على هوية المرأة الأصلية.

في هذا الإطار الاستراتيجي قامت منظرات الأنثوية بما أسمينه عملية تفكيك Deconstruction وإعادة تركيب الأطر الأساسية لقمع المرأة واسترقاقها. هذه الأطر هي: الأبوية، الدين، اللغة، الفن، أزياء المرأة، الأنثى والأنوثة، الزواج والأسرة. وسنستعرض الرؤى الأنثوية لهذه الأطر بوصفها مطلباً أساسياً لفهم موقف الأنثويات من الأسرة.

■ تفكيك الأبوية

لتفكيك هذا النظام المجتمعي استخدمت الأنثويات الافتراض الشيوعي (مورقان وماركس)، بأن المجتمع أصلاً (أُمِّيٌّ)، وأن الرجل ولأسباب اقتصادية احتكارية انتزع هذه السلطة. وقام الرجل باستعباد المرأة أداةَ إنتاج رأسمال جديد هو الأطفال وذلك عبر استحداث نظام الزواج بديلاً لشيوع الجنس الذي كان أصل المجتمع. وعبر مفهوم التوعية يمكن إثارة إحساس ووعي المرأة للحنين إلى سلطتها المنزوعة. وقد وضحنا سابقاً تفنيد علماء الأجناس الغربيين لمزاعم الشيوعية والأنثوية بأُمِّيَّة المجتمع وشيوع الجنس. ونلاحظ هنا أن الافتراض باطل علمياً، وأن أسلوب التفكيك والبناء الأنثوي يقوم على عامل نفسي بحت هو إثارة الوعي والشعور دون تقديم أدلة علمية تخاطب عقل المرأة.

وقد عملت الأنثوية الغربية على نشر مفهوم الأبوية والسلطة الذكورية بين الحركات النظيرة في الدول غير الغربية عبر الأنشطة المشتركة والمؤتمرات. وذلك في محاولة لإيهام النساء بأن (الأبوية) حالة عالمية وليست مقصورة على المجتمع الغربي وأن «كراهية المرأة واستعبادها» أيضاً حالة عالمية وليست ظاهرة غربية. ومن الملاحظات أن الأنثويات العربيات يستخدمن هذا المصطلح، وهذا ليس بمستغرب؛ فالأنثوية العربية ارتبطت بأنثوية الغرب منذ نشأتها.

وقد برهنت الدراسات الغربية أن مفهوم «الأبوية الغربية المرتبط بالإقطاع والكنيسة لا يمكن تعميمه على بقية المجتمعات». تقول جوديث بتلر:

"The notion of a universal patriarchy has been widely criticized in recent years for failure to account for the workings of gender oppression in the concrete cultur-

al contexts in which it exists ... That form of feminist theorizing has come under criticism for its efforts to colonize and appropriate non-western cultures to support highly Western notions of oppression."(1)

الترجمة: «لقد انتُقِدت بشدة فكرة عالمية (الأبوية) لفشلها بوصفها مبرراً للاضطهاد الجنسي في السياق الثقافي الفعلي الذي وجدت فيه.. كما انتقدت أشكال التنظير الأنثوي الرامي لاستعمار وتشكيل الثقافات غير الغربية لدعم مفاهيم، غربية أساساً، للاضطهاد (تعني الأبوية مثلاً).».

إن مأزق الفكر الأنثوي لا يكمن في فشل (الأبوية) - وهي حقيقة تاريخية دينية ثقافية اجتماعية في الغرب - بوصفه مبرراً لاسترقاق المرأة، ولكن في البديل الأنثوي الأميّة (Matriarchy) والتي لا يوجد دليل تاريخي أو ديني أو اجتماعي.. إلخ لإثباتها على أنها حقيقة واقعة.

ولعل الأنثويات قد أدركن هذا المأزق حين فارقن العلمية والموضوعية ولجأن إلى التوعية (Advocacy) لخلق المجتمع الأمِّيّ البديل في وعي المرأة لا في واقعها.

■ تفكيك الدين

تَعدّ الأنثوياتُ المسيحيةَ عقيدة أبوية أخضعت المرأة بتشريعاتها الخاصة بالزواج والأسرة، للرجل. وأسقطت هذا الاتهام على الأديان الأخرى كالإسلام مثلاً. ومن الجوانب المحورية في موقف الأنثوية من الدين كما تقول أليسون جاسبر هو: «تعريف طبيعة الرموز التي تكسب أهمية في إطار الثقافة الإنسانية تعريفاً قائماً على النوع. والهدف من ذلك

(١) Butler, J, Subjects of Sex/Gender, Desire, in Feminisms, op, cit, P. 278-9.

هو توضيح متى تتخذ الرموز المتعلقة بالنوع طبيعة هرمية تقلل من قيمة ما يرتبط بالمرأة والأنوثة وتصوره في صورة شيطانية»[١].

من هذا المنطلق بدأت بعض الكاتبات الأنثويات في إخضاع كتابي العهد القديم والجديد للدراسة من منظور أنثوي. ويتمثل ذلك في إعادة تفسير النصوص، ولاسيما تلك التي تكرس سلطة الرجل وكراهية المرأة. وحاولت أخريات تأنيث النصوص والذات العلية والملائكة.. إلخ.

وذهبت بعض الأنثويات إلى أن المجتمع العشائري كان إلهه أنثى وأن المرأة لذلك كانت أسمى من الرجل. وفي إطار هذه الأفكار عملت الأنثويات على إيجاد دين بديل باعتبار أن الجانب الروحي عنصر هام للإنسان. وتم تشكيل هذا الدين حول الروحانيات المجردة من الأبوية كما في المسيحية. وأصبح الإله لهذا الدين البديل أنثى .(Goddess) هذه الإلهة لا يهم تعريفها كما تعرف الأديان السماوية الإله ولكنها كما تصفها الأنثويات:

> "A female principle inhabiting and permeating all things. Although it is female, it was not apart from the material world, but seen as the life-force in everything, and in every human being."[(2)]

> **الترجمة**: «إنها قانون أنثوي كامن وينساب في جميع الأشياء. وبالرغم من كونه أنثى، إلا أنه ليس معزولاً عن عالم المادة، ولكنه قوة الحياة في كل شيء وفي كل إنسان».

(١) Jasper, A, Feminism and Religion, in Feminism and Postfeminism, op, cit, P. 233.

(٢) Mies, M, and Shiva, V, Ecogeminism, in Femininsm and Postgeminism, ibid, P. 500.

واضح هنا تفكيك عنصر أساسي في الأديان السماوية، بل في الفطرة الإنسانية، وهو وجود الله القائم بذاته عن مخلوقاته المهيمن عليها. كما يتضح تفكيك الإيمان بالغيب؛ فالإلهة الأنثى قوة داخل مخلوقاتها المادية فهي إلهة أرضية وليست سماوية. ومن هنا جاء اهتمام الأنثويات بالبيئة بما يشبه العقيدة الدينية. وأسقطن مبدأ الصراع على علاقة الرجل بالبيئة فهو يسيطر عليها ويدمرها بالحروب. وأصبح مصطلح (Eco-feminism) أنثوية البيئة تعبيراً عن العلاقة الروحية بين المرأة والمخلوقات الأخرى عبر الإلهة الكامنة فيها.

وثمة مصطلح آخر يعبر عن رفض الأنثويات لدينهن هو مصطلح ثيالوجي (Thealogy) وهو تحريف مقصود للفظ ثيولوجي (Theology) للإيحاء بوجود إلهة وهو مصطلح صكته نعومي جولدنبرج.. وكارول كرايست.. فقد لفتتا الانتباه على وجه الخصوص إلى غياب الأنثى من اللاهوت المسيحي واليهودي في الغرب، واستلهمتا كثيراً من الأشكال المختلفة لعبادة الربة بقصد بناء شكل جديد من الروحانية.. من أجل تحدي هيمنة الرجل في مجال الدين[1].

أما لوسي آيجارى في مقالها (نساء ربانيات ١٩٩٣م)، فتقدم تبريراً آخر إلى جانب غياب الأنثى في المسيحية واليهودية. فإلى جانب انحيازها للرجل، ترى آيجارى أن هذه الديانات جعلت الإله مثالاً للذكر، وجعلت الذكر مقياساً لكل طموحات الإنسان. ومن هنا استمد الرجل سلطته على المرأة. وعليه لكي تتحرر المرأة فلابد لها من تمثيل إلهي للمثال الذي تريد، بإله غير إله الديانات التي أقصتها. ولتحقيق ذلك عليها الرجوع إلى ما قبل اليهودية والمسيحية، واستلهام الديانات التي تقوم على الربة

---

(١) Jasper, A, Feminism and Religion, in Feminism and Postfeminism, op, cit, P. 241.

الأنثى، وبذلك تعيش الإحساس الحقيقي بشرعيتها بوصفها امرأةً بعيداً عن علاقتها بالرجل[١] .

وقد نجحت الأنثويات أيضاً في التأثير على نظيراتهن في البلاد غير الغربية فيما يخصّ موقفهن من الدين بما في ذلك العالم الإسلامي. وقد أوردت ماري هجلاند نماذج من باكستان وإيران والشرق الأوسط لأنثويات استعرن مصطلحات الأنثوية الغربية لوصف الدين الإسلامي بأنه أبوي ويدعو لكراهية المرأة. وتقول عن أنثويات الشرق الأوسط: «إنهن ملحدات أو ماركسيات من نوع أو آخر. وأنهن يرين أن تقدم المرأة الشرق أوسطية لا يتم بصورة أفضل إلا في إطار علماني»[٢]. وتنسب ميري لهؤلاء تأسيس الشبكة الدولية المسماة (النساء المقيمات في ظل قوانين إسلامية) ومقرها القاهرة. وقد أشرنا من قبل إلى أن من بين المؤسسات للشبكة الكاتبة المصرية نوال السعداوي.

وحقيقة القول أن استهداف الدين الإسلامي في مجال المرأة والأسرة بدأ في أواخر القرن التاسع عشر مع احتلال بلاد المسلمين. وكان استهداف المرأة جزءاً من المشروع التغريبي الاستلابي كلّه. وعليه لم يكن غريباً أن استُهدفَت المرأة والأسرة من قِبل رجالٍ كما في مصر من أمثال مرقص فهمي وقاسم أمين والطهطاوي. وليس غريباً أن يجعل هؤلاء المستغربون من الاختلاط والسفور، أي نزع الزي المحتشم جوهر دعوتهم التحريرية، بدلاً من الارتقاء بعقل وفكر المرأة، أما مؤثرات

---

(١) Jasper, A, Feminism and Religion, in Feminism and Postfeminism, op, cit, P. 242

(٢) هجلاند، م، النوع الاجتماعي والدين في الشرق الأوسط وجنوب آسية، في: Social history of women and gender in the modern Middle Eastm Meriwether, M, and Turker, J.
ترجمة أحمد علي بدوي، المطابع الأميرية، القاهرة ص٢٤٢.

أنثوية منتصف القرن العشرين فانعكست في ظهور جماعات أنثوية تهاجم الإسلام وتطالب بتغيير التشريعات الخاصة بالمرأة والأسرة. وتزامنت هذه الحركة مع الأنثوية الأم في أمريكة وأوربة في منتصف العقد السادس من القرن العشرين، وقد ظهرت في مصر وتونس والمغرب. وكانت أقوى هذه الحركات في إيران في ظل دولة الشاه العلمانية المستغربة. ففي عام ١٩٦٦م أصدرت الأنثويات الإيرانيات لائحة من أربعين مادة مخالفة لصريح نصوص القرآن الكريم، أثارت غضب المسلمين. وقد تصدى لتفنيد هذه اللائحة الأنثوية الشيخ الشهيد آية الله مرتضى المطهري[١].

■ تفكيك اللغة

تمثل اللغة بالنسبة إلى الأنثويات الأداة الرئيسة للتعبير والتكريس لإخضاع المرأة. وتعد الأنثويات إقصاء الكتب المقدسة للمرأة سبباً مباشراً في ذكورية اللغة وما نتج عنها من علم وفكر وفلسفة وأدب وثقافة. وعليه تطبق الأنثويات أسلوب التفكيك Deconstruction، على اللغة والناتج عنها والبحث فيما وراء ذلك عن أصله الأنثوي.

وتوجه الأنثويات نقداً شديداً لعلماء اللغة الأوربيين الذين كرسوا تفوق الرجل لغوياً على المرأة. ومن هؤلاء أوتو جاسبرسن الذي يقول بأن: «إسهام المرأة في اللغة هو الحفاظ على نقائها من خلال نأيها بحكم غريزتها عن التعبير الفظ السوقي، أما إسهام الرجل فيتسم بالعنفوان والخيال والإبداع»[٢]. وتعتبر الأنثويات هذا الافتراض بأنه تمجيد للرجل واتهام ضمني للمرأة بالسذاجة.

---

(١) للتفصيل انظر المطهري م، نظام حقوق المرأة في الإسلام، ترجمة أبي زهراء النجفي، مطبعة سيبهر طهران، ط٣، ١٩٨٧م.

(٢) Talbot, M, Feminism and Language, in Feminism and Postfeminism, Gamble, op, cit, P. 210.

ويضيف موقف اللغويين من المرأة بعداً آخر لدونية المرأة في الغرب. وعليه لم يكن غريباً أن يكون رد فعل الأنثويات ثورياً متطرفاً. وذلك بإعمال آلية التفكيك الذي استخدم في الدين على كل الإرث الفكري والعلمي والأدبي والثقافي.. إلخ في الغرب بما في ذلك اللغة. فالإنجليزية مثلاً لغة ذكورية ومثال ذلك كلمة (men) التي جعلتها الإنجليزية معياراً يعبر به عن الإنسان مطلقاً، وتطالب الأنثويات باستبدال كلمة إنسان (Person) بها. وإذا كانت الأنثويات في الغرب يعترضن على لغاتهن الذكورية، فلا ندري لماذا طالبت الأنثويات العربيات بحذف نون النسوة من اللغة العربية التي أفردت حيزاً واسعاً للمرأة في النحو والبلاغة والأدب نثراً وشعراً؟

ومثلما بدأت محاولة تفكيك العقيدة بالبحث عن الإلهة الأنثى في الأساطير، حاولت الأنثويات تفكيك اللغة بالبحث عن اللغة الأم، وفي هذا الصدد تقول هيلينا ميشى:

"While very early feminist theorists, like Kate Miller, struggled with the words of literary and academic fathers, more recent critics and theorists ... have begun to turn their attention to maternal figures, maternal discourse ... Canonical revision has, for example, been articulated as a search for foremothers; linguistic theorists have scanned literature and language for marks of 'écriture feminine', the mother-tongue."[1]

الترجمة: «بينما انشغلت المنظرات الأنثويات الأولَيات بكلمات الآباء الأكاديميين والأدباء، بدأت الناقدات والمنظرات الحديثات في الاهتمام بالأشكال

---

(١) Michie, H, Not one of the family, in Feminisms, Kemp, S, and Squires, J. ed. Op. cit. P. 56.

والأحاديث الأميّة، فنقد الكتب المقدسة مثلاً قُدِّمَ على أنه بحث عن الأمهات الأولَيات، بينما عمل علماء اللغة على البحث في اللغة والأدب عن اللغة الأم».

ولم تقدم الأنثويات دليلاً واحداً على العثور على أم اللغة المفقودة. والغريب أن الأنثويات استخدمن في عملية التفكيك والبحث آليات ذكورية، منها نظام تحليل الأصوات والرموز (Semiology) الذي استحدثه عالم اللغويات الفرنسي فرديناند دي سوسير الذي استخدمه للكشف عما وراء الكلمات والرموز من دلالات قمعية. كما دعت الأنثويات لوضع نظرية أنثوية للمعرفة مغايرة للنظريات الذكورية القائمة على مفهوم العقلانية والعقل والموضوعية؛ بل لوضع نظريات أنثوية لكل مجالات العلم والأدب والثقافة الغربية. وانخرطت الأنثويات فيما أسمته باربرا كريستيان بسباق النظريات (Race for theory) وتقول باربرا: إن كتابة نظرية في أي علم أو فن تتطلب جهداً كبيراً، وتسخر من الكم الهائل من الإنتاج الأنثوي الذي يسمى (بنظريات) حسب الطلب، وتقول:

"I, for one, am tired of being asked to produce a black feminist literary theory as if I were a mechanical man ..."(1)

الترجمة: «أنا واحدةٌ (من الناس)، تعبت من أن أكون مطالبة بإنتاج نظرية أدبية أنثوية سوداء كأنما أنا رجل آلي».

■ تفكيك الفن

حكمت الأنثوية على الفن الغربي بمعايير الأبوية والدين واللغة نفسها. فهو أداة تعبير وإنتاج ذكوري، يجعل من المرأة موضوعاً فقط،

(١) Christian, B, The Race for the Theory, in Feminisms, ibid, P. 71.

وعليه؛ فهو بحاجة إلى تفكيك وإعادة بناء. وتدعو الأنثويات أمثال شولاميث فايرستون إلى وضع نظرية نقدية وقيم جمالية أنثوية تكون أساساً لفن أنثوي.

■ تفكيك أزياء المرأة

السائد في الفكر الأنثوي حول الأزياء الخاصة بالنساء أنها من صنع الرجل والمجتمع كمطلب لطبيعة المرأة وتبعيتها للرجل. فأزياء المرأة وزينتها مقصود بها الرجل أكثر من كونها حاجة أو رغبة نسوية. وتأثرت الأنثويات بمقولات الأنثوية الفرنسية سيمون دي بوفوار في كتابها (الجنس الثاني ١٩٤٩م) حيث قالت عن الهدف الأساسي لأزياء المرأة:

"The purpose of the fashions to which she is enslaved is not to reveal her as an independent individual, but to offer her as a prey to male desires; thus the society is not seeking to further her projects but to thwart them"(1)

الترجمة: «إن الغرض من الأزياء التي تم استرقاق المرأة بواسطتها، لم يكن لإظهارها فرداً مستقلاً، بل لتقديمها فريسة لرغبات الرجل. وعليه فالمجتمع لا يسعى إلى تطوير قدراتها بل لقمعها».

وتعتقد معظم الأنثويات أن اختلاف أزياء المرأة عن أزياء الرجل رمز لعدم المساواة، والإخضاع، والتبعية الاقتصادية. وفي تفسير آخر ترى الأنثويات أن الرجل الذي سيطر على الحكم والاقتصاد والسياسة، ابتكر الموضة والزينة ليلهي بها المرأة عن التفكير في المشاركة في هذه المجالات، أو كما قالت ناتاشا ولتر:

---

(١) Walter, N, The New Feminism, Virago Press, London 1999, P. 83.

"toys that women were given to distract themselves with, as the men got on with running the world."[1]

الترجمة: «(الأزياء) دُمَى أعطيت للنساء ليتلهين بها بينما الرجال يقومون بإدارة العالم».

وفي أول مظاهرة للحركة الأنثوية الوليدة في أمريكة عام ١٩٦٦م متزامنة مع مسابقة ملكة الجمال، قامت المتظاهرات بإحراق كل ما له علاقة بإظهار جسد المرأة وجمالها من زي وزينة بحسبانها رمزاً لاستعباد المرأة. ولعل الأنثويات عمدن عبر هذه المظاهرة إلى تكريس هذا المفهوم في وعي النساء.

ومن المستغرب أن الزي البديل الذي قدمته الأنثوية للمرأة مستمد من المثال ذاته الذي سعت الأنثوية لتحطيمه، أي الرجل. فقد دعت الأنثوية النساء لارتداء البنطال الخشن (الجينز) مع القميص ذي الألوان الهادئة والحذاء الرجالي مع تقصير الشعر كالرجال تماماً. أما في مكان العمل فالبنطال مع القميص الرجالي والسترة. وقد قلدت أنثويات العالم الإسلامي، الناطق بالعربية خاصة، هذا النموذج منذ الستينيات مع استبدال الاسكيرت حينها بالبنطال. وقد عملت المجلات النسوية المستغربة على دعم هذا الاتجاه مثل مجلة (حواء) المصرية.

فلماذا إذن يتشبه المقموع بزي القامع؟ لماذا تظهر الأنثوية أمام الرجل الذي تكرهه، بزي الرجل؟ إن هذه التساؤلات تحتاج لتحليل عميق للنفسية الأنثوية التي تعيش في حالة شعور دائم بالاسترقاق والتبعية لدرجة تتقمص فيها شكل مضطهدها وسيدها.

إن الزي البديل الذي جادت به العبقرية الأنثوية بعد كل هذا الجهد التفكيكي، يشعرنا بعظمة الإسلام الذي أسس لتشريعاته في أصل أصيل

---

(١) Walter, N, ibid,, P. 105.

هو قيمة الإنسان وكرامته والعدل معه. وذلك حينما شرع للمرأة في مسألة الزي والزينة ما يمكن أن نسميه بتوافق الحال مع متطلبات المقام.

فإظهار الزينة من ملبس وما يتبعه، تم حصره في دائرة آمنة ينبغي بها أن تكون مفعمة بمعاني الشرع ومقاصده ونظامه الأخلاقي، التي تكرم المرأة وتعلي من شأنها أماً وأختاً وزوجاً وبنتاً. يقول تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٢٤/ ٣١].

أما في حال الخروج عن دائرة الخصوصية إلى رحاب الحياة العامة؛ فقد أمر الشرع المرأة بأن ترتدي ما لا يشف ولا يصف، وألا يبدو منها إلا الوجه والكفان وما ظهر من الزينة، وألا تتعمد الإعلام بما خفي من الزينة (كالحلي) بتحريك الأرجل أو اليدين. والرسالة هنا للعامة من الرجال والنساء أن الحضور الماثل هو المرأة الإنسان، المرأة العقل والفكر وممارسة الحق المشروع في الكسب الحلال وقضاء الحوائج. وعليه تتراجع المرأة الجسد والأنثى إبرازاً لهذه المعاني في الساحة العامة مع الالتزام بآدابها العامة كغض الطرف، وإفساح الطريق وإماطة الأذى عنه وإفشاء السلام... إلخ. يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٣١].

وهنا لا يسعى الإسلام إلى نفي الأنوثة كما نفتها الأنثويات بالتشبه بزي الرجل، وإنما يعلي الإسلام من شأن حضور آخر للمرأة، خارج دائرتها الخاصة، وهو حضور اقتضته أمانة التكليف العام التي يتساوى فيها الرجال والنساء كدحاً وثواباً.

▪ تفكيك أنثى، أنوثة، امرأة

بعد محاولات تفكيك ما أسمته الأنثويات بمصادر إخضاع المرأة، اتجهت محاولات التنظير إلى تفكيك الكائن الذي تم إخضاعه، وذلك للوصول إلى ما أسمته الأنثويات بالهوية الأصلية للمرأة. وإذا كانت الأبوية والدين واللغة.. مصادر سلطة الرجل على المرأة فإن سمات هذه السلطة تمثلت في الهوية التي أكسبها هذا التسلط للمرأة. فهي أنثى Female ذات أنوثة Femininity وامرأة Woman. وهي مخلوقة للرجل استناداً إلى تعاليم السلطة الدينية. بوظيفة بيولوجية جوهرية ضرورية للرجل أو ما تسميه الأنثويات بالحتمية البيولوجية (Biological determinism).

وهذا يتطلب إظهار هذه الأنوثة Femininity للرجل. وهي بصفة عامة امرأة Woman. واللغة نفسها كما ترى الأنثويات تعبر عن هذه التبعية والخضوع (Wo/man) (Fe/male).

وتعدّ الأنثويات هذه المصطلحات الثلاثة حالات مصنوعة لتحديد هوية هذا الكائن وفق حاجات الرجل والمجتمع. وأول من وضعت هذا الإطار النظري لتحديد هوية جديدة للمرأة، الكاتبة الفرنسية الأنثوية سيمون دي بوفوار (١٩٠٨ - ١٩٨٧م). واختزلت هذا الإطار في مقولتها المشهورة:

"One is not born a woman, but becomes a women.
No biological, psychological or economic fate determines

the figure that the human female presents in society. It is civilization as a whole that produces this creature."[1]

الترجمة: «الواحدة لا تولد امرأة ولكنها تصير امرأة. إن الشكل الذي تظهر به أنثى الإنسان في المجتمع لا يحدده قدر حيوي أو نفسي أو اقتصادي: إن الذي ينتج عن هذا المخلوق هو الحضارة بكاملها».

أصبحت مقولة دي بفوار عقيدة للأنثويات ومرتكزاً لاجتهاداتهن الفكرية الخاصة بتحديد هوية هذا المخلوق (المرأة) وتحريره تحريراً كاملاً من هذه القيود المصطنعة.

وضعت الأنثويات هذا المخلوق الذي لا يبدو منه، في اعتقادهن، سوى أنه أنثى ذات أنوثة ويسمى امرأة على طاولة التشريح. والهدف استئصال (أنثى) المرتبطة بالوظيفة البيولوجية، واستئصال (أنوثة) المرتبطة بالزينة والمظهر، وإلغاء الاسم (امرأة) أملاً في العثور على الكينونة والهوية التي غطتها آليات المجتمع القمعية من نظام أبوي ودين ولغة.. إلخ. وباكتشاف هذه الكينونة المفقودة يتم القضاء على التقسيم الثنائي الموروث مثل ذكر/أنثى، رجل/امرأة، أم/أب، ربة منزل/جالب الخبز.

تتمثل أول خطوة في عملية تفكيك (أنثى) في رفض المفهوم القائل بأنها هكذا لوظيفة جوهرية طبيعية، وذلك لأن الحمل والولادة، كما تقول الأنثويات، ليس وضعاً طبيعياً جوهرياً، بل هو عملية إنتاجية مفروضة على المرأة عبر علاقة استعبادية، (مفهوم شيوعي). فالأنثى لم تخلق أنثى لوظيفة بيولوجية بالأصل (Essence)، ولكن اصطنع المجتمع هذه العلاقة بالرجل. فهي (أي الأنثى) صنعة اجتماعية (Social Construct).

---

(١) Wittig, M, One is not Born a Boman, in feminisms, op. cit, P. 220.

والقول بجوهر وطبيعة الأشياء بوصفه حالةً ملتصقة بالكائن أو الشيء يُرَدُّ إلى أرسطو، «فاليوناني الحر السيد من معدن الذهب ولا يمكن أن يتساوى مع البرابرة والعبيد والنساء. فالطبيعة عند أرسطو كما عند أفلاطون.. خلقت الناس طبقات: طبقة السادة النبلاء الأحرار، وهؤلاء للحكم والتأمل والجمال والخير، وطبقة خسيسة خلقت من معدن رخيص»[١] فواضح هنا أن الإرث الغربي استمد دونية المرأة من الفكر الأرسطي الذي وضع المرأة طبقة خسيسة الجوهر هي حتمية جوهرية essential determinism.

أما عن علاقة الأنثى بالذكر فيضعها أرسطو في الإطار الحتمي ذاته في مفهومه للأسرة. فالأسرة عنده هي: «علاقة عضوية بين الذكر والأنثى (الرجل والمرأة) وهذه تفرضها غريزة حب البقاء أي بقاء النوع الإنساني وذلك بالنسل»[٢].

والقول بالجوهرية والطبيعة في نظر الأنثويات أدى إلى احتباس هذا المخلوق في إطار (أنثى). وجاءت المسيحية ومن قبلها اليهودية لتضيف لهذا الاحتباس بعداً غيبياً فتحكم عليها بأنها خُلقت للرجل؛ مع سنِّ تشريعات لتمكين سلطة الرجل على من خُلِقَ له أي الأنثى. وهذا البعد الغيبي، كما تعتقد الأنثويات، جعل مفهوم الجوهر والطبيعة عالمياً، والدليل على استعباد المرأة، كما تدعي الأنثويات، ظاهرة عالمية توجد في جميع المجتمعات. ولم نجد في دراسات الأنثوية الغربية دراسة لأي مجتمع غير غربي يمكن أن تثبت من خلاله أنثويات الغرب هذا الادعاء.

---

(١) زكريا بشير، مفهوم العدالة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، دار روائع مجدلاوي، الأردن ٢٠٠٣م، ص٢٩.

(٢) زكريا بشير، مفهوم العدالة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، مصدر سابق، ص٢٩.

ولجأت الأنثويات إلى علم النفس التحليلي (Psychoanalysis) الذي وضع أسسه الفرنسي سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٨١م). ويعتبر المحلل النفسي جاك لاكان (١٩٠١-١٩٨١م) الذي طور آراء فرويد المرجع الأساسي للأنثويات في هذا المجال. فقد كان لآرائه أثرٌ كبيرٌ في ابتكار الأنثويات الفرنسيات لمفهومي الوعي الأنثوي والهوية الأنثوية. ويمثل هذان المفهومان أساس المنهجية التفكيكية للكائن (أنثى).

استعارت الأنثويات الافتراض الفرويدي القائل بأن الذات Ego غير مقيدة بحتمية بيولوجية (ذكر/أنثى)، أي إن الجسد لا علاقة له بدلالات الذكورة والأنوثة. فهذه الصفات التحديدية تنتج عن تدخلات (الآخر) الاجتماعية والنفسية والجنسية التي ترسم على الجسد ما تشاء. فالتقسيم ذكر/أنثى هو ما كتب أو صنع على الجسدين عبر الرغبة الجنسية:

> ".. bodies, egos, subjectivities are not simply reflections of their cultural context and associated values, but are constituted as such by them, marking bodies in their very (biological) configurations with socio-sexual inscription."(1)

> **الترجمة**: «... إن الأجساد، والذوات، والذاتيات ليست ببساطة انعكاسات للسياق الثقافي والقيم المرتبطة بها، ولكنها تكونت هكذا بواسطتها، فهما يعلّمان (من علامة) الأجساد في شكلها البيولوجي بكتابات اجتماعية جنسية».

وجدت الأنثويات في هذا التحليل مدخلاً للاعتقاد بأن (أنثى) هي ختم أو علامة وضعها الرجل، بخياله وآليات دعم سطوته، على ذات ego الأنثى، أي إنها ليست صفة أو حالة طبيعية أو جوهرية. وعليه فمهمة

---

(١) Grosz, E. Psychoanalysis and the Imaginary body, in Feminisms, op. cit, P. 299.

الأنثويات أصبحت واضحة وهي إزالة هذا الختم المصنوع. وتعتقد الأنثويات أن وراء ما صنعه الرجل بخياله تكمن:

"a pure or original femininity, a female essence, outside the boundaries of the social and thereby untainted (or repressed) by a patriarchal order."[1]

الترجمة: «أنوثة نقية أو أصل للأنثى (موجود) خارج الأطر الاجتماعية ومن ثم غير مدنس (أو مضطهد) بواسطة نظام أبوي».

ولكن هل عثرت الأنثويات على هذا الأصل النقي أو الذات ego القائمة بذاتها بلا مجتمع أو نظام أبوي؟

تقول سارة قامبل: إن محاولة الأنثويات أن يتجاوزنَ حدود الجهاز التناسلي للعثور على الذات التي افترضن وجودها لم ينتج عنه سوى «صياغة فلسفية تقول بأن المرأة في إطار النظام الأبوي تعيش حالة اغتراب alienation عن طبيعتها الأنثوية الحقيقية»[٢] (نلاحظ هنا أثر المفهوم الشيوعي).

ويبقى السؤال ما هي طبيعتها الأنثوية الحقيقية؟

وإلى أن تجد الأنثويات الإجابة تظل (أنثى) باقية.

وتتناول الأنثويات (الأنوثة Femininity) من خلال المفهوم الفرويدي ذاته، فهي مجموعة مواصفات وسلوكيات صاغها النظام الأبوي على جسد هذا الكائن:

"Patriarchy has developed a whole series of feminine

(١) Fuss, D, The Risk of Essence, in Feminisms, op, cit, P. 250.

(٢) Gamble, S, Feminism and Postfeminism, op. cit, P. 335.

characteristics (sweetness, modesty, subservience, humility.. etc). It is after all patriarchy, not feminism, which has always believed in a true female/feminine nature: the biologism and essentialism which lurk behind the desire to bestow feminine virtues on all female bodies necessarily plays into the hands of patriarchs"(1).

الترجمة: «لقد طورت الأبوية سلسلة كاملة من خصائص الأنوثة (الجمال، الأناقة، التبعية، التواضع.. إلخ). إن الأبوية وليست الأنثوية، هي التي اعتقدت دائماً (بوجود) طبيعة حقيقية لأنثى وأنوثة، (وهي) البيولوجية والجوهرية التي كانت دائماً وراء رغبة الأبوية في إضفاء صفات الأنوثة على أجساد جميع الإناث».

ويبدو أن الفشل في تفكيك (أنثى) وعدم العثور على الذات الحقيقية، دفع بعض الكاتبات الأنثويات للتحذير من محاولة إيجاد بديل للأنوثة، وتتساءل توري موي مثلاً:

"Should feminists really try to develop another set of feminine virtues ...? There is always a danger of turning a positive, feminist definition of femininity into a definition of femaleness, and thereby falling back into another patriarchal trap."(2)

الترجمة: «هل الأنثويات حقاً بحاجة إلى تطوير سلسلة أخرى من صفات الأنوثة؟ إن الخطر هنا يكمن دائماً في تحويل التعريف الأنثوي الإيجابي لأنوثة، إلى تعريف الأنثى، ومن ثم ترتمي في شرك أبوي آخر».

---

(١) Moi, T, Feminist, Feminine, in Feminisms, op.cit, p247.

(٢) Moi, T, Feminist, Feminine, in Feminisms, ibid, P. 247.

وتبرر موي رفضها بأن أي صفات للأنوثة مهما كانت إيجابية فإنها ستتحول إلى أدوات قمعية؛ وهذا هو الشرك الأبوي الذي تحذر منه. وهذا يدل على فشل الفكر الأنثوي في تفكيك (أنوثة) وإيجاد بديل لها. وعليه لم يكن غريباً أن اختارت الأنثويات زي الرجال وتقصير الشعر بديلاً لنفي صفات وشكل الأنوثة المرتبط بالرقة والجمال والأناقة. وقد وضحنا من قبل أن هذا المسلك يوضح الوضع النفسي المرتبك للأنثويات اللائي رفضن صفات وزي الأنوثة بحسبانها أدوات قمع لترتدي زي القامع.

أما فيما يختص بتفكيك الاسم امرأة، فتعتقد الأنثويات أنه أيضاً من الأسماء التي صاغها المجتمع الأبوي على سطح هذا الكائن مما غطى على حقيقته وكرّس إخضاعه، فهو اسم غير قابل للتعريف كما تقول الكاتبة الأنثوية جوليا كريستيفا:

"In 'woman' I see something that can not be represented in something that is not said, something above and beyond nomenclature and ideologies"(1).

الترجمة: «في (امرأة) أرى شيئاً لا يمكن تشكيله أو التعبير عنه، شيئاً فوق التسميات والأيديولوجيات».

هذا المصطلح (امرأة)، كما ترى الأنثويات، هو صنعة أو بنية أبوية اجتماعية Patriarchal/Social Construct، وعليه لابد من تفكيكها لمعرفة الذات التي أخفيت خلفها. فكيف تمت عملية التفكيك هذه؟

اتخذت الأنثويات من الافتراض الفرويدي ومن مقولة سيمون دي بوفوار التي جسدته - أي (إن الواحدة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة) - إطاراً أساسياً لتفكيك (امرأة). فامرأة، بناء على ذلك، هي مرحلة الانتقال من

(١) Kemp, S, and Squires, J, ed, Feminisms, ibid, P. 216.

صنعة (أنثى)؛ الوظيفة البيولوجية، إلى مرحلة الاستفادة المادية من هذه الوظيفة. تقول مونيك ويتق في مقالها بعنوان (One is not Born a Women) :

".. What makes a woman is a specific social relation to a man, a relation that we previously called servitude, a relation which implies personal and physical obligation as well as economic obligation (forced residence, domestic corvée, conjugal duties, unlimited production of children.. etc"(1).

الترجمة: «إن الذي يصنع امرأة هو علاقة اجتماعية خاصة برجل، علاقة أسميناها من قبل بالاستعباد، علاقة تعني التزاماً شخصياً وجسدياً واقتصادياً (إقامة قسرية، خدمة منزلية، واجبات زوجية، وإنتاج أطفال غير محدود.. إلخ)».

وترى مونيك أن تفكيك Woman لا يتحقق إلا عبر المفهوم المادي الشيوعي الذي يفسر الاضطهاد والاسترقاق على أنه نتيجة طبيعية للنظام الطبقي. فالتقسيم الثنائي رجل/امرأة يجب ألا يفهم على أنه وضع طبيعي جوهري، بل هي مصطلحات سياسية اقتصادية تشير إلى طبقتين إحداهما تمثل السادة والأخرى العبيد وهي طبقة النساء. تقول مونيك:

"'Woman' is not each one of us but the political and ideological formation which negates 'women'. 'Woman' is there to confuse us, to hide the reality 'women'."(2)

الترجمة: «امرأة لا تعني أن كل واحدةٍ منا هي (امرأة)، بل هي (أي امرأة) الصنعة أو البنية السياسية والأيديولوجية التي تنفي وجود (النساء). (امرأة) أوجدت لإرباكنا ولإخفاء وجود (النساء)».

---

(١) Wittig, M, One is not Born a Woman, in Feminisms, op, cit, P. 226.

(٢) Wittig, M, One is not Born a Woman, in Feminisms, op, cit, P. 226.

هذه دعوة لإلغاء (امرأة) وإنشاء طبقة (النساء) التي تقول مونيك: إنها ضرورية لتوحيد صف النساء للثورة على العبودية. فإنشاء طبقة النساء هو العنصر الوحيد الذي لم تنتبه له الشيوعية على أنه وسيلة لتحقيق دعوتها للتحرير الكامل للمرأة.

وتكتفي معظم الأنثويات بالقول: إن لفظ (امرأة) لا يعبر عن هوية المرأة الحقيقية، وتستدل هؤلاء برأي المحلل النفسي جاك درايدا (١٩٣٠-) الذي دعم في كتاباته الفكر الأنثوي. وصارت مقولته (The undecidability of woman) - أي عدم قابلية (woman) لتحديد معناها - مرتكزاً لدراسة الهوية في الفكر الأنثوي، يقول درايدا:

"...not only woman but also 'women' is troublesome - and that this extension of our suspicions is in the interest of feminism."(1)

الترجمة: «ليست (امرأة) وحدها بل إن (نساء) أيضاً صعبة (يقصد صعبة التعريف). وامتداد شكوكنا إلى نساء هو في مصطلح الأنثوية».

ويبدو أن الأنثوية عجزت عن تفكيك (امرأة) وقبلت بعضهن بصيغة الجمع (نساء) بديلاً. وإذا كان اللفظ المفرد لا يعبر عن الهوية فما الذي يجعل الجمع مقبولاً؟ لعل هذا المأزق هو الذي دفع الأنثوية دينيس رايلي للاعتراف بأن التفكيك لم يحسم الأمر وأن العودة إلى الحديث عن الطبيعة والجوهر غير واردة، وأن معركة الأنثوية مع (امرأة) ما زالت مستمرة. تقول رايلي:

"Instead of veering between deconstruction and transcendence, we could try another train of specula-

(١) Riley, D, Am I That name, in Feminisms, op, cit, P. 241.

tions; that woman is, indeed, an unstable category that this instability has a historical foundation and that feminism is the site of the systematic fighting out of that instability which need not worry us"(1).

الترجمة: «بدلاً من التأرجح بين التفكيك والتسامي، يمكننا محاولة سلسلة أخرى من التخمينات: (مثلاً) أن (نساء) فعلاً تقسيم غير مستقر (المعنى)، وأن لعدم الاستقرار هذا أساساً تاريخياً، وأن الأنثوية هي أرض المعركة المتواصلة ضد عدم الاستقرار هذا، وهذا ينبغي ألا يقلقنا».

ويبدو أن غالبية الأنثويات قد قررن خوض المعركة بأسلوب آخر بدلاً من الاستمرار في معركة تفكيك (امرأة). ويرى هؤلاء أن تفكيك (أنثى) سيمحو من وعي النساء ما طُبع فيه بأنهن خلقن للرجل. كما أن تفكيك (أنوثة) سيلغي التبعية الاقتصادية، لأن (أنوثة) كانت مفروضة على المرأة مقابل إنفاقه عليها. وهنا، يعتقد هؤلاء أن (امرأة Woman) ستزول تلقائياً بعد تفكيك الإطار الذي تحتبس في داخله (أنثى) وتفرض عليها في داخله (الأنوثة)، وهو نظام الزواج والأسرة، فكيف سعت الأنثوية إلى تفكيك هذا الإطار؟

■ تفكيك الزواج والأسرة

إذا كانت (أنثى) و(أنوثة) و(امرأة) هي انعكاسات لتصورات النظام الأبوي وسلطة الرجل القائمة على مفهومي الطبيعة والوظيفة البيولوجية، فإن الزواج في رأي الأنثويات، يمثل النظام القانوني الذي يسوغ حبس المرأة فيما يسمى بالأسرة. فالزواج والأسرة هما التجسيد العملي لتصورات الرجل، والميدان الذي يمارس فيه نزعته الاستعبادية المشروعة ديناً وعرفاً.

(١) Riley, D, Am I That name, in Feminisms, op, cit, P. 241.

وتُعَدُّ بيتي فريدان (١٩٣٤م) مؤسسةُ الحركة الأنثوية، كما تم توضيحه، العقل المدبر لهذا الاتجاه الأنثوي المتطرف. ففي عام ١٩٦٣م، أي قبل عامين من تأسيس الحركة، قامت بيتي بنشر كتابها (السحر الأنثوي Feminine Mystique).

ويدور الكتاب حول التوجه الأمريكي في الخمسينيات من القرن العشرين للاهتمام بالأسرة والأمومة وتقديس الحياة الزوجية.

ووصفت بيتي هذا الاتجاه بعقيدة الحياة الزوجية (Cult if Domesticity) وشنت هجوماً لاذعاً على الأسرة وأسمتها بمؤسسة إخضاع المرأة.

وكتاب بيتي فريدان الذي تبنى المفهوم الشيوعي (ماركس/إنجلز)، والدوركهايمي مع آراء ميري ولستونكرافت وستيوارت مل، يمثل مانفستو الأيديولوجية الأنثوية. وتقوم هذه الأيديولوجية كما تم توضيحه على مبدأ الصراع بين الرجل والمرأة، والعمل على تحرير المرأة تحريراً كاملاً بإلغاء وجود الرجل. وعن هذا الكتاب تقول برجيت بيرجر (أستاذة علم الاجتماع الأمريكية): إنه يصف وضع الزوجة في الأسرة بالسجن، وإن تحريرها لا يكون إلا بخروجها للعمل (مفهوم ماركسي). تقول بريجيت:

> "The move was to be from private existence, within the confines of the family, to the public realm, where supposedly more important things were going on. Thus freedom means, above all, freedom from the family."(1)

> الترجمة: «فالتحول يكون من الحياة الخاصة في حدود الأسرة إلى المجال العام، حيث تحدث، كما هو مفترض، أشياء أهم، وعليه فالحرية تعني، قبل كل شيء، التحرر من الأسرة».

---

(١) Burger, B, and P, The War Over The Family, Penguin books, 1984, p34.

وهكذا مهدت بيتي فريدان في كتابها للأنثوية، وعلى خطاها انخرطت مجموعات فيما أسمينه بعملية تفكيك مفاهيم (أنثى) و(أنوثة) و(امرأة) دون نجاح في تقديم البديل كما وضحنا. وتحت وطأة الفشل اتجهت أخريات إلى نقضِ نظام الأسرة وقلب قيمها ومقاصدها. ومن هؤلاء الكاتبة الأنثوية شولاميث فايرستون (١٩٤٤-) ففي كتابها (The Dialectic of Sex 1970) جدلية الجنس، تقول شولاميث: إن أسباب ما أسمته بقمع المرأة يعود إلى الفرق الطبيعي في التكوين للجنسين، والذي أدى إلى تقسيم الأدوار على أساس بيولوجي. وتطرح فايرستون مقولتها كما تقول سارة قامبل: «باعتبارها تطويراً للفكر الماركسي الذي ترى أنه يتجاهل كون النساء فئة مقموعة في ذاتها، تسميها (طبقة الجنس)»[١].

وتشير سو ثورنام إلى أن فايرستون تدعو إلى تحرير المرأة من خلال النموذج الماركسي، أي «بثورة الطبقة الدنيا (النساء) والسيطرة على التناسل» وتقول: إن فايرستون تبني تصوراً عن يوتوبيا أنثوية تقضي فيها تكنولوجية الإنجاب على طغيان التقسيم الجنسي القائم على المبادئ البيولوجية. وبذلك يصبح الطريق ممهداً لانهيار تلك البنيات الاجتماعية والثقافية وهي الأسرة.. والزواج والأمومة.. التي تقدم الدعم الأيديولوجي لهذا التقسيم الجنسي»[٢].

أما مونيك ويتق فتدعو إلى ثورة أنثوية لا لتغيير النظام السياسي والاجتماعي فحسب، وإنما لتغيير نظام الأسرة والعلاقات الشخصية. وترى أن أول عوامل نجاح هذه الثورة هو (توعية) النساء أي أن يترسخ في وعيهن أنهن موضوع الهيمنة والاحتكار. وتقول مونيك: إن الوعي

---

(١) Gamble, S, Feminism and Postfeminism, op, cit, p341.

(٢) Ibid, P. 68.

بالهيمنة لا يعني فقط مواجهة الهيمنة، فهو كما تقول:

"It is also the whole conceptual reevaluation of the social world, is whole reorganization with new concepts ..."(1)

الترجمة: «(الوعي بالهيمنة) يعني أيضاً إعادة تقويم فكرية كاملة للمجتمع، وإعادة تنظيمه بأفكار جديدة».

وترى ويتق أن أهمية تكوين طبقة النساء للثورة على القمع تكمن في جعل الشعور بالاستعباد شعوراً ووعياً جماعياً وليس فردياً. فالوعي الجماعي بأن الجنس مؤسسة للعنف Institution Violence هو ضمانة نجاح هذه الثورة. وتتمثل ثمار هذه الثورة، كما تقول، في القضاء على المرأة Woman في خيال الرجل ومن ثم في القضاء على التقسيم الثنائي (رجل/امرأة) ومن ثم تتحرر المرأة من مؤسسة العنف أي الدور الجنسي البيولوجي المرتبط بالرجل.

وتدعو ويتق النساء للتحرر من هذه المؤسسة قائلة:

"Our survival demands that we contribute all our strength to the destruction of the class of women within which men appropriate women. This can be accomplished only by the destruction of heterosexuality as a social system which is based on the oppression of women by men and which produces the doctrine of the difference between the sexes to justify this oppression."(2)

الترجمة: «إن خلاصنا يتطلب منا أن نبذل كل ما في وسعنا لتحطيم طبقة النساء التي يستخدمها الرجال لتشكيل

---

(١) Wittig, M. One is Not Born a Woman, in Feminisms, op. cit, P. 225.

(٢) Wittig, M. One is Not Born a Woman, in Feminisms, ibid, P. 226

النساء وفق رغبتهم. وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بتحطيم نظام الزوجية (ذكر/أنثى) بوصفه نظاماً اجتماعياً قائماً على اضطهاد الرجال للنساء، والذي أنتج الاعتقاد في الفرق بين الجنسين كتقنين لهذا الاضطهاد».

فما البديل لنظام الزواج الذي تقدمه ويتق؟

ترى هذه الكاتبة الأنثوية أن الحرية الجنسية الإباحية للمرأة التي طرحتها الشيوعية بديلاً ليست الحل الأمثل. وذلك لأنها تعرض المرأة لمؤسسة العنف ذاتها، أي العلاقة مع الرجل، وعليه؛ تقدم ويتق البديل قائلة:

"...Lesbianism provides for the moment the only social form in which we can live freely. Lesbian is the only concept I Know of which is beyond the categories of sex (woman and man), because the designated subject (lesbian) is never a woman, economically, or politically, or ideologically."(1)

الترجمة: «حالياً يتيح (السحاق) النمط الاجتماعي الوحيد الذي يمكن أن نعيش فيه بحرية. (فسحاقية) هي المفهوم الوحيد الذي أعلم أنه يقع خارج نطاق التقسيم الجنسي (رجل/امرأة)، لأن من تسمى سحاقية ليست امرأة لا اقتصادياً، ولا سياسياً، ولا أيديولوجياً».

سبحان الله! وفي ذات الاتجاه الانقلابي على التدبير الرباني والفطرة السليمة تمضي الباحثة الأنثوية الأدريان ريتشي. تقول أدريان: ربما يدعي بعضهم بأن القمع حالات فردية ينبغي ألا نحكم بها على الزواج مطلقاً. ولكن القضية الأساسية ليست فيما يترتب على الزواج ولكن في نظام الزواج نفسه وسيلةً لخلق علاقة بين الرجل والمرأة.

---

(١) Wittig, M. One is Not Born a Womanm in Feminisms, ibid, P. 226

تقول أدريان:

"heterosexuality has been both forcibly and subliminally imposed on women ... women identification is a source of energy violently curtailed and wasted under the institution heterosexuality ... It will require a courageous grasp of the politics, economics as well as the cultural propaganda of heterosexuality to carry us beyond individual cases ... into the complex kind of overview needed to undo the power men everywhere wield over women..."(1)

الترجمة: «إن نظام الزوجية تم فرضه على النساء ترهيباً وترغيباً.. كما أن هوية النساء مصدر قوة تم تحجيمه وتبديده بعنف في ظل نظام الزوجية.. (الوضع) يحتاج إلى إدراك جريء للترويج السياسي والاقتصادي والثقافي للزواج. (إدراك) نتجاوز به الحالات الفردية أو حالات المجموعات المختلفة إلى نوع من الرؤية المركبة المطلوبة لإزالة سلطة الرجال التي يلوحون بها في كل مكان في وجه النساء».

هذه الرؤية المركبة المطلوبة لإزالة سلطة الرجل، تتمثل في الثورة على نظام الزوجية وإحلال الشذوذ محله. وتقول أدريان: إن الشذوذ هو الأصل الذي تمت محاربته بشتى السبل، ومنها حزام العفة، والزواج المبكر ووصم الشذوذ بأنه داء تجب معالجته. وتقول أدريان: إن الكاتبة الأنثوية كاثلين باري هي أول من لفتت الانتباه إلى أن الختان أيضاً كان المقصود منه محاربة الشذوذ. وتقول: إن الأنثويات جعلن محاربة الختان*

---

(١) Rich, A, Compulsory Heterosexuality and leabian Existence, in Feminisms, op. cit, P. 324-5

* لعلنا ندرك الآن سر اهتمام المنظمات الأنثوية التحررية في بلاد المسلمين بموضوع الختان. وهي قضية ينبغي أن تتم معالجتها بمحو الأمية خاصة الدينية، وليس بالتدويل والتبعية للحركة الأنثوية الغربية.

من أولويات العمل الأنثوي تحت عنوان العنف ضد المرأة.

وشهد العقد السابع من القرن العشرين ظهور كثير من الكاتبات الأنثويات اللائي يدعمن آراء فريدان وفايرستون. فاشتهرت على سبيل المثال جيرمين جرير (١٩٣٩-) والتي دعت المرأة للتحرر الجنسي وسيلةً للحرية الكاملة من الأسرة. كما طالبت النساء برفض الزواج. كما اشتهرت شارلوت بانش التي رأت في الشذوذ قمة تحرر المرأة ورفضها لهيمنة الرجل، كما رأته رمزاً لتحدي المرأة للأنظمة القمعية الأبوية والاجتماعية والأيديولوجية.

وتبنت الحركة الأنثوية البريطانية دعوة الأنثويات الأمريكيات. ففي أول مؤتمر تأسيسي للحركة (١٩٧٠م) دعت المؤتمرات إلى:

> "Total transformation of society from the bottom up, not only a change in economic and political organization, but in the organization of the family and personal relationships."(1)

> **الترجمة**: «التغيير الكامل للمجتمع من القاعدة إلى القمة، ليس فقط تغيير النظام الاقتصادي والاجتماعي، ولكن تغيير نظام الأسرة والعلاقات الشخصية».

وظهر أول تنظيم يدعو لاعتماد الشذوذ بديلاً للأسرة في مدينة ليدز البريطانية عام ١٩٧٩م، باعتباره الهوية الصحيحة للمرأة. وكان للأنثوية الفرنسية التي اعتمدت التحليل النفسي في مجال تجديد هوية المرأة أثرها الكبير في تشكيل نزعة تفكيك الأسرة واعتماد الشذوذ بديلاً. فنلاحظ أثر لوسي إريجاري (١٩٣٥-)، وجوليا كريستيفا (١٩٤١-) على كتابات الأنثويات البريطانيات والأمريكيات.

---

(١) Walter, N, The New Feminism, Virgo Press, 1999, P. 59.

ويفسر موقف الأنثويات من الأسرة بأنه رد فعل على ما أسمينه فشلَ الشيوعية في تحرير المرأة وتراجعها عن دعوتها لإلغاء الأسرة في عهد ستالين. تقول وتكنز:

"Under Stalin, the early great hopes for new ways of living and loving were brought to an end.. "Strengthening the family" was made an official task, "free love" was denounced and introduced as a reward for mothers of seven children or more. Anti-abortion and anti-divorce laws were passed in 1936, and homosexuality was outlawed"(1).

الترجمة: «تلاشت في عهد ستالين كل الآمال الكبيرة في أساليب حياة وحب جديدة. وأصبح (دعم الأسرة) مهمة رسمية. ووصف (الحب الحر) بأنه ابتكار برجوازي.. وخصص وسام تبجيل الأمومة مكافأةً لكل أم لديها سبعة أطفال أو أكثر. وتم وضع قوانين تحريم الإجهاض والطلاق عام ١٩٣٦م، كما تم تحريم الشذوذ».

ويبدو أن الأنثوية أرادت أن تكون أكثر وفاء لمبادئ الشيوعية من ستالين. وعليه جاء الفكر الأنثوي ردّاً على ردة ستالين؛ فانقلبت الأنثويات على (أنثى) و(أنوثة) و(امرأة)، وتمردن على نظام الأسرة، وطالبن بإباحة الإجهاض والطلاق واعتمدن الشذوذ أسرة بديلة.

وفي وصف بليغ لموجة التمرد والارتداد التي أثارتها الأنثويات في العقدين السادس والسابع من القرن العشرين تقول برجيت بيرجر:

"Now it was no longer a protest against this or that

---

(١) Watkins, S, and others, Introducing Feminism , Icon Books, U. K. 1999, P. 93.

aspect of the contemporary role of women, but a reinterpretation of history and, indeed, of the human condition. The family now appears as an age-old evil. Heterosexuality is rape, motherhood is slavery; all relations between the sexes are struggle for power. There came into prominence one huge outcry against being female."(1)

الترجمة: «الآن لم يعد الأمر مجرد اعتراض على هذا الجانب أو ذاك من دور النساء المعاصر، ولكنه إعادة تفسير للتاريخ بل حقيقة للوضع الإنساني. أصبحت الأسرة كأنها شر مزمن، والزوجية اغتصاباً، والأمومة استرقاقاً، وكل العلاقات بين الجنسين أصبحت صراعاً على السلطة، وارتفعت صرخة عالية ضد الأنثى».

وحول هذا الوضع أيضاً تقول ناتاشا وولتر: إن الأنثويات، في آخر مؤتمر قومي انعقد في العام ١٩٧٨م، أجزن قراراً يؤكد على حق المرأة في تحديد ميولها الجنسية، وتقول ناتاشا:

"This desire to define one's own sexuality became not about ... strengthening women's economic and legal power, but simply about changing one's own behaviour on a merely personal level. To become celibate or lesbian was often the touted solution to women's problems."(2)

الترجمة: «هذه الرغبة في حق الواحدة في تحديد ميولها الجنسية لم تكن رغبة في دعم المرأة اقتصادياً أو قانونياً (لمواجهة الهيمنة) وإنما ببساطة عن حق الواحدة في تغيير سلوكها الشخصي على أسس شخصية، ومن ثم تم

---

(١) Berger, B, and , P, The War Over the Family, Penguin Books, 1984, P. 35.

(٢) Walter, N, The New Feminism, op, cit, P. 59-60.

اعتماد الرهبنة أو الشذوذ على أنه الحل الأمثل لمشاكل المرأة».

ولضمان نجاح هذه الحملة ضد الأسرة تقلل الأنثويات من شأن مفهوم الأمومة الذي يتشكل في إطار مفهوم الوظيفة الطبيعية والبيولوجية. وتدعو الأنثويات إلى الاستفادة من تقانة الأجنة الحديثة لوضع حد لهيمنة نظام الزوجية باعتباره سبيل التكاثر الطبيعي. وتحلم بعض الكاتبات الأنثويات بتطوير وسيلة التكاثر اللاجنسي (Parthemenogenesis) مثل الأنثوية شارلوت جيلمان، كتاب (أرضها ١٩١٥م)، ونعومي ميتشلسون (الرجل المؤنث ١٩٧٥م).

وترتب على الدعوة الأنثوية لتحديد النسل، وإتاحة الموانع للجميع، وإباحة الإجهاض أن اتهمها بعضهم بأنها مرتبطة بالحركة المالثوسية الجديدة (Neomalthusian movement) التي تمثل امتداداً لحركة مالثوس التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، وتركزت أهدافها في دفع البحوث العلمية الخاصة بموانع الحمل دعماً للحرية الجنسية والإباحية وإلغاء الأسرة. ويبدو من هذا أنها جزء من حركة وايزهوبت (الماسونية المستنيرة) في إطار واجهتها الشيوعية.

هذه هي مفاهيم ومبادئ ومضامين الفكر الأنثوي الذي حاولَتْ من خلاله الأنثويات تفكيك وجود الأنثى والمرأة والأسرة. وذلك عبر مواجهة صارمة مع الرجل ومعتقدات وقيم المجتمع الغربي، وعبر أنثنة الأطر (الأبوية، الدين، اللغة، الفن، الزي، الأنثى، الأنوثة، المرأة، الزواج والأسرة) وخلق نظام أسري أنثوي بديل.

انتشار وتقنين مفاهيم الأنثوية

ذكرنا أن الحركة الأنثوية ظهرت ردَّ فعل على التيار المتصاعد في أمريكة في الخمسينيات، والرامي إلى استعادة قدسية ووظيفة الأسرة بوصفها حلاً وحيداً للمشاكل الاجتماعية التي نتجت عن التطور المادي ومبادئ وسلوكيات التوجه المادي اللاديني الإنسانوي العالماني.

ولم تكن الحركة الأنثوية وحدها هي الرافضة لاستعادة دور الأسرة في إطارها المسيحي البروتستانتي، بل كانت الأنثوية رافداً من روافد تيار كبير ظهر في تلك الفترة؛ وهو التيار اللاديني العالماني الإنسانوي الذي حقق نجاحاً كبيراً في مجال التغيير الاجتماعي والسلوكي في الغرب كله؛ فقد نجح في إقصاء الدين عن الدولة، وفي نشر قيم الإباحية والحرية غير المحدودة باسم حقوق الإنسان، وجرد الأسرة من دورها التربوي الاقتصادي.. إلخ، وكانت هذه الإنجازات تطبيقاً عملياً للفكر الشيوعي الداروني الدوركهايمي.

وقد شهد منتصف القرن العشرين النتائج الوخيمة لانتصار هذا التيار متمثلة في الإباحية وارتفاع نسبة الطلاق، والإدمان، والأطفال غير الشرعيين؛ كما ظهرت مجموعات تعبر عن ضياع الفرد في المجتمع الغربي مثل الهيبيز.. إلخ. وزادت حرب فيتنام من مأساة الأسرة وذلك بسبب إجبار النساء على شغل وظائف الرجال الذين غادروا للحرب.

وبعد نهاية الحرب ظهر الاتجاه الرامي إلى العودة إلى الأسرة بوصفها حلاً جذرياً أمثل لهذه المشاكل. هنا برز التيار العالماني وجند هذا التيار عدداً من علماء الاجتماع الماديين الذين انخرطوا في دراسة شكل ووظيفة الأسرة. وبدلاً من التصدي للعلل الاجتماعية ودراسة أسبابها قال هؤلاء: إن كل هذه العلل هي تطورات حتمية يجب أن تبقى، وعلى القديم (الأسرة) أن يذهب وفق قوانين الداروينية. أو كما قالت بيرجر:

"The definition of the problem was turned upside down: No longer were deviations from the norm seen as the problem, but the norm itself - That is, the normative American family - was perceived and denounced as the real problem."(1)

الترجمة: «إن تعريف المشكلة قد انقلب رأساً على عقب: لم يعد الخروج عن المعيار المألوف هو المشكلة، ولكن المعيار نفسه - أي النموذج الأمريكي للأسرة - اعتبر هو المشكلة».

بات واضحاً أن هدف علماء الاجتماع الماديين هو تقنين أدواء المجتمع، مثل تفكك الأسرة، والانحرافات السلوكية، واعتبارها، وفق منظور الداروينية والمادية التاريخية تطورات حتمية. فالأسرة في نظر هؤلاء لم تعد ضرورية لأفرادها اقتصادياً؛ لأن المرأة تحررت من التبعية الاقتصادية لزوجها عبر العمل، ولا تربوياً لأن تربية الأطفال هي مهمة الدولة حتى تخرج أجيالاً عالمانيين لا صلة لهم بالقيم العقائدية والأخلاقية التي ينبغي أن تذهب مع الأسرة.

ومن أشهر علماء الاجتماع في هذا الصدد تالكوت بارسونز الذي أكد على نهاية وظيفة الأسرة وشكلها المألوف، وطالب بأن تقوم الدولة بمسؤولية تربية الأطفال، وعرف بارسونز بمصطلحه الشهير (مهنية الأمومة Professionalization of perenthood)، في إشارة إلى أنها أفضل من الأمومة الطبيعية داخل الأسرة. ويقول: إن هذا يتيح للزوجين فرصة لتحقيق ذواتهم. أما الاتجاهات الأكثر تطرفاً في موقفها من الأسرة فانعكست في الدعوة إلى الاعتراف بأشكال جديدة للأسر بما فيها الشواذ، ومن هؤلاء روث بيندكت ومارجريت ميد. أما علماء النفس فقد

---

(١) Berger, B, and , P, The War Over the Family, op. cit, P. 26.

اتهموا الأسرة بالمرض وبأنها تعوق حرية الأبناء، فالأسرة في نظر هؤلاء كما تقول بيرجر:

"was presented as pathogenic institution, stunting or repressing of neurotizing the individual in it... (psychologs' focus upon the individual as against the family ... led to an approach to the family as one of the institutional structures against which individual personality must assert itself."(1)

الترجمة: «(يصف علماء النفس الأسرة) بأنها مؤسسة موبوءة تصيب الفرد فيها بالكبت أو القهر أو الشلل. (كما أن تركيز علماء النفس على الفرد بحسبانه ضد أسرته..) أدى إلى الاتجاه لعَدِّ الأسرة واحدة من المؤسسات التي ينبغي على الفرد أن يفرض ذاته عليها».

ومن أمثال هؤلاء R. D. Laing وديفيد كوبر. فقد رأى هؤلاء الأسرة سبباً أساسياً في الأمراض النفسية والعقلية:

"They started to see the family, and in particular the close-knit, inward-looking nuclear family of modern societies; as implicated in the production of mental illness in individuals."(2)

الترجمة: «بدأ هؤلاء (لينق وكوبر) يرون أن الأسرة عامة والأسرة الصغيرة المترابطة المهتمة بشؤونها الخاصة في المجتمعات الحديثة خاصة، تتسبب في إصابة أفرادها بالأمراض العقلية».

---

(١) Berger, B, and , P, The War Over the Family, ibid, P. 72.

(٢) Jorgensen, N, Investigating Families and Households, Harper Collins Pub, 1996, P. 176.

وعليه لم يكن غريباً أن تزامن مع هذه الحرب النفسية:

"The massive expansion of psychology, psychoanalysis, and psychotherapy, in America, generating a complex of helping institutions which from the beginning paid very serious attention to children together with social work."(1)

الترجمة: «(تزامن مع هذه الحرب النفسية) التوسع الكبير في علم النفس وعلم النفس التحليلي والعلاجي في أمريكة، الذي أدى إلى استحداث مجموعة من المؤسسات المساعدة التي تركز اهتمامها بشدة على الأطفال وبالتضامن مع مؤسسة الخدمة الاجتماعية».

هكذا وجدت الأسرة الأمريكية نفسها بين مطرقة مؤسسات الدولة العالمانية التي استولت على وظائفها الأساسية، وسندان المنظرين من علماء الاجتماع والنفس الذين يكرسون في الوعي العام صورة مرعبة عن مؤسسة نشأ المجتمع الغربي على تبجيلها والاحتفاء بتكوينها تحت مظلة وتبريكات مؤسساته الدينية. وبينما الأسرة معزولة تجاهد ما استطاعت للحفاظ على نفسها وقيمها وعلى ما تبقى من عقيدتها في خضم هذا البحر العالماني اللاديني الإباحي المتلاطم، فإذا بالحركة الأنثوية تطل بمشروعها الرامي للقضاء على الأسرة.

ويعدُّ العقد السادس من القرن العشرين عام الحرب على الأسرة في أمريكة؛ فقد توحدت التيارات المناهضة لاستعادة مكانة الأسرة ووظيفتها بوصفها مطلباً أساسياً للتصدي للتحلل الاجتماعي. تصف بيرجر المناخ العام الذي ساد في بداية العقد السادس قائلة:

---

(١) Berger, B, and , P, The War Over the Family, op. cit, P. 24.

"There was now a widespread rebellion against the family ideals of the preceding decade ... Most of the social and cultural movements of 1960's fed into this anti-family mood: The new feminist movement... (gay and lesbian movements) ... The new left (which was highly critical of American society and the normative American family ... and the rising black cultural self - consciousness which rejected prevailing family norms as white impositions)."(1)

الترجمة: «كانت هنالك حركة تمرد واسعة على المثل الخاصة بالأسرة في العقد السابق (أي الخامس).. فمعظم الحركات الاجتماعية والثقافية التي ظهرت في العقد السادس غذّت هذا المزاج المناهض للأسرة، مثل الحركة الأنثوية الجديدة حينها، وحركات التحرر الجنسي الأخرى (الشواذ)، واليسار الجديد الناقد بشدة للمجتمع الأمريكي والنموذج الأسري الأمريكي، والصحوة الثقافية للسود الرافضة لنموذج الأسرة الأمريكي بحسبانه مفروضاً من قبل البيض».

بحلول منتصف العقد السادس، ومن داخل هذه الحركة المتمردة الواسعة تشكلت جبهة موحدة من أربعة تيارات رئيسية كان لها أثرها الخطير في النسيج الاجتماعي الأمريكي. تقول بيرجر:

"By the mid 1960's ... there began a great debunking of what ... was called the 'sentimental myth' of the family. Various political and ideological trends came together in this demolition job. The New left was interested in exalting the public over against all forms of private life, in having women return to the sphere of work, in collectivizing child-raising, and in none-repres-

---

(١) Berger, B, and , P, The War Over the Family, op. cit, P. 27.

sive sexuality. The Feminists, wanting to liberate women from domesticity, were against the privatized and child-centers bourgeois family. Populationists were against the frightful reproductive potential of the family. And the Professional Complexes* (supported by government) ... were obviously interested in proclaiming the inefficiency of the family in providing services that they had a claim to."(1)

الترجمة: «عند منتصف الستينيات بدأت حملة لأكبر عملية تحقير لما أسموه بالأسطورة اللاعقلانية وهي (الأسرة). وشارك في هذه الحملة التدميرية للأسرةِ تيارات سياسية وأيديولوجية، وهي: اليسار الجديد (شيوعيون) ومهمته الأساسية إعلاء فكرة القطاع العام على كل توجه نحو الحياة الخاصة، وإعادة النساء إلى مجال العمل، والدعوة لتربية الأطفال في مؤسسات جماعية، وإشاعة الحرية الجنسية. (أما التيار الثاني) فهو الحركة الأنثوية ومهمتها العمل على تحرير المرأة من أسر الحياة الزوجية، ومناهضة نظام الأسرة البرجوازية القائمة على الخصوصية والاهتمام بالأطفال. (التيار الثالث) وهو السكانيون (أي المهتمون بتحديد النسل) ومهمتهم مناهضة نظام الأسرة بحسبانه مكمن التكاثر السكاني. (أما التيار الرابع) فهو المؤسسات المهنية المدعومة بواسطة الحكومة، ومهمتها الترويج لعدم كفاءة الأسرة في توفير الخدمات (لأفرادها) وأنها هي البديل لذلك».

* مؤسسات الخدمة الاجتماعية والعلاج النفسي.

(١) Berger, B, and , P, The War Over the Family, ibid, P. 73.

من هذا الشاهد التاريخي لأستاذة علم الاجتماع الأمريكية بريجيت بيرجر، يتضح لنا أن مكونات هذه الحملة التدميرية للأسرة تتفق تماماً مع أهداف وايزهوبت (الماسونية المستنيرة)، ومع مفاهيم وأهداف الشيوعية (واجهة الماسونية المستنيرة)، ومع النظام الاجتماعي الدوركهايمي القائم على العالمانية الإنسانوية اللادينية، (وجميعها تم استعراضها في الفصل السابق). وهذه المكونات تهدف، كما هو واضح، إلى تحقيق مخطط الماسونية المستنيرة في إنشاء نظام عالمي بلا دين ولا أسرة، ويقوم على الإباحية والحرية الجنسية، ونشر الموانع وإباحة الإجهاض تحديداً للنسل مع تربية الأطفال منذ الميلاد في مؤسسات النظام العالمي الجديد لضمان تخريج نشء عالماني Secular وفق مقترحات دوركهايم.

برنامج الحركة الأنثوية (الجَنْدر)

ويهمنا من هذه التيارات الحركة الأنثوية، وكيف قامت بمهامها الموكولة إليها لتتكامل مع مهام التيارات الأخرى.

قامت الحركة الأنثوية بتفصيل ما يخصها من مكونات الحملة التدميرية في برنامج يجسد المفاهيم ذاتها ويصوب نحو المقاصد ذاتها الرامية إلى إعادة تشكيل العالم في نظام عالمي جديد وفق رؤية الماسونية المستنيرة. هذا البرنامج يعتمد أيضاً على استراتيجية التفكيك التي اتبعتها الحركة الأنثوية في استهدافها المرأة والأسرة. ونلخص برنامج الحركة الأنثوية على النحو التالي:

١- الدعوة للمساواة التامة بين الجنسين وذلك بالدعوة إلى إلغاء المفاهيم والأصول الدينية التي تقول بحتمية الخلق والوظيفة البيولوجية Gender.

٢- الدعوة لإلغاء الفوارق الجنسية المؤطرة للزوجية بوصفها نظاماً أسرياً، وأن تستبدل بها المساواة الجنسية المتمثلة في الحالة البديل (جندر Gender) وهو المصطلح الذي يشير إلى رفض حصر الجنس في إطاره الرباني الفطري (الذكر والأنثى)، وذلك تمهيداً لتقنين الشذوذ.

٣- الدعوة لإلغاء مفهوم الأسرة القائم على نظام الزوجية (الذكر والأنثى)، والاعتراف بالشذوذ بأنواعه نظاماً أسرياً (Gender).

٤- الدعوة لإلغاء تبعية المرأة للزوج والأطفال للأب، وتجاوز مفهوم أهمية الأسرة للطفل بتوفير مؤسسات رعاية وتربية الأطفال (Gender).

٥- الدعوة لتغيير قوانين الأسرة الخاصة بالزواج والطلاق والوصاية على الأطفال والمستقاة من تعاليم المسيحية (Gender).

٦- الدعوة لتمكين المرأة Empowerment of Women عبر إلغاء تبعيتها الاقتصادية للرجل (الإنفاق على الأسرة Gender).

٧- الدعوة لتمكين المرأة عبر الاعتراف بحقوقها في الحرية الجنسية Sexual Freedom والحرية التناسلية Reproductive Freedom، وذلك بعدم حصرها في مفهوم الأسرة والزواج النمطي كما تسميه الأنثويات (Gender).

٨- المطالبة بتوفير موانع الحمل للجميع بما في ذلك الشباب، وتوفير خدمات الصحة التناسلية Reproductive health (نلاحظ استبدال مصطلح الصحة التناسلية بمصطلح رعاية الأمومة والطفولة Mother and Child Care، فالعلاقات غير محصورة بالزوجية الشرعية وإنما تقوم على الإباحية).

٩- المطالبة بإباحة الإجهاض.

١٠- المطالبة بتمكين المرأة عبر تطوير تقانة الأجنة وذلك لتحقيق تحررها التام عن الرجل، (والسؤال هنا: ألا ترى الأنثويات شراء النطف لزرعها في الأرحام هو من باب الاعتماد على عدوهن المسمى الرجل؟) Gender.

١١- الدعوة لتحرير اللغة من الصيغ الأنثوية أو تلك التي تكرس الزوجية. مثلاً Chairman وChairwoman تكون Chairperson (نشير لمطالبة الأنثويات العربيات بحذف تاء التأنيث ونون النسوة من اللغة العربية!).

١٢- المطالبة بالمساواة للمرأة في مجال العمل.

١٣- العمل على عولمة مفاهيم وأطروحات الحركة الأنثوية بالتنسيق مع الحركات الأوربية، وذلك برعاية منظمات نظيرة في أمريكة الجنوبية وإفريقية وآسية والشرق الأوسط، وعبر استقطاب المنظمات الدولية كالأمم المتحدة مثلاً.

١٤- رفع شعارات المساواة والحرية وحقوق الإنسان وإزالة التمييز والعنف ضد المرأة، ومحاربة العادات الضارة خاصة (الختان) مدخلاً لتنفيذ البرنامج وتحقيق الهدف الكلي أي (الجندر).

- **الأساليب والوسائل**

أما الأساليب والوسائل التي اتبعتها الحركة الأنثوية في تنفيذ هذا البرنامج فتتلخص في:

١- استخدام أسلوب (التوعية) Advocacy أو Conscious raising وهو أسلوب نفسي ذو طبيعة مركبة تقوم على الإرباك

والتشكيك في المفاهيم والقيم التي نشأت عليها المرأة واستمدتها من عقيدتها وإرثها المجتمعي الحميد في إطار الأسرة. ثم يتبع ذلك زرع المفاهيم الأنثوية وإعادة تشكيل وعي المرأة ووجدانها بحيث يستقر فيه شعور مضاد للرجل بحسبانِهِ قامعاً للمرأة، ومضاداً للأسرة بحسبانها مؤسسة القمع وإعاقة التحرر وتحقيق الذات. ويتطلب هذا الأسلوب عملية قلب كاملة للمفاهيم والمصطلحات التي تعبر عنها، فالأسرة نظام نظمي تقليدي قامع، والشذوذ نظام مواكب تحرري، وصحة الأمومة والطفولة تصير صحة تناسلية، والذكر والأنثى تقسيم تمييزي يرتبط بتقسيم الوظائف والقمع، والجندر حالة تحرر ومساواة تامة تتيح ممارسة ذات الوظائف في إطار الجنس الواحد.

٢- تقسيم الأدوار بين التيارات الأنثوية (المتطرفات والاشتراكيات والليبراليات) وقد تم تفصيل ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل.

٣- استقطاب أجهزة الإعلام لتبني أطروحات الأنثوية ونشرها.

٤- استقطاب أجهزة الدولة والأحزاب السياسية ومجموعات الضغط والمؤسسات الخاصة بالأسرة (المهنية والعلاجية) لدفع الدولة لاستصدار التشريعات الداعمة للمفاهيم الأنثوية، وإنشاء المؤسسات البديلة للأسرة في مجال رعاية الأطفال.

٥- توجيه الأنثويات في مؤسسات التعليم العالي، وعلماء الاجتماع وعلم النفس بوضع نظريات حول مبادئ ومفاهيم الأنثوية وإدراجها في المناهج التعليمية.

إنجازات الحركة الأنثوية

بالرغم من قلة عضويتها ورفض المجتمع الأمريكي عامة، والنساء خاصة، لأطروحاتها، إلا أن الحركة الأنثوية استطاعت تحقيق كثير من أهدافها في أمريكة حيث نشأت وفي دول أوربة الغربية. ويمكن تلخيص ما حققته من مكاسب على النحو التالي:

١- اكتسبت الأنثوية التيار العالماني الإنسانوي، ولاسيما في رافده الشيوعي دفعة قوية بتأسيس تيار خاص بالمرأة تولى مهمة تحريرها شيوعياً بعد أن حال ستالين دون ذلك.

٢- تمكنت الأنثوية، وبدعم من التيارات النظيرة، من فرض وتقنين الشذوذ ليكون أسرة بديلة، ففي مؤتمر البيت الأبيض حول الأسرة عام ١٩٨٠م صدر قرار بتوسيع مصطلح (الأسرة) Family ليصبح الأسر Families، أي اعتبار الشذوذ بأنواعه أسراً معترفاً بها، هذا القرار أدى لظهور تيار مضاد للأنثوية كما سنوضح لاحقاً.

٣- استطاعت الحركة الأنثوية استصدار قانون تنظيم الأسرة وأصبح لزاماً، بمقتضاه، على الدولة توفير الموانع للجميع، ففي عام ١٩٧٢م:

> "The Supreme Court decided that an individual, married or single had the right to obtain contraceptive information ... (Also in 1972) the family planning Act. Provided federal subsidization of birth-control clinics for all."(1)

أي: «إن المحكمة العليا أقرت حصول الفرد - متزوجاً أم غير متزوج - على المعلومات الخاصة بموانع الحمل، كما أقرت دعم الحكومة لعيادات منع الحمل للجميع».

٤- استطاعت الحركة الأنثوية عبر جماعات الضغط تقنين الإجهاض.

---

(١) Berger, B, and P. The War Over the Family, ibid, P. 39.

ففي عام ١٩٧٣م أصدرت المحكمة الأمريكية العليا قراراً يبيح الإجهاض في الثلاثة الأشهر الأولى للحمل دون اعتبار للأسباب. وفي عام ١٩٧٦م وتحت الضغط أصدرت المحكمة ذاتها قراراً يجعل الإجهاض لاحقاً حقاً من حقوق المرأة لا دخل للزوج ولا للأب فيه.

٥- زادت الحركة الأنثوية من ظاهرة الإباحية والفوضى الجنسية التي بدأت في أمريكة وأوربة في الستينيات بنشرها لمفاهيم الحرية الجنسية وخدمات الصحة التناسلية للجميع (الموانع، الإجهاض،.. إلخ). كما زادت من حدة التوجه الإباحي بدفع المحكمة العليا لاستصدار قرار يبيح نشر المواد الإباحية في أجهزة الإعلام باسم حرية التعبير.

٦- استطاعت الأنثوية استقطاب عدد مقدر من علماء الأجناس وعلم الاجتماع والنفس في الجامعات لدعم مشروع القضاء على الأسرة. ففي مجال علم الأجناس ظهر علماء - على خطا ماركس وإنجلز - يتحدثون عن تعدد أشكال الأسرة منذ بداية الإنسانية بما فيها الشواذ، ومن هؤلاء روث بيندكت ومارجريت ميد. وفي مجال علم الاجتماع اشتهر تالكوت بارسونز الذي برر ضرورة ذهاب الأسرة بمنظور داروني. أما في مجال علم النفس فقد اشتهر أبراهام ماسلو وكارل روجرز اللذان رأيا الأسرة موطناً للداء ينبغي التمرد عليه.

٧- دفعت الأنثوية والتيارات النظيرة بمؤلفات هؤلاء العلماء لتكون كتباً ومراجع أساسية في الجامعات للتأثير في الطلاب:

> "On elite campuses the desire for a family has become somewhat shame faced or - almost a dirty little secret, looked at as irrational, uninformed or plain reactionary."[1]

---

(١) Berger, B, and P. The War Over the Family, ibid, P. 39154.

الترجمة: «في أرقى الجامعات أصبحت الرغبة في تكوين الأسرة أمراً مخجلاً، بل ربما سراً قبيحاً، وينظر إليها على أنها فكرة غير عقلانية، غير مدروسة، أو ببساطة نوعاً من التهور».

٨- تمكنت الأنثوية والتيارات النظيرة والمؤسسات الخدمية مدعومة بآراء هؤلاء العلماء، من دفع الدولة لتجزئة مكونات الأسرة Categorization بحيث يسهل وضع السياسات والبرامج وإنشاء المؤسسات التي تحل محل الأسرة. فبعد أن تصبح النساء طبقة متحررة من قيود الدين والقيم والزواج، ويذهب الرجال في سبيلهم تحت وطأة الحرب المعلنة عليهم، أصبحت هنالك ضرورة لطبقنة الأطفال والشباب فظهرت مصطلحات Childhood الطفولة، وAdolescents الشباب، ولكل حقوقه وحرياته والمؤسسات المسؤولة عنه. وبعد تحرير الأبناء من الرابطة الأسرية من أجل تحقيق الذات، وتنمية المشاعر السلبية في نفوسهم عن الأسرة والوالدين تظهر لاحقاً طبقة كبار السن Elderly لتصبح أيضاً مصدر رزق لمؤسسة ما. وتصبح هذه الطبقات جميعاً تحت سلطان الدولة ومؤسساتها، والمنظمات الرابحة من هذا الوضع الذي يرمي لتفكيك الأسرة.

٩- استطاعت الأنثوية والتيارات الداعمة لها استصدار قرارات من الدولة بمنع الصلاة في المدارس، وعدم عرض الرموز الدينية في الأعياد.

١٠- وربما إمعاناً في تحقير الدين والكنيسة فرضت الأنثوية مع ضغط التيارات الأخرى عقد الزيجات الشاذة في بعض الكنائس بواسطة رجال الدين، وفي إحدى إصدارات مجلة النيوزويك الأمريكية في الثمانينيات كان رجل العام قسيساً يقوم بتزويج رجلين، ربما دعماً لهذا الاتجاه الرامي للسخرية من قواعد الدين المسيحي.

هكذا استطاعت الحركة الأنثوية تحقيق هذه المكاسب الخطيرة. ولا يعود السبب في ذلك لكثرة أتباعها أو قبول المجتمع الأمريكي بأطروحاتها؛ ولكن يعود السبب إلى تضامن التيارات اليسارية الشيوعية معها وتجاوب مؤسسات الحكم العالمانية الإنسانوية الليبرالية مع مطالبها، فبالرغم من اختلاف الأسماء (يسار شيوعي ونظام عالماني إنسانوي ليبرالي) إلا أن التيارين تجمع بينهما وحدة المبادئ والمفاهيم والأهداف.

كان العقد السادس من القرن العشرين، في أمريكة وأوربة الغربية، يمثل بداية لتجديد روح التوجه العالماني الإنسانوي المادي اللاديني، عبر انقلاب شامل على العقيدة وما ارتبط بها من قيم ومؤسسات كالأسرة، مدعوم بالتشريعات ومؤسسات العلم والإعلام والمال، أما العقد السابع فقد شهد النتائج الخطيرة لهذا الانقلاب الذي قادته الحركة الأنثوية وشركاؤها من تيار اليسار الجديد.

فقد ضرب العقد السابع الرقم القياسي في التفكيك الأسري بارتفاع نسبة الطلاق، وارتفاع نسبة المواليد غير الشرعيين، وارتفاع نسبة الجريمة والإدمان، وفي عام ١٩٧٥م مثلاً وبعد عامين من إباحة الإجهاض بلغت حالات الإجهاض مليون حالة لغير المتزوجات. وفي عام ١٩٧٦م بلغت حالات الطلاق مليون حالة. وانتشرت ظاهرة الشذوذ والمجموعات ذات السلوكيات الغريبة مثل الهيبز.

والملاحظ أن هذه النتائج تشير إلى أن ميدان المعركة الحقيقي هو الأسرة، فهي المدخل الحقيقي لسلامة المجتمع أو خرابه. والشاهد على ذلك أن الحركة الأنثوية ومن والاها في هذا المشروع التدميري عدت النتائج الوخيمة المشار إليها دلالة لا على نهاية المجتمع، بل على نهاية الأسرة، بل موتها. تقول بيرجر:

"The view that the family was dying if not already dead ... constituted good news ... the radical social scientist Barrington Moore suggested that we should give the family a decent burial. Radical feminists (such as Shulamis Firestone and Juliet Mitchell) and radical psychiatrists (Notably R. D. Laing and his disciples) were all too eager to proceed with the burial (of the nest of oppression and pathology)."(1)

الترجمة: «إن وجهة النظر القائلة بأن الأسرة على وشك الموت بل ماتت كانت بمثابة الخبر السار (للذين عملوا لموتها). فبارنجتون مور، عالم الاجتماع الراديكالي، اقترح إقامة تشييع محترم للأسرة. أما الأنثويات الراديكاليات (أمثال شولاميث فايرستون وجولييت ميتشل)، وعلماء النفس الراديكاليون (ولاسيما لينق وأتباعه) فقد كانت رغبتهم التعجيل بدفن عش القمع والوباء هذا (يقصدون الأسرة)».

إن ابتهاج هذه القوى، بما فيها الأنثوية، بموت الأسرة يعبر عن اطمئنان ضمني بأن السيطرة على المجتمع كله لم تعد أمراً صعباً، فموت الأسرة يعني موت الأمة، وقد علق أحد الخبراء على مآلات ما يدور في تلك الفترة بقوله:

"I honestly believe that civilization as we know it is imperiled by the forces that are eroding the family ... of all the problems facing Americans today ... none are more pressing than the crises in our family. Destroy the internal structure of the family and you are going to wreck civilization."(2)

---

(١) Berger, B, and P. The War Over the Family, ibid, P. 27

(٢) La Haye, T and B, Spirit Controlled Family, Living Fleming H. Pub, 1978, P. 26.

الترجمة: «أعتقد بحق أن الحضارة كما نعرفها باتت مهددة بالقوى التي تعمل على تفكيك الأسرة، فمن بين جميع المشاكل التي تواجهها أمريكة اليوم لا توجد بينها مشكلة أكثر خطورة من الأزمة التي تواجه الأسرة. فإذا أردت أن تدمر الحضارة فعليك بتدمير البنية الداخلية للأسرة».

تيار مناهضة الأنثوية في الغرب

إن وعي كثيرين بما سيحدث للمجتمع بعد تفكيك الأسرة أدى إلى ظهور تيار قوي مناهض للحلف الأنثوي اليساري المدعوم بأجهزة التشريع ومؤسسات الدولة. كانت بداية انطلاق هذا التيار في العام ١٩٧٦م ردّاً على إصدار المحكمة العليا قرار إباحة الإجهاض بلا تدخل من الآباء أو الأزواج. فبالنسبة إلى كثيرين كان هذا تجاوزاً للخطوط الحمر داخل الأسرة؛ وعليه تشكلت حركة قوية باسم حركة مناهضة الإجهاض Anti-abortion movement وتعرف أيضاً باسم مؤيدي الحياة Pro-life لِكَوْن الإجهاض عملية قتل.

تلا ذلك ظهور حركات تخصص كل منها في مناهضة جانب من جوانب مشروع الحركة الأنثوية واليسار الجديد. من هذه الحركات Families in Action وكانت تعمل في مجال محاربة الأدب الإباحي في المكتبات وأجهزة الإعلام، ومكافحة المخدرات والشذوذ. ومنها "The National Right to Life Committee" (ضد الإجهاض)، ومنها منظمة "Stop the Equal Rights Amendment" وهي ضد مساواة المرأة بالمفهوم الأنثوي. ومنها "Happiness of Womanhood" وهي مناهضة للموقف الأنثوي من المرأة، ولها فرع رجالي باسم "Happy Husbands". ومنها "Feminine Anti-Feminists" وهي ضد موقف الحركة الأنثوية من الأنثى.

ومنها "The league of Housewives" و"National Pro- Family Coalition" وهي منظمات داعمة للأسرة. وفي عام ١٩٨٠م ظهرت منظمات Moral Majority و National Federation Decency وCoalition for Better Television.

وتمثل هذه المنظمات اليمين المسيحي المحافظ، وعرفت بدعمها للحزب الجمهوري، ووجدت سنداً سياسياً كبيراً في فترة رئاسة رونالد ريجان، وجورج بوش الأب، واستطاعت هذه المنظمات استصدار قانون حماية الأسرة وإدخال تعديلات على قانون إباحة الإجهاض. وتلتقي هذه المنظمات على خطة واحدة، ضد تحالف الأنثوية واليسار الجديد، وتشتمل على التحديات الأساسية التي تواجه الأسرة والمجتمع الأمريكي. وأبرز القضايا التي تصدت لها هذه المنظمات هي:

a. Homosexuality, pornography, abortion and Equal Rights Amendment.

(ضد الشذوذ، الإباحية، الإجهاض، والحقوق المتساوية للرجل والمرأة وفق المنظور الأنثوي).

b. Secular humanism.

(ضد التوجه العالماني الإنسانوي).

c. Support traditional family and traditional roles within the family.

(دعم نظام الأسرة المعروف ودعم الأدوار المعروفة؛ أي مسؤولية الأم في التربية ومسؤولية الأب في الإنفاق).

d. Support traditional notions of moral responsibility not only in family but in a wide range of social behaviour.

(دعم النظام الأخلاقي والمسؤولية الأخلاقية ليس داخل الأسرة فحسب، بل في عديد من جوانب السلوك الاجتماعي).

وإلى جانب هذه المنظمات والجمعيات التي تصدت للحركة الأنثوية برز في المجال الأكاديمي عدد مقدر من المفكرين الذين تصدوا بالنقد للنظريات الأنثوية، بل ظهرت كاتبات من داخل الحركة الأنثوية نفسها طالبن بتصحيح مسار الحركة بالتخلي عن أيديولوجية الصراع مع الرجل والمجتمع، والانصراف للتصدي للقضايا الحقوقية التي تهم غالبية النساء. وانتقدت أخريات الإنتاج الفكري للأنثويات، ومن أشهر هؤلاء الناقدة والمؤلفة الأمريكية (من أصل إفريقي) بيل هوكس (١٩٥٢م)، التي وصفت النظريات الأنثوية بأنها انعكاسات لتجارب ومواقف شخصية خاصة بالمرأة البيضاء الثرية ولا تنطبق على جميع النساء.

أما ناتاشا ولتر الناقدة الأنثوية البريطانية (١٩٦٧م) فيمثل كتابها (The New Feminism 1999) ثورة على الأنثوية. فهي تصف الأنثوية في موقفها من الأسرة والرجل، بأنها تجاوزت قضايا الحقوق إلى التدخل السافر في خصوصيات الحياة والمجتمع. تقول ناتاشا:

"Feminism has over-determined our private lives and interpreted too many aspects of our cultural life as evidence of a simplistic battle, patriarchy versus women. When feminist academics began to theorize the very structure of language as oppressively patriarchal, or saw the very technique of cinema as evidence of an oppressive male gaze, they did us no favours; they forgot all the subtleties of culture and art in their desire to map out an overarching pattern into which every detail of

their own sexual lives in the search for their power or lack of it, they forgot that personal life does not always march to a political drumbeat."(1)

الترجمة: «لقد حكمت الأنثوية على حياتنا الخاصة، وفسرت كثيراً من جوانب حياتنا الثقافية بأنها شاهد على مجرد معركة بين الأبوية والنساء. وعندما تبدأ الأكاديميات الأنثويات بالتنظير لتراكيب اللغة على أنها أبوية قمعية، أو لا يرين في التقانة السينمائية سوى دليلٍ على تحديق ذكوري قمعي، فإنهن لا يسدين لنا معروفاً؛ ففي سعيهن لوضع معيار تخضع له كل الأشياء تناست (الأنثويات) لمسات الثقافة والفن الرقيقة. وعندما اختارت الكاتبات الأنثويات الخوض في كل تفاصيل حياتهن الجنسية بحثاً عن قوتهن أو عدمها، نسين أن الحياة الشخصية من النادر أن تكون لها علاقة بالحياة السياسية».

وبالرغم من ظهور المنظمات التي تصدت لمشروع التحالف العالماني اليساري الأنثوي، إلا أن مخطط تدمير الأسرة وتفكيك النسيج الاجتماعي والأخلاقي ظل مستمراً وفاعلاً في الغرب وفي أمريكة خاصة. وينعكس هذا الاستمرار في حال المجتمع الأمريكي في نهاية القرن العشرين كما وصفه روبرتسون قائلاً:

"Virtually every recent pressure in society has been antifamily. We have brought in no-fault divorces. We have raised the tax burden on families by 26 percent. We have subsidized illegitimate births. We have permitted teenage abortions without parental consent. We have opened sex clinics in schools to teach illicit sex and to

(١) Walter, N, The Feminism, op. cit, P. 6.

pass out contraceptives ... The number of working mothers has skyrocketed from 32.8 percent in 1948 to 66.6 percent by 1990 ... Then we through social security, medicare ... and other impersonal government assistance programs, have effectively cut the lifeline between children and their elderly parents.."[1].

الترجمة: «كل الضغوط الحالية في المجتمع موجهة في الأغلب ضد الأسرة. لقد سمحنا بالطلاق بلا مبرراتٍ له. وزدنا عبء الضرائب على الأسرة بنسة ٢٦٪ ودعمنا المواليد غير الشرعيين. وسمحنا بالإجهاض للقاصرين دون موافقة الأبوين. وفتحنا عيادات الجنس في المدارس لتعليم الفواحش وتوزيع موانع الحمل. وارتفع عدد الأمهات العاملات من نسبة ٣٢,٨٪ في عام ١٩٤٨ إلى نسبة ٦٦,٦٨٪ في عام ١٩٩٠م... ثم عبر نظام الضمان الاجتماعي، والرعاية والدعم الصحي وغيره من برامج الخدمات الحكومية، نجحنا في قطع الصلة بين الأبناء والآباء والأمهات كبار السن».

والحال ليست بأفضل منها في بدايات القرن الحادي والعشرين؛ فقد أشرنا في الفصل الثاني إلى تحليل الكاتب صموئيل هنتنجتون لما آل إليه حال المجتمعات الغربية، أمريكة خاصة، بسبب سطوة التيار اللاديني العالماني الإنسانوي وأذرعه مثل الحركة الأنثوية واليسار وغيرهم.

---

(١) Robertson, p, The New World Order, op, cit, P. 238-239.

عولمة الفكر الأنثوي

استطاعت الحركة الأنثوية في الغرب، وفي أمريكة خاصة، تجاوز الرفض المجتمعي والفكري لأطروحاتها وشعاراتها، وذلك بتغيير أسلوبها ووسائلها في تحقيق أهدافها، وقد تم هذا التغيير التكتيكي على مستويين: فكري وعملي.

أما على المستوى الفكري فقد لجأت الأنثويات إلى استخدام مصطلحات غامضة للتعبير عن المفاهيم الأنثوية. ومن أهم هذه المصطلحات مصطلح جندر (Gender) الذي أصبح مرادفاً لأنثوية. فجندر في مفهومها الكلي تعني رفض الاختلاف الجوهري الطبيعي بين الرجل والمرأة، أي لا توجد ذاتٌ مذكرةٌ وذاتٌ مؤنثةٌ في جوهرها. وتعني أيضاً أنه يمكن لكل من الجنسين اتخاذ موقع الذات المذكرة أو المؤنثة إذا شاء؛ أي إن الكائن الموجود قابل لصياغة هوية جديدة تلتصق به. فجندر رفض لمصطلحي رجل/امرأة، ذكر/أنثى، أب/أم، مربية/منفق.. إلخ.

ومن المصطلحات أيضاً توعية Advocacy أو Consciousness raising، التي لا تعني التعليم أو محو الأمية، وإنما تعني إحداث قلب كامل لكل ما رسخ في عقل ووجدان الفرد من مفاهيم ذات صلة بعقيدته وإرثه الثقافي والاجتماعي.

أما على المستوى العملي فقد تجاوزت الحركة الأنثوية التيار المناهض لها بالاتجاه نحو العالمية وعولمة أفكارها. فالعالمية تعني توسيع قاعدة الحلف الأنثوي اليساري السكاني الأمريكي بتمتين العلاقات والتنسيق مع المنظمات الأنثوية في العالم. وقد استغلت الأنثوية الانتشار العالمي للسكانيين Populationists. فالاتحاد الأمريكي لتنظيم الأسرة

(أسس في العام ١٩٤٢م) عمل على تأسيس جمعيات لتنظيم الأسرة في دول العالم النامي، وقام بتأسيس الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة (١٩٤٨م). وتم تأسيس أول مجلس قومي للسكان بأمريكة في العام ١٩٥٦م. وشهد العام ١٩٦٨م، متزامناً مع ظهور الحركة الأنثوية، التركيزَ على ما يسمى بالانفجار السكاني وضرورة تحديد النسل. تلا ذلك المطالبة بإصدار التشريعات الخاصة بنشر موانع الحمل وإباحة الإجهاض، ثم إنشاء صندوق الأمم المتحدة للأنشطة السكانية (١٩٦٨م)، وله فروع في معظم الدول.

وإلى جانب جمعيات تنظيم الأسرة، ظهرت المنظمات العاملة في مجال الصحة التناسلية Reproductive health وجمعيات محاربة العادات الضارة، وحماية البيئة. هذا إلى جانب عديد من المراكز البحثية الخاصة بالدراسات السكانية ودراسات (الجندر).

وقد أدت ثورة تقانة الاتصال والمعلومات إلى تفعيل الروابط والتنسيق بين الأذرع العالمية هذه والمراكز الرئيسية في أوربة وأمريكة، فمثلاً المنظمة الأنثوية الأمريكية المسماة Equality Now (المساواة الآن) ومقرها بنيويورك، تمتلك شبكةً باسم "شبكة التحرك من أجل المرأة Women's Action Network" . ولهذه الشبكة أفرع في مختلف أنحاء العالم، مثلاً مكتب إفريقية ومقره بنيروبي. وعبر هذه الشبكات والأفرع تتم متابعة تنفيذ برنامج الحركة الأنثوية (الجندر) بتفاصيله كلها رغم ادعاء الحركة الأنثوية الالتزام باحترام العقائد والثقافات واللغات.. إلخ[١].

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر موقع Women's Action network, Equality Now على الإنترنت.

أما أخطر ما حققته الحركة الأنثوية في مجال عولمة فكرها، فهو اختراقها للمنظمات الإقليمية والدولية والأمم المتحدة خاصة، فقد كان لوجود مؤسسة للسكانيين - Populationists حلفاء الأنثوية - داخل الأمم المتحدة دور كبير في تسهيل مشروع عولمة الفكر الأنثوي.

وتكمن خطورة هذا الاختراق في استغلال الأمم المتحدة في تقنين المشروع الأنثوي وإلزام الدول الأعضاء بتنفيذه تحت رقابة آليات استحدثت لهذا الغرض. ففي العام ١٩٧٩م تبنت الأمم المتحدة اتفاقية تحمل في طياتها المشروع الأنثوي وهي اتفاقية إلغاء جميع أشكال التمييز ضد المرأة.

"Convention on the Elimination of all forms of Discrimination Against Women."

وتعرف اختصاراً بـ CEDAW (الأحرف تحتها خط) سيداو. ولهذه الاتفاقية لجنة تحرسها وتسهر على متابعة الضغط على الدول لتوقيعها وتطبيقها مستغلة في ذلك منظمات الحركة الأنثوية عالمياً. وبالرغم من عدم المشاركة في وضعها، فإن عدداً كبيراً من الدول وقعت عليها دون الانتباه لمخالفة بنودها الصريحة للميثاق الدولي لحقوق الإنسان، ودون الانتباه لاستهدافها الخطير للأسرة والمرأة والعقيدة والأخلاق.

فكيف استطاعت الأنثوية وشركاؤها دفع هذه الاتفاقية وغيرها لاحقاً، في أروقة الأمم المتحدة؟

تقول المحامية الأمريكية والأستاذة بجامعة بريغهام يونق، ومديرة منظمة صوت الأسرة كاثرين بالمفورث:

"The radical feminists, population control ideologues, and homosexual rights activists who make up the anti-family movement ... seek for ways to impose their

will on the majority of nations who support the natural family. They use various undemocratic tactics... unfair negotiating procedures ... and routine use of deception."[1]

الترجمة: «تلجأ الأنثويات المتطرفات، ودعاة تحديد النسل، ونشطاء حقوق الشواذ الذين يشكلون جبهة معادية للأسرة، لكل الوسائل التي يمكن من خلالها فرض إرادتهم على الشعوب التي تدعم الأسرة الطبيعية. إنهم يستخدمون أساليب غير ديمقراطية، وطرق نقاش غير عادلة، بل غالباً ما يلجؤون للخداع».

ومن أبرز هذه الوسائل، كما أشارت بالمفورث، التدخل السافر في إعداد الوثائق، وتضخيمها بصورة لا تتفق مع الزمن المتاح للنقاش. ومنها توزيع الحضور لمجموعات صغيرة متعددة بحيث لا تجد غالبية الوفود الصغيرة عادة من يمثلها في جميع المجموعات. ومنها استخدام لغة غامضة تحمل كثيراً من أوجه المعاني في الوثائق. ومنها أيضاً التدخل في المؤتمرات الإقليمية بقصد الضغط على الدول لتبني برنامج الحرب على الأسرة، وهذا يتم - كما تقول بالمفورث - عبر:

"Sponsoring by the United Nations system of so-called 'Civil society' events... funded with public money. But the participants hand-selected and the outcome pre - determined. The outcome of these events is then presented to UN delegates as the view of all 'Civil society', in an attempt to make them feel isolated and to pressure them into submission."[2]

(١) Balmforth, K, Hijacking Human Rights, paper presented to the World Congress of Families 1999. P. 1-2.

(٢) Balmforth, K, Hijacking Human Rights, ibid, P. 2.

الترجمة: «تبني الأمم المتحدة أنشطة ما يسمى (بالمجتمع المدني)، ممولة من المال العام، إلا أن المشاركين يتم اختيارهم ونتائج الأنشطة تحدد مسبقاً، وتقدم نتائج هذه الأنشطة لوفود الأمم المتحدة على أنها تمثل وجهة نظر المجتمع كله. وذلك في محاولة لعزل هذه الوفود والضغط عليها للاستسلام (للأجندة المعدة من قبل)».

وقد تستخدم الضغوط الاقتصادية وغيرها على الدول النامية لإجبارها على الالتزام بخطط وبرامج عمل هذه الاجتماعات والمؤتمرات. كما يتم الضغط على الحكومات بضم ممثلي المنظمات الخادمة لمشروع الأنثوية والسكانيين إلى الوفود الرسمية. تقول بالمفورث:

"In the recently completed Cairo + 5 meetings over forty seats on national delegations were occupied by so-called 'Family planning' groups, who have a vested interest - in promoting abortion and radical concepts of 're-productive rights' for children. These special interest groups do not speak with the countries they purport to represent."(1)

الترجمة: «في اجتماعات القاهرة + ٥ (لمتابعة تنفيذ توصيات مؤتمر السكان الرابع) كان أكثر من أربعين مقعداً من وفود الدول الأعضاء مخصصة لممثلي ما يسمى بمنظمات (تنظيم الأسرة). وهي منظمات لها مصلحة خاصة - غالباً تمويلية - في دفع إباحة الإجهاض والأفكار المتطرفة الخاصة (بالحقوق الجنسية) للأطفال. هذه المنظمات صاحبة المصلحة الخاصة لا تعبر عن رأي مواطني الدول التي تدعي بأنها تمثلها».

---

(١) Balmforth, K, Hijacking Human Rights, ibid, P. 2.

أما أكثر هذه الأساليب خطورة فهو استغلال هذا الحلف المعادي للأسرة لمفهوم حقوق الإنسان. فقد أقرت الأمم المتحدة ميثاق حقوق الإنسان (١٩٤٨م)، الذي يؤكد على احترام سيادة الشعوب ومعتقداتها وثقافاتها، وعلى حق الأسرة في تنشئة الأبناء في هذا الإطار الخصوصي.

وقد تعرض هذا المفهوم تدريجياً لتوسيع نطاقه بحيث بات يهدد حرية وخصوصية الشعوب، وقد تكون هناك جهات لها مصلحة في هذا التوسيع لتتخذ حقوق الإنسان ذريعة للتدخل في شؤون الدول. إلا أنه من الثابت أن التحالف المعادي للأسرة والأخلاق استغل هذه الثغرة لإدراج مفاهيمه ورؤاه على أنها من الحقوق التي ينبغي حمايتها، تقول بالمفورث:

> "The anti-family faction has targeted the human right system because it is a direct path to power. The power they seek is the power to curtail the freedom of most of humanity and do it, ironically, in the name of 'human rights'."(1)

> **الترجمة**: «إن العصبة المعادية للأسرة استهدفت منظومة حقوق الإنسان لكونها الطريق المباشر للنفوذ. والنفوذ الذي يسعى إليه هؤلاء هو القدرة على تحجيم حرية غالبية الشعوب، وللمفارقة، باسم حقوق الإنسان».

وقد استخدم هذا التحالف، كما تشير بالمفورث، استراتيجية استمالة لجان حقوق الإنسان وكسب ودّها والتي تتكون ممن يسمون بالخبراء، وبدأ هؤلاء فعلاً في إعادة التفسير وإضافة الحواشي للاتفاقيات الخاصة بحقوق الإنسان لتضمينها برنامج هذا التحالف، تقول بالمفورث:

---

(١) Balmforth, K, Hijacking Human Rights, ibid, P. 2

"It has been the mission of the anti-family movement to broaden the international 'human rights' even further, into private areas traditionally reserved first to families and religious institutions who influence lawmaking from bottom up. This invention of new 'rights' which intrude upon family and religion is taking place without any international consensus. Treaty bodies are simply declaring that such rights exist."(1)

الترجمة: «لقد أصبحت مهمة الحركة المضادة للأسرة هي توسيع حقوق الإنسان العالمية أكثر فأكثر نحو مجالات حُفِظت تقليدياً للأسر والمؤسسات الدينية التي تؤثر في وضع التشريعات من أدناها إلى أعلاها. هذا الاستحداث لحقوق جديدة تتدخل في الأسرة والدين يتم بلا إجماع عالمي. فلجان الاتفاقيات وبكل بساطة تعلن فقط عن وجود هذه الحقوق» (أي دون الرجوع للدول الأعضاء).

ومن اللجان التي تقع تحت تأثير بل سيطرة التحالف المعادي للأسرة لجنة اتفاقية (CEDAW) سيداو، تقول بالمفورث:

"Not surprisingly, the most radical activity is taking place in the (CEDAW) committee. While many assume that 'human rights' are meant to protect us from oppressive, intrusive government, CEDAW does the opposite ... it contains sweeping language requiring governments to take all appropriate measurers to modify the social and cultural patterns of conduct of men and women with a view to achieving the elimination of prejudices and cus-

(١) Balmforth, K, Hijacking Human Rights, ibid, P. 3

tomary and all other practices which are based on...
stereotyped roles for men and women."(1)*

الترجمة: «ليس من المستغرب أن أكثر الأنشطة راديكالية ما يحدث في لجنة اتفاقية سيداو، فبينما تفترض الغالبية أن (حقوق الإنسان) يقصد بها حمايتنا من الحكومات التي تضطهدنا وتتدخل في شؤوننا، نجد أن سيداو تفعل العكس تماماً.

إنها تحتوي على لغة صارمة تطالب الحكومات أن تتخذَ جميع التدابير المناسبة لتعديل الأنماط الاجتماعية والثقافية لسلوك الرجل والمرأة بهدف تحقيق القضاء على التحيزات والعادات العرفية وكل الممارسات الأخرى القائمة على فكرة دونية أو تفوق أحد الجنسين أو على أدوار نمطية للرجل والمرأة»*.

والمشكلة كما ترى بالمفورث ليست في بنود الاتفاقية فقط، ولكن فيما تضيفه اللجنة من مفاهيم جديدة يفرضها التحالف المعارض للأسرة باسم حقوق الإنسان. فلجنة سيداو تمارس حق التفسير والإضافة والتعديل دون الرجوع لبعثات الدول أو إلى الجمعية العمومية حتى تكون هنالك رقابة وإجماع على ما يتم إضافته أو تعديله.. إلخ، ولكنها في الوقت ذاته - أي اللجنة - تخضع خضوعاً كاملاً، بعلم أو بغير علم، لما يمليه هذا التحالف، بل تحرص اللجنة على تشديد الرقابة على الدول ومحاسبتها إذا ما استصدرت تشريعات تتعارض مع نصوص الاتفاقية أو ما أضيف إليها.

(١) Ibid, P. 3.

* الجزء الذي تحته خط من النص هو من الجزء الأول البند (أ)، المادة (٥) من اتفاقية سيداو.

* النص بين قوسين مأخوذ من نص اتفاقية سيداو (النص المترجم للعربية).

وقدمت كاثرين بالمفورث كثيراً من الشواهد على ذلك من خلال مشاركتها في اجتماعات لجنة سيداو على مدى عامين متتالين (١٩٩٧-١٩٩٩م). ومن أمثلة ذلك كما أشارت بالمفورث:

"When national governments pass laws protecting motherhood, they are whipsawed by the CEDAW committee which accuses them of paternalism, or of perpetuating damaging which accuses them of paternalism, or of perpetuating damaging stereotypes".

"The CEDAW committee criticized one government for portraying motherhood as a noble calling."

الترجمة: «تتهم لجنة اتفاقية سيداو الحكومات التي تسن تشريعات لحماية الأمومة بالأبوية أو تشجيع أنماط مدمرة. كما تنتقد لجنة الاتفاقية الحكومات التي تصور الأمومة بأنها مهمة نبيلة».

أما في مجال تبني المصطلحات الأنثوية فتقول بالمفورث:

"Both the CEDAW committee and Committee on Human Rights ... have seized upon the concepts of 're-productive rights' and 'reproductive health' - two vague and ambiguously defined terms which appeared in the Cairo and Beijing conference documents. (Both terms) were rejected at both Cairo and Beijing, and would never gain consensus."(1)

الترجمة: «لقد تبنت لجنة سيداو ولجنة (ميثاق) حقوق الإنسان (الحقوق التناسلية) و(الصحة التناسلية) - وهما مصطلحان غامضان يصعب تعريفهما، ظهرا في وثائق

---

(١) Balmforth, K, ibid, P. 3-4.

مؤتمر القاهرة (للسكان) وبكين (للمرأة). وقد تم رفضهما في كلا المؤتمرين، وعليه فلن يكون هنالك إجماع عليهما أبداً».

ومثال آخر:

"Though abortion is not mentioned as a right in any consensus document, the CEDAW and Human Rights Committees are now routinely instructing governments to review and liberalize their abortion laws. Governments have been instructed by these committees to legalize lesbianism and homosexuality."(1)

الترجمة: «بالرغم من أن الإجهاض لم يذكر كحق في أي من الوثائق المجمع عليها، إلا أن لجنتي سيداو وحقوق الإنسان توجه الحكومات بانتظام لمراجعة وتحرير قوانينها الخاصة بالإجهاض، كما أن الحكومات يتم توجيهها بواسطة هذه اللجان لإباحة الشذوذ بأنواعه».

ومثال آخر:

"This year (1999), the CEDAW Committee instructed a government to legalize prostitution. The radical interpretation of 'reproductive rights' includes the right to sell one's body. Prostitutes are seldom called by that name in the United Nations documents. They are now called 'Sex workers', connoting that prostitution is just another job."(2)

الترجمة: «في هذا العام (١٩٩٩م) طالبت لجنة سيداو إحدى الحكومات بإباحة البغاء. فالتفسير الراديكالي لمصطلح

---

(١) Ibid, P. 4.

(٢) Balmforth, K, ibid, P. 4

(الحقوق الجنسية) يتضمن حق الفرد في بيع جسده. كما أن هؤلاء لا يسمين بالباغيات بل (عاملات في مجال الجنس) في إشارة إلى أن البغاء مهنة كغيرها من المهن».

وتقول بالمفورث: إن الحركة المعادية للأسرة تسعى إلى الحيلولة دون معارضة مفاهيمها، وذلك بالضغط على كل الدول والثقافات للرضوخ لرؤياها الراديكالية. وتسعى إلى تحقيق ذلك عبر التقليل من شأن كل الحقوق المتفق عليها عالمياً، ومنها:

"The rights to cultural self-determination, rights to religious practice and conscience, and rights of parents to guide the moral and religious upbringing of their children."(1)

الترجمة: «الحقوق الخاصة باختيار الهوية الثقافية، والحقوق الخاصة بالانتماء والممارسات الدينية، وحقوق الوالدين في الإشراف على التربية الأخلاقية والدينية لأبنائهم».

وتقول بالمفورث:

"In every negotiating session which I have attended for the last two years, anti-family delegations have attempted to weaken these rights and subordinate them to their newly created 'reproductive rights' ... Feminist-dominated delegation called for increased access to abortion ..."(2)

الترجمة: «في جميع جلسات النقاش التي شاركت فيها خلال العامين الماضيين، حاولت الوفود المعادية

---

(١) Ibid, P. 4.

(٢) Balmforth, K, ibid, P. 4

للأسرة إضعاف هذه الحقوق، وجعلها أقل شأناً من ابتكارها الجديد (الحقوق التناسلية).. أما الوفود التي تغلب عليها الأنثويات، فكانت تطالب بتوفير وسائل الإجهاض».

وفي عام ١٩٩٩م وفي اجتماع لجنة وضع المرأة بالأمم المتحدة (Commission on the Status of women) حاول فريق إدخال تعديل يقضي بمنح الأطفال في سن العاشرة الحقوق التناسلية المتمثلة في حرية السلوك الجنسي، والحصول على الموانع، وحق الإجهاض. وذكرت بالمفورث أن ممثل الاتحاد الأوربي في اللجنة طالب بوضع مادة تطالب بتعليم الأطفال (about their sexuality) تقول بالمفورث:

> "The term 'Sexuality' as it is currently being used includes the teaching of homosexuality and lesbianism as alternative acceptable lifestyles."(1)

الترجمة: «المصطلح Sexuality كما يستخدم الآن يتضمن تعليم الشذوذ بأنواعه ليكون أسلوبَ حياة بديلاً مقبولاً».

أما موقف لجنة سيداو من الأديان والثقافات المختلفة فيمثل انحيازاً تاماً لحركة تدمير الأسرة ولاسيما الفكر الأنثوي الذي يسعى إلى قلب كامل للمجتمعات عبر تفكيك العقيدة، والثقافة، والقيم، والأنظمة التي تؤصل في إطارها، وتقول بالمفورث: إن اللجنة لا تتردد إطلاقاً في اتهام الأديان والثقافات بأنها تمثل العقبة الكبرى أمام تحرير المرأة ونيل حقوقها. وترى لجنة سيداو أن من العوامل الأساسية التي تحول دون مشاركة المرأة في الحياة العامة هي القيم المرتبطة بالأطر الثقافية والمعتقدات الدينية. تقول بالمفورث:

---

(١) Ibid, P. 5.

"The committee has repeatedly expressed the view that when its view of women's rights collides with religions and culture, religion and culture must give way. The committee even explicitly instructed one Islamic country that it should reinterpret the Quran in ways that were considered 'permissible' by the Committee. According to the CEDAW committee, "true gender equality does not allow for varying interpretations of obligations under international legal norms depending on internal religious, traditions and customs."(1)

الترجمة: «لقد أكدت لجنة سيداو مراراً أنه إذا تصادم رأيها حول حقوق المرأة مع الدين والثقافة فعلى الدين والثقافة التنحي عن الطريق. بل إن اللجنة طالبت علناً إحدى الدول الإسلامية بإعادة تفسير القرآن بطرق تكون مقبولة للجنة. وطبقاً للجنة سيداو فإن مساواة الجندر الحقيقية لا تسمح بتفاسير مختلفة لفروض المعايير القانوينة الدولية، اعتماداً على الأحكام الدينية والتقاليد والعادات المحلية».

وما يحدث في لجنة سيداو يحدث في لجنة اتفاقية حقوق الطفل، التي تحتوي على ما لا يتفق والطفولة ومسؤولية الأسرة حيالها. فاتفاقية حقوق الطفل تحمل أيضاً بصمات الحركة المناهضة للأسرة خاصة الفكر الأنثوي. فبمقتضى هذه الاتفاقية تصبح الطفولة طبقة مثل طبقة النساء التي حاولت الأنثوية تكوينها عبر نظرياتها وعبر اتفاقية سيداو.

وتكمن خطورة الاتفاقية في الحرية التي تنادي بها للأطفال، فمثلاً للطفل الحق في الخصوصية، وفي اختيار ما يقرأ وما يشاهد في أجهزة الإعلام، ومن يخالط من الأشخاص، وتسعى الاتفاقية لتعيين مشرفين

(١) Balmforth, K, ibid, P. 4

(Ombudsmen) لتلقي شكاوى الأطفال ضد أسرهم، وحول خطورة اتفاقية حقوق الطفل ولجنتها تقول بالمفورث:

"The convention on the Rights of the Child has the potential to completely undermine parents' ability to raise their children responsibly - Moreover it has the potential - and this is why it appeals to the anti-family movement to allow ideologues to insert themselves between parents and children to indoctrinate the children in philosophies which the parents find abhorrent."(1)

الترجمة: «إن اتفاقية حقوق الطفل تملك القدرة على خلخلة مقدرة الأسرة نهائياً على تربية أبنائها. هذا بالإضافة إلى كونها قادرة على السماح للمنظرين بالتدخل بين الأسر والأطفال بقصد تعبئة الأطفال بفلسفات قد تجدها الأسر غير لائقة، ولهذه الأسباب تجد الحركة المعادية للأسر هذه الاتفاقية جذابة».

هكذا استطاعت الحركة الأنثوية تجاوز المعارضة الداخلية في أمريكة خاصة، عبر الانطلاق نحو العالمية بإنشاء الأفرع ونقاط الارتكاز، وهكذا خطت نحو عولمة أفكارها باختراق الأمم المتحدة، والسيطرة على لجانها وخبرائها ووثائقها. وإذا نظرنا في محتوى الاتفاقيات مثل سيداو واتفاقية حقوق الطفل، وفي محتوى برامج العمل الصادرة عن مؤتمرات دولية مثل مؤتمر السكان بالقاهرة ومؤتمر المرأة ببكين، نلاحظ هيمنة الفكر الأنثوي الذي تناولناه بالتحليل في هذا الفصل. وهو يثبت في هذه الوثائق بأسلوب دس السم في الدسم.

وقد يذهب بعضهم إلى أن هذه الاتفاقيات وبرامج العمل غير ملزمة

---

(١) Balmforth, K, ibid, P. 5

للدول، ويمكن التحفظ على بنودها الشاذة. ونقول: إن التحفظ مسموح به في مرحلة انتقالية لضمان التوقيع، ثم تبدأ اللجان بمطالبة الدول برفع التحفظ كما يحدث الآن. أما كونها غير ملزمة فإن هذا الوضع يتم تجاوزه كما تقول بالمفورث بوسائل أخرى مثل ربط المعونات الاقتصادية بالتوقيع والالتزام، أو باستخدام المنظمات التابعة للضغط على الحكومات للتوقيع كما يحدث في السودان الآن بشأن اتفاقية سيداو.

هذه هي الحركة الأنثوية نشأة وفكراً وتطبيقاً عملياً، وهي في مجملها مصوبة نحو تغيير مفهوم الأسرة، بل تدميرها كخطوة أساسية لتدمير المجتمعات وإعادة تشكيلها في نظام عالمي مادي عالماني لاديني إنسانوي جديد. وها هي ذي أطرها القانونية وبرامجها تتنزل علينا عبر منظمة أنشئت من أجل السلام والأمن الاجتماعي والروحي والثقافي والاقتصادي والسياسي.. إلخ وهي الأمم المتحدة، فأصبحت - بعلم أو بغير علم - أداة لرعاية وحماية هذا المشروع المريب.

وها هي ذي الأنثوية تسعى إلى تقطيع أوصال الأسرة بطبقيتها، فتصبح النساء طبقة، والشباب طبقة، والأطفال طبقة حتى تسهل السيطرة على كل فئة لصياغتها بمفهوم جديد. وإذا نظرنا إلى اتفاقية القضاء على أشكال التمييز كافة ضد المرأة (سيداو) والخاصة بطبقة النساء، وإذا نظرنا إلى ما تضيفه لجنة هذه الاتفاقية دورياً لأدركنا أنها حقاً اتفاقية تمييز المرأة من أجل القضاء عليها.

وعزاء الإنسانية أن ثمة حركة اجتماعية مقدرة انتظمت في الغرب، وفي أمريكة خاصة كما وضحنا، ضد عالمية وعولمة الفكر الأنثوي الذي تمتد جذوره إلى ما قبل وايزهوبت. وأن صحوة نسوية ضد هذا التيار التدميري دفعت النساء في مختلف أنحاء العالم للتعامل مع قضايا المرأة الحقوقية العادلة التي تقود إلى ما فيه صلاح المرأة والمجتمع.

ونختم هذا الفصل بعبارة بليغة للكاتبة الأنثوية الإصلاحية البريطانية ناتاشا ولتر وهي تنتقد أيديولوجية الحقد على الرجال التي تقوم عليها الحركة الأنثوية الأمريكية وهي قولها:

"In working for an equal society, men must be women's allies, because unless they take on an equal part of the caring work women cannot hope to go on and on moving into employment and public life: otherwise our children may be left without proper parents, our sick without proper care, and our homes without any spirit of joy at all. Women need men to work with them in finding ways of preserving and sharing those domestic, small-scale activities that were once the sole preserve of women."[1]

الترجمة: «من أجل العمل (على بناء) مجتمع متساو، لابد من تضامن الرجال مع النساء، وإن لم يقم الرجال بتحمل المسؤولية بقدر متساو فإن النساء لا يمكن أن يأملن في المشاركة في مجال العمل والحياة العامة باستمرار: وإلا (إذا فعلن) فإن أطفالنا سيتركون من دون الآباء والأمهات، ومرضانا بلا عناية صحيحة، وبيوتنا لن تسودها روح السعادة. فالنساء بحاجة للرجال للعمل معاً على تلمس السبل للمحافظة على الأسرة والمشاركة في الأعباء المنزلية الصغيرة التي ظلت مقصورة على النساء في السابق».

من هذا النص يبدو واضحاً أن المصلحات من نساء الغرب اللائي خرجن على الفكر الأنثوي، قد أدركن أهمية التوازن والاتزان، والتكافل والتعاضد بين الرجال والنساء لبناء المجتمع المعافى والأسرة السوية

(١) Walter, N, The New Femimism, op. cit, P. 5.

السعيدة. وأدركن مخاطر الدعوة إلى المساواة التي تتلاشى عبرها الخصائص والمميزات والوظائف من أجل تدمير الأسرة وعزل المرأة لتحقيق البدعة المسماة (بالجندر).

وعليه لم يكن غريباً أن دعت ناتاشا نساء بريطانية للتحرر من التبعية للأنثوية الأمريكية قائلة:

"... We should resist being in thrall to their ideas. British women do not need to feel that they are trailing in the wake of their sisters across the Atlantic. Recent American Feminists have lauded the United States as the 'epicenter of the gender-quake, but is American society ... with its far higher rates of rape and murder ... able to give us pointers to a new negotiation between the sexes?"(1)

الترجمة: «علينا مقاومة الخضوع لأفكارهن، فنساء بريطانية لسن بحاجة للإحساس بأنهن تابعات لخطا أخواتهن عبر الأطلسي، إن الأنثويات الأمريكيات الحاليات افتخرن بأن أمريكة هي مركز زلزال الجندر. فهل استطاع المجتمع الأمريكي، وهو يحتل أعلى نسبة في الاغتصاب والقتل، أن يقدم لنا أي مؤشرات لحوار بين الجنسين؟».

إن المعاني والمقاصد التي وعتها ناتاشا وغيرها في خواتيم القرن العشرين، بعد قرن من سيطرة التوجه العالماني الإنسانوي اللاديني بجميع واجهاته من شيوعية وليبرالية وأنثوية.. إلخ، هي المعاني والمقاصد ذاتها التي تنزل بها وحي السماء على المصطفى ﷺ قبل ما يزيد على الأربعة عشر قرناً من الزمان.

---

(١) Walter, N, The New Femimism, ibid, P. 7.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

ويقول تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

ويقول المصطفى ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[١].

ويقول المصطفى ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[٢].

وعليه فالمسلمات أحق بالدعوة لنبذ تقليد الأنثوية الغربية، ولاسيما المنظمات التي انتشرت في بلادنا تدعو لتحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وتدعو للتوقيع على اتفاقية (سيداو) بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

إننا - نحن المسلمات - نملك رصيداً ربانياً يعلي من شأن المرأة والأسرة، ويجعل المرأة متساوية تماماً مع الرجل حيال مسؤولية الاستخلاف واستعمار الأرض والمحاسبة عليها ثواباً أم عقاباً.

وعليه؛ فواجبنا بوصفنا خير أمة أخرجت للناس، أن نعمل معاً رجالاً ونساء لتصحيح وإصلاح مسار حياتنا، وبناء مجتمع العدالة Equity، وليس المساواة Equality، المجتمع الذي يقوم على أصول الدين وهدي النبوة. فالقضية أكبر من كونها علاقة الإنسان بنفسه أو بزوجه أو بأسرته أو مجتمعه. كما أنها ليست صراعاً بين الزوجين سر الوجود ومناط التكليف. فالقضية تتخطى كل هذا إلى مسؤولية الشهود الحضاري على البشرية كلها.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي وغيرهم.

يقول تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

فالخروج على الأصول والمنهاج والسنة هو سر ضعفنا الذي أدى لاستضعافنا. ولن يكون خلاصنا - نحن المسلمين، الذين يشرع لهم الخالق - بإخضاعنا لأحكام وضعية مثل اتفاقية (سيداو) التي استبانت لنا مصادرها ومضامينها وأهدافها والتي ترمي في مجملها إلى القضاء على الأسرة.

الخاتمة

في المقدمة تمت الإشارة إلى ثلاثة موضوعات جوهرية تشكل محتوى هذا الكتاب وهي:

١- تقديم المفهوم الإسلامي للأسرة بوصفه إطاراً تأصيلياً يتم من خلاله تناول موضوع الكتاب الأساسي وهو تغيير مفهوم الأسرة في الغرب.

٢- النظر بإيجاز في تاريخ الحضارة الغربية بهدف البحث عن الصلة بين مكونات مراحل نشأتها وظهور الانحراف بمفهوم الأسرة المسيحي بشقيه الكاثوليكي التقليدي والبروتستانتي التأصيلي.

٣- تناول تغيير مفهوم الأسرة في صورته المعاصرة وذلك ببيان مضامينه الفكرية وواجهاته التنفيذية.

فيما يخصّ الموضوع الأول أوضحنا أن المفهوم الإسلامي للأسرة يخرج بها عن دائرة التكاثر التسخيري (الحيوان) إلى التكاثر المرتبط بمقاصد وغايات خلق الإنسان. وهو وضع جعل من الأسرة آية من آيات الله خلقاً وتكويناً ووظيفة، ولا يتحقق الهدف منها إلا بانخراطها ونسلها في دائرة الأمة حيث تتسع دائرة الأخوة الإنسانية والتعاون على البر والتقوى، وتتبلور مهام الاستخلاف الكلية.

أما فيما يخص الموضوع الثاني فقد وضح أن الغرب لم يتمكن من تكوين حضارة تقوم على سنن النهوض الحضاري الربانية؛ فحضاراته التاريخية (الإغريقية والرومانية) نشأت على مبدأ القوة واسترقاق الإنسان مع عقيدة هي مزيج من الأساطير والخيال والطقوس المبتدعة. كما أدى غياب النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في العقيدة المسيحية إلى عجز المسيحية عن صنع تغيير حضاري في الواقع الإغريقي الروماني ومن ثم الأوربي كله؛ يمكن أن يسمى بالحضارة المسيحية. وأدى الانحراف بالحرية الدينية في ظل حركة الإصلاح الديني إلى ردة دينية ارتبطت بعلم نقد الكتاب المقدس. مما أدى إلى ظهور البديل اللاديني المادي الإنسانوي العالماني. وأصبح الأخير أساساً لحضارة في دول لا يجمع بينها لغة ولا جنس ولا ثقافة، وأُقصي مصدر وحدتها الوحيد (المسيحية)، فلم تجد هذه الحضارة ما تنتسب إليه سوى الاتجاه الجغرافي فكانت (غربية Western Civilization).

في هذا الإطار اتضحت معالم جذور ومصادر الفكر اللاديني العالماني الإنسانوي التي كان لها الدور المباشر في استهداف مفهوم الأسرة المسيحي في الغرب. وهي المصادر ذاتها التي دفعت بنيتشه، وهيغل وماركس، وإنجلز ودوركهايم.. إلخ.

وحول الموضوع الثالث (التيارات المعاصرة ذات الصلة باستهداف الأسرة)، اتضح أن الحركة الأنثوية، كالماسونية والشيوعية، ذراع من أذرع القوى الكامنة خلف التوجه اللاديني في الغرب. ووضح أن التيار الشيوعي الأمريكي الذي يتحرك تحت عناوين اليسار والاشتراكيين والأحرار، إلى جانب حركات الشواذ؛ شكل تحالفاً مع الأنثوية لتدمير الأسرة وتحويل المجتمع الغربي إلى مجتمع إباحي.

ومن تحليل الحركة الأنثوية نشأةً وفكراً وبرامج وأهدافاً، أصبح جلياً أن التركيز على المرأة يشكِّل مدخلاً استراتيجياً للأنثوية لتدمير الأسرة.

فقد ركزت الأنثوية على استراتيجية وشعارات مساواة المرأة التامة بالرجل، وتمكين المرأة Empowerment of women ومنحها حريتها وحقوقها الجنسية، وإلغاء اعتمادها على الرجل اقتصادياً. والهدف الأساسي من ذلك هو تحقيق وصف وتعريف جديد للمرأة أي جندر، وذلك يعني تحقيق المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة بصورة تتلاشى فيها الفوارق الجنسية والوظائف البيولوجية، ويكون للمرأة خيارات جنسية لا تربطها بما تسميه الأنثويات بالجندر النمطي التقليدي، أي ذكر/أنثى، رجل/امرأة، زوج/زوجة!.

ولتحقيق الجندر الأنثوي الجديد قامت الأنثويات بتفكيك الجندر النمطي، واتجهن لاستغلال علم النفس Psychology وعلم النفس التحليلي Psychoanalysis وتقانة الأجنة Reproductive Technologies لتكون وسائط لوضع حلول للقضاء على وجود الرجل في حياة المرأة. وقد تم توضيح آثار الفكر الأنثوي في الأسرة في الغرب، والاتجاه لعولمة المفاهيم ذاتها.

ومن خلال توصيف وتحليل هذه الموضوعات الأساسية تم التركيز على حفز وعي المسلمين بما قدمه الإسلام للإنسانية المستخلفة فيما يخص مفهوم الأسرة ونظامها. كما تم التركيز على بيان أساليب وآليات وعولمة الأفكار اللادينية والأنثوية، وخطورة ذلك على الإنسانية عامة والمسلمين بصفة خاصة، ونخلص إلى أهمية التصدي لهذه المخاطر مثلما تصدت لها التيارات المسيحية المحافظة في الغرب.

واستشرافاً للمستقبل مع النظر في واقع المسلمين اليوم، نتساءل: أين الأسرة المسلمة اليوم من المفهوم الإسلامي الشامل الذي أراده الخالق نموذجاً يحتذى ومثالاً يجسد في الواقع الإنساني تحقيقاً لهذه الإرادة الإلهية؟؟.

إن البون لشاسع بين واقع الأسرة المسلمة اليوم والمثال المنشود الذي تجسد في عهد النبوة في فجر الإسلام. فالأسرة المسلمة، ومنذ استضعاف المسلمين واحتلال بلادهم، ظلت رهن مؤثرات الاحتلال ولاسيما الاستقرار السياسي، والركود الاقتصادي، والظواهر الاجتماعية والسلوكية الغربية، هذا بالإضافة إلى عوامل الاستلاب الفكري والثقافي والسلوكي.

إن المؤثرات والعوامل ذاتها قد ازدادت حدتها في خواتيم القرن العشرين فأصبحت استهدافاً بواحاً للإسلام بحسبانه سر صمود الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم. فأصبح الالتزام والدعوة لحكم الإسلام تطرفاً، ومجاهدة الأعداء إرهاباً. ولم يسلم المسلمون من ويلات الحروب، ولم يسلم الدعاة من الحبس والتنكيل، بل لم يسلم كتاب الله الكريم من التدنيس. طال الأمر مناهجنا التعليمية بقصد محو كل ما له علاقة بالدين. كما أن تطور تقانة المعلومات من فضائيات وشابكات قد تم تسخيره في حرب طاحنة لطمس هوية المسلمين؛ وذلك بتقديم نماذج تمثل انقلاباً خطيراً على أصول الدين وقيمه وآدابه، كما يتم استغلال بعض المنظمات لتبني الفكر الأنثوي وذلك برفع شعارات تحرير وتمكين المرأة ومساواتها بالرجل ومنحها حقوقها وحريتها الجنسية (الجندر). هذا إلى جانب الضغط على الدول الإسلامية للتوقيع على وثيقة (سيداو) التي تناقض الشريعة الإسلامية، ولا تحترم عقيدة المسلمين وثقافتهم وتقاليدهم كما نص ميثاق حقوق الإنسان[١].

(١) حول مخالفة (سيداو) للشريعة الإسلامية انظر:

١- رؤية تأصيلية لاتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة، عواطف عبد الماجد، إصدار مركز دراسات المرأة (السودان).

٢- رؤية نقدية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة CEDAW، إصدار اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل بالمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة.

وفي ظل تحديات خطيرة كهذه وغيرها كثير، نوصي في خاتمة الكتاب بالآتي:

١- أن يعمل المسلمون جميعاً رعاة ورعية على رعاية الأسرة بوصف ذلك فرضاً دينياً؛ وذلك بتسهيل الزواج وتوفير مقومات الحياة الأسرية الأساسية من حاجات مادية وتعليم ورعاية صحية.. إلخ.

٢- أن يقوم رعاة الأمة المسلمة بوضع وتنفيذ استراتيجية تعليمية وثقافية وإعلامية موحدة لتحصين مجتمعات المسلمين وتقديم البديل الإسلامي الذي هو واجب وفرض ديني قبل أن يكون التزاماً سياسياً.

٣- أن يعمل رعاة الأمة المسلمة على النَّهْدِ للإصلاح الشامل وإزالة كل ما شاب مجتمعاتنا من ظواهر منافية للدين وذلك عن عقيدتها وأصالتها بعيداً عن الرغبات والأهداف الأجنبية.

٤- أن يدعم رعاة الأمة المسلمة المنظمات النسويّة والشبابية والطلابية، لتقوم بدورها في خدمة المجتمع محواً للأمية الدينية والأبجدية، والسلوكية، كل هذا انطلاقاً من قيم الإسلام الداعية إلى العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكافل، والتراحم، والإيثار.

٥- أن يدعم رعاة الأمة الهيئات والمنظمات الإسلامية لتقوم بدورها في الدعوة والتصدي لكل مظاهر استهداف الإسلام وتدنيس مقدساته.

٦- أن يدعم رعاة الأمة العلماء المختصين لبحث وتحليل مكونات الفكر المادي اللاديني العالماني الإنسانوي، وكشف دوائره

الخفية وخططه الاستراتيجية. وقد أتاحت شبكات تبادل المعلومات (الإنترنت) وسيلة غير مسبوقة للحصول على المراجع والإصدارات.. إلخ؛ ويجد القارئ بعض المراجع المقترحة حول هذا الموضوع في فهرس المراجع.

إن استقرار الأسرة عامل أساسي في استقرار المجتمع، واستقرارُ الأنظمة السياسية والاقتصادية رهن باستقرار الأسرة وبالتواصل الحميم بين القمة والقاعدة؛ حتى لا يجد الأعداء ثغرات لاختراق مجتمعاتنا واستغلال ضعاف النفوس في اختراقها وتدميرها.

إن الأسرة المسلمة اليوم، ورغم كل ما أوردناه من التحديات والصعاب التي تكابدها، ظلت، بمفهومها الرباني وتشريعاتها المركوزة فيه، سر صمود مجتمعات المسلمين، والدرع الواقي الذي تحطمت عليه كل محاولات الاستلاب والتغريب.

بهذه الهبة الربانية الكامنة في تكوينها وتشريعها والتي تشكل حماية للمجتمع، تكون الأسرة المسلمة جديرة بالرعاية والتأمين، ونكرر في الختام ما أوردناه من قبل من قول الشيخ محمد الغزالي عن الأسرة: «إن تكوينها دين، والحفاظ عليها إيمان، ومكافحة الأوبئة التي تهددها جهاد، ورعاية ثمراتها من بنين وبنات جزء من شعائر الله».

والحمد لله رب العالمين

المراجع

- القرآن الكريم.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت (د. ت).
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٣٠، ٢٠٠١م.
- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، (د.ت).
- الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلتوت، دار الشروق، بيروت، ط٩، ١٩٧٧م.
- من توجيهات الإسلام، الشيخ محمود شلتوت، دار الشروق، بيروت، ط٨، ١٩٨٢م.
- الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، دار المعرفة، المغرب، (د.ت).
- العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة، د. عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠.
- نظام حقوق المرأة في الإسلام، آية الله مرتضى المطهري، منظمة الإعلام الإسلامي، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، طهران، ط٣، ١٩٨٧م، ترجمة د. أبو زهراء النجفي.

- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٠م.
- الحجاب، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، دمشق، (د.ت).
- الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.
- علم الاجتماع – مدخل، د. عبد الباسط محمد حسن، مكتبة غريب، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.
- الأصول في علم الاجتماع، د. إبراهيم عيسى عثمان، كاظمة للنشر والترجمة، الكويت، ١٩٨٣م.
- الاجتماع ودراسة المجتمع، د. كمال دسوقي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.
- أصول الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم، د. زكريا بشير، روائع مجدلاوي، عمان – الأردن، ٢٠٠٠م.
- أصول الصهيونية في الدين اليهودي، د. إسماعيل راجي الفاروقي، مطبعة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الماسونية، عقدة المولد وعار النهاية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.

المراجع الأجنبية:

- The Family Structure in Islam: Hammudah 'Abd al 'Ati, American Trust publication, 1977.
- Tawhid: Its Implications Foe Thought and Life: Ismael R. al-Faruqi, international institute of Islamic thought, U.S. A. 1982.
- Historical Atlas of the Religions of the World: I.R. al-Faruqi, ed, Macmillan Pub. Co, Inc, U.S.A. 1974.
- Nietzsche, Strathern, p, Virgin Books ltd 2001.

- Essential Writings of Karl Marx: David Caute, Collier books, N, Y, 1967.
- Emile Durkheim, His life and Work: Steven Lukes, Penguin Books, England, 1975.
- The New World Order: Pat Robertson. Word publishing U.S.A. 1991.
- The Clash of Civilizations, Samuel P. Huntington, The Free Pares, U. K. 2002.
- The Closing of the Western Mind: Charles Freeman, Pimlico, U. K. 2002.
- The Family: An Introduction: J. Ross Eshelman, Allyn and Bacon, Inc, 1978.
- Sociology of the family: Michael Anderson, ed, penguin books, England, 1978.
- Spirit Controlled family living: Tim and Bev. La haye, fleming H. Revell Co, 1978.
- The War Over the family: Brigitte and peter berger, penguin books, 1983.
- Social History of woman and Gender in the modern middle east: Margaret Meriwether and J. Tucker, ed, westview press, U.S.SA.
- Investigating families ans households: Nik Jorgensen, Collins educational, London, 1996.
- The Politics of woman's liberation: Jo freeman, Longman Inc. N. Y 1975.
- Women in western political thought: susan M. Okin, princton University press.
- Introducing Feminism: susan Alice Watkins, M. Rueda and M. Rodriguez, Icon books, U.K. 1999.
- Introducing Postrminism: Sophia phoca and R. Wright, Icon books, U.K. 1999.
- Feminisms: Sandra Kemp and J. Squires ed, oxford university press, 1997.
- The New Feminism: Natasha Waltaer, Virago press, 1998.
- Feminism and postfeminism: Sarah Gamble, ed, Routledge N.Y, 2000.
- Feminism/postfeminism: Linda J. Nicholson, ed, Routledge london, 1990.
- The Origin of the family: Frederick Engels, (1884), online version: Marx Engels internet archive (Marxists org) 1993.

Further reading... (حول موضوعات الفصل الثالث)

- Fire in the Minds of Men: Origin of the Revolutionary Faith: James Billington, Basic books, N. Y, 1980.

- When the world will be as one: The coming new world order in the new age: Tal brook, harvest house, 1989.
- The Birth of the Modern World Society, 1515-1830: Paul Johnson, Harper Collins,, N. Y. 1991.
- Proofs of a conspiracy, 1798: John Robison, Boston western islands, 1967.
- Morals and Dogma of the Ancient and Accepted rite of Scottish freemasonry: Albert pike, L. H. Jenkins, 1921.
- A New encyclopaedia of freemasonry: Arther, E. Waite, London, (n,d).
- The Anglo - American Establishment: From Rhodes to cliveden: Carroll Quigley, Books in focus, N. Y, 1981

مستخلص

كتاب يبحث في التطورات التي طرأت على الأسرة في الغرب بسبب تغيّر الزمن وما طرأ من أحداث، ثم تأثير ذلك في الأسرة المسلمة من خلال العولمة والهيمنة والغزو الغربي.

ينقسم الكتاب بعد التمهيد إلى أربعة فصول، الأول ((مفهوم الأسرة في الإسلام)) قدمت فيه المؤلفة هذا المفهوم بوصفه إطاراً تأصيلياً، ثم من خلاله تناولت موضوع الكتاب الأساسي وهو تغيير مفهوم الأسرة في الغرب، وتحدثت عن مظاهر الخروج عن هذه المفاهيم. وتناولت في الفصل الثاني ((نشأة الحضارة الغربية)) وطأت له بإشارة عن سنن النهوض والاستبدال الحضاري ثم انتقلت إلى موضوع مراحل نشوء الحضارة الغربية بمرحلتيها القديمة والمعاصرة. وبحثت خلال الفصل الثالث في ((مصادر اتجاهات تغيير مفهوم الأسرة في الغرب)) فتوقفت عند مفهوم الأسرة لدى البروتستانت، ثم عند مفهوم الأسرة لدى أصحاب المادية اللادينية المانفستو والفلاسفة الشيوعيين. وختمت الكتاب بالفصل الرابع بموضوع ((تغيير مفهوم الأسرة في الغرب: اتجاهات معاصرة)) فتناولت فيه في المبحث الأول الحركة الأنثوية كالماسونية والشيوعية التي تهدف إلى تدمير الأسرة، فتحدثت عن جذور الفكر الأنثوي وبواكير الأنثوية والموجة الأنثوية الأولى، وفي المبحث الثاني تناولت الحركة الأنثوية لتغيير مفهوم الأسرة ونشأتها في منتصف القرن العشرين وتياراتها وأشكالها وتأثيرها في تفكيك الأبوية والدين واللغة والفن والأزياء وتفكيك الزواج والأسرة، وانتهت إلى موضوعات الجندر وإنجازات الحركة الأنثوية وتيار مناهضة الأنثوية في الغرب وعولمة الفكر الأنثوي. وختمت بنتائج وتوصيات.

خديجة كرار الشيخ الطيب بدر

متخصصة بالدراسات الإسلامية

- من مواليد السودان **1948**

● دكتوراه في الأديان المقارنة جامعة تمبل فيلادلفيا بأمريكة **1986** .

● أستاذة ورئيسة قسم الدراسات الإسلامية في جامعة أم درمان الإسلامية.

● نائبة في المجلس الوطني (البرلمان) لدورتين

● عضو لجان التربية والتعليم : الشؤون الاجتماعية/ العلاقات الخارجية .

● عضو مؤسس لاتحاد البرلمانيات المسلمات (مقره باكستان)

● رئيسة لجنة تأسيس الاتحاد العام للمرأة السودانية **1994-1993**

● عضو هيئة علماء المسلمين بالسودان.

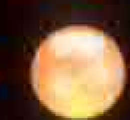
● مقررة المجلس العلمي للعالمات المسلمات (الاتحاد الإسلامي النسائي العالمي) **1996-1993**، **2008- 2000**

THE FAMILY IN THE WEST

The Causes of Changing its Concepts and Function
A Critical Analytical Study

Al-Usrah fī al-Gharb
Asbāb Taghyīr Mafāhīmihā wa-Waẓīfatihā
Dirāsah Naqdīyah Taḥlīlīyah

Dr. Khadījah Karrār al-Shaykh al-Ṭayyib Badr



هـذه الدراسـة جاءت في وقت العمـل الإسلامي الراشد لتحصين المجتمع مـن موجات العلمانية وهي تمتطـي مـتن العولمة وتستهدف نظـام الأسرة في الإسـلام بحسبانه سر تماسـك مجتمعات المسلمين. ويتخـذ هـذا الاستهداف تغيير شريعة الأسرة بالصكوك الدوليـة كاتفاقية "سيداو"، وتغريب الحياة الاجتماعيـة عـن طريـق تغريب مناهج التعليـم وعن طريق البـث الفضائي والشبكـي. حللت الكاتبة المرجعيـات الفكريـة للتوجـه العلمـاني اللاديـني. وكشفت عـن اتجاهات الحركـة الأنثويـة المصادمة للديـن والفطـرة وقدمـت هـذا التحليـل والكشـف بـين يـدي مفهـوم الأسـرة في الإسلام الـذي يمثل التحصين الفكري والأخلاقي الذاتي في وجه الاستهداف.

أ.د. أحمد علي الإمام - رئيس مجمع الفقه الإسلامي

بفكـر المهمـوم ونظـر الفاحـص خـرج هـذا الكتـاب، غاصت فيـه الكاتبـة في تطـورات الفكـر والنشاط البشري عند أولئك الناس في أعز ما تملك المجتمعات من أسس الترابط وهو الأسرة.
والقـارئ سيجـد عمـلاً متكاملاً ذا بناء قوي فكراً ومنهجاً، قدمت فيـه الكاتبة بعد العلم والتمحيص ما يسد ثغرة تأتي منها رياح الفساد في الأرض ليبقى الخير إن شاء الله.

أ.د. محمد أحمد الشامي - عميد كلية اللغة العربية - جامعة أم درمان الإسلامية

طوفـت الكاتبـة في ساحـات أمر هـام هو أساس مجتمـع الإنسان وبوتقتـه التي تنصهـر فيها عناصره وتـبرز سمـات تميزه وهـو الأسرة سبرت الكاتبة أغوار الموضوع في المجتمعـات الغربية التي ظلت تدير مقـود التأثـير في العـالم مستفيـدة مـن أسباب القـوة المادية التي مكنتهـا قبلاً مـن التوسع واحتلال الشعـوب وفـرض رؤاهـا رغبة ورهبة. والكتاب دراسة عميقة ودقيقة جـاءت في وقت الحاجة إليها، ولا شـك أنـه سيفتـح أبوابـاً للتفكـير والنظـر والحـوار لوضـع معالجات للهجمـات المتلاحقة علـى النظم الاجتماعية والقيم الدينية في العالم الإسلامي.

أ.د. علي أحمد محمد بابكر - أستاذ الفقه ورئيس مجمع اللغة العربية

Behzad Ali Issa



www.furat.com
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والبرامج العـ



ISBN 978-9933-10-062-9
9 789933 100629